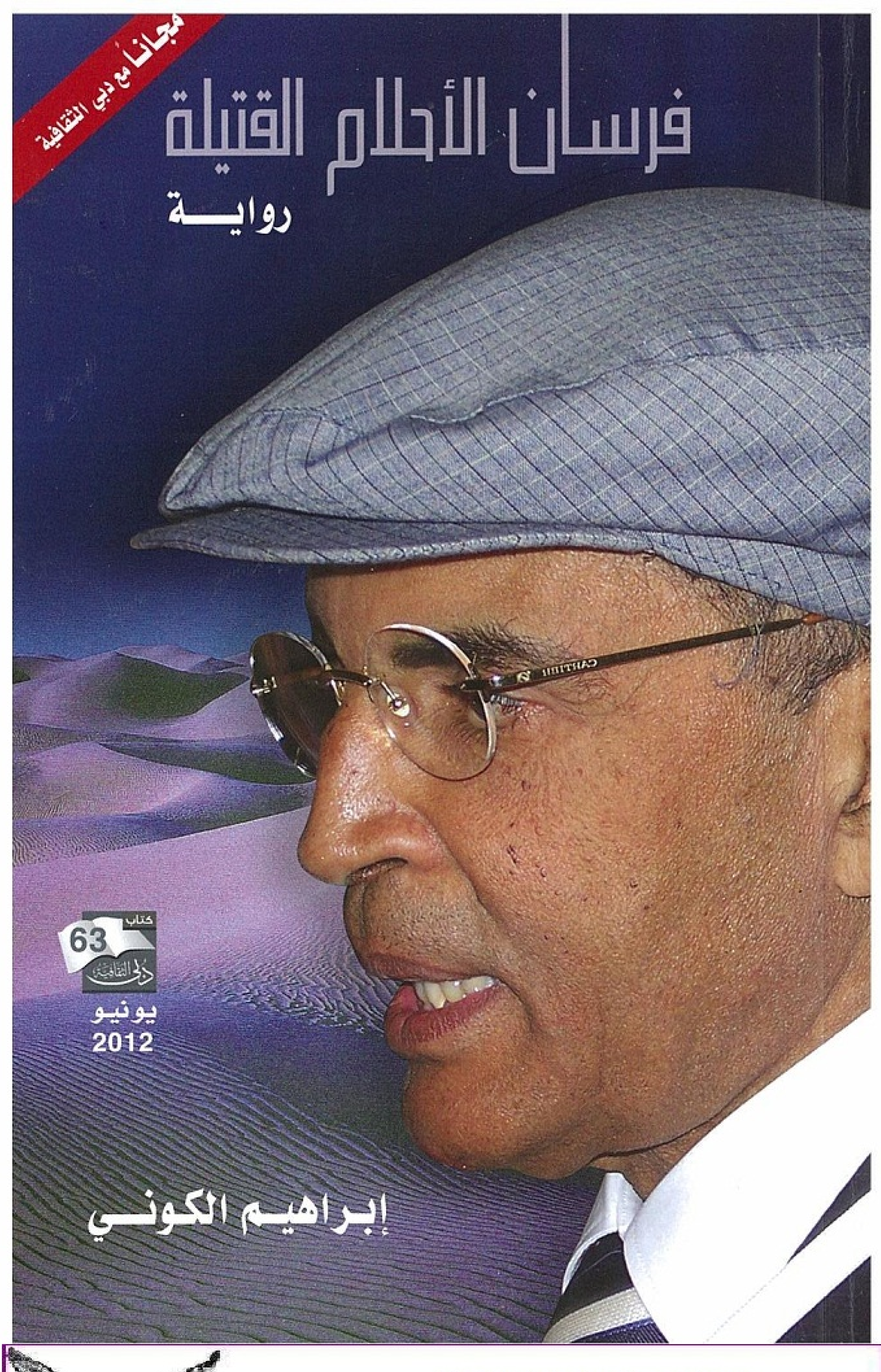

مجاناً مع دبي الثقافية
فرسان الأحلام القتيلة
رواية
كتاب
63
دبي الثقافية
يونيو
2012
إبراهيم الكوني

كتــاب



يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 63

(رواية)

فرسان الأحلام القتيلة

إبراهيم الكوني

■ الطبعة الأولى، يونيو ٢٠١٢



مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار



للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحريـــر والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/+٩٧١٤
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / +٩٧١٤
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/+٩٧١٢
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/+٩٧١٢

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/+٩٧١٤
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/+٩٧١٤

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠ / +٩٧١٤
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/+٩٧١٤

هذه الرواية

بقلم: سيف المري

أجمل الخيال ما بني على الواقع، ومن هنا تستمد رواية فرسان الأحلام القتيلة واقعيتها المتخيلة أو خيالها الواقعي وقوتها وتوهجها وإبهارها، منطلقة من أحداث الربيع العربي الليبي، ولا أقدر من الأستاذ إبراهيم الكوني لسبر أغوار الشخصية الليبية كونه من أبنائها، وقد عايش وعاين أحداثها وشخوصها واكتوى بنار جلاديها وتحمل نتيجة رفضه نهج قيادتها البائدة فدفع الثمن الباهظ غربة وحنيناً للوطن الذي كان يرى حرائقه وكوارثه على يد حاكم متقلب المزاج إلى درجة تبعث على الدهشة.

وترصد الرواية في مجملها الأيام الأخيرة للنظام الذي جثم على صدور الليبيين لمدة تربو على الأربعين عاماً، مارس خلالها كل أنواع التصفيات الجسدية والنفسية والفكرية، وظن أنه حسم الأمر وطاب له المقام بعد أن تخلص خلال فترة هيمنته من كل

أشكال المعارضة والمناوءة، ومارس أبشع أشكال التنكيل بأحرار ليبيا، ولم يتورع عن نشر الارهاب وقتل الناس دون سبب إلا التخويف، وهذا كله شكل مادة روائية خصبة فتصرفات النظام السابق في ليبيا تتفوق في الحقيقة على كل متخيل، وهلوسات قائدها لا يمكن أن تخطر على بال الأسوياء، وقد كانت شخصيته بالغة التعقيد وقد احتفظ لنفسه باللقب ذاته أي تعقيد طبعاً مع تصرف بسيط وهو حذف التاء، ثم تقلبت به الحال بين تعصب مفرط للعرب والعروبة ثم انفصال تام عن كل ما هو عربي!

وحتى تكتمل الدراما الحقيقية فقد تخلى عنه من فتح لهم خزائن ليبيا وكانوا أول المناوئين له لينتهي به الحال نهاية مأساوية تشبه ما يحدث في أفلام هوليوود ويلفظ أنفاسه الأخيرة دون حتى ولو محاكمة صورية تعترف بآدميته.

من كل هذا الكم الهائل من الآلام تولد رواية فرسان الأحلام القتيلة كأول عمل كبير يسبر ويرصد بعضاً مما حدث في ذلك القطر العربي العزيز فلنستمتع معاً برائعة الأستاذ الكوني الجديدة ونحلق في عوالمه.

مع تحياتي

(رواية)

فرسان الأحلام القتيلة

إبراهيم الكوني

إلى : سالم جُحَا

الفارس الذي اختزَل في شخصِه (رمزاً) فرسان الجيل

الذين بعثوا من عَدَمٍ أحلام الجيلِ القتيلة!

63
الإصدار «٦٣» يونيو ٢٠١٢

(باليقظة - نملك عالماً واحداً
بالحُلُمِ - كُلٌ يملك عالمه)
هيراقليط

(نحن منسوجون من السّليلة نفسها
التي نُسِجَت منها أحلامنا)
شكسبير

(نحن خُلقنا من أحلام يقظتنا)
باشلار

١

بالأمس كنتُ فأر كتب، واليوم أنا فأر جدران. أيليق بفأر الكتب أن يتنازل عن كبريائه ليتقمّص بَدَن فأر جدران؟ ولكن ألا يبرّر هذا التحوّل الفرق بين واقع الأمس إذا قورن بواقع اليوم؟ أمس كنت فيه ميّت القلب فلم أجد مفرّاً من قتل الوقت بقرض القراطيس في مقابل اليوم الذي استيقظ فيه الأمل لأجد نفسي أحفر لي طريقاً في الحيطان سعياً لبلوغ بنيان «الضمان»؛ فما أبعد الشبه بين الليلة والبارحة، بين الأمس واليوم لأن الفرق بين هذين النقيضين كالفرق بين اليأس والأمل برغم انحباسي في الشقّ، وبرغم فوهات البنادق التي تتصيّدني، وبرغم الجوع الذي يفترسني. وهذا أيضاً مفارقة. مفارقة أن يكون الإنسان سعيداً في الحبوس، في وقتٍ يلعن فيه يوم أمس كان فيه طليقاً. ولكن هل التجوال بضميرٍ مثقل حرية؟ هل الحرية مجرّد سعي في الأرض كالبهيمة؟ كلاّ، كلاّ! الدبيب في الأرض ليس حرّية، ولكنه.. ولكنه تنقل! ومعاندة الحصار في شقوق الجدران حرية ويا لها من حرية! حرية مادام الأمل يحيا في الوصول إلى بنيان «الضمان»، حيث يحتشد القناصة، وتنتصب فوهات الحمم التي شلّت حياة المدينة. شلّت حياة المدينة منذ اشتعل الفتيل وشبّ الحريق.. منذ

أسبوعين كاملين. فالناس اليوم سجناء دورهم، والدور سجينة مدينتهم، والمدينة سجينة أسوار البنادق التي تترصّد الكائنات لتقتنصهم بمجرّد ظهورهم. تترصّدهم ليل نهار. فماسورات أسلحة القنّاصة مزوّدة بعدسات الرؤية الليلية أيضاً. ومدى نيران أسلحة هؤلاء الأوباش خرافية. إنها تطال أبعد نقطة في شوارع المدينة. إنها تصطاد من موقع البنيان هرّة تنبش كوم قمامة في نهايات شارع الحاضرة. إنهم ملّة جنونية لا وجود لها إلا في أفلام السينما، هؤلاء القنّاصة. وهم يتمادون في استخدام مواهبهم بفضل غياب الخطر والإحساس بالأمان. الإحساس بالأمان سرّ التفوق. فهم لم يُرهبوا المدينة بأكملها إلا بسبب إحساسهم بالأمان. وأنا مثل أغيار كثيرين سواي، لم ننطلق صوب بنيان «الضمان» مخترقين جدران البيوت إلا لنُفقدهم هذا الإحساس. الإحساس بالأمان. يتحصّنون بجدران بناية «الضمان»، ويلتقطون المارّة ببنادقهم اللئيمة من أبعد مسافة ليتساقط الأشقياء في الطرقات. منهم من يلفظ أنفاس النزع الأخير في لحظات؛ وهؤلاء هم المحظوظون! ومنهم من ينزف طويلاً. ينزف هؤلاء طويلاً. الأكثر حظاً ينزفون زمناً أقل. ينزفون ساعات. ينزفون ساعات قد تطول يوماً قبل أن يهمدوا. ولكن الأقل حظّاً ينزفون أمداً قد يستغرق أياماً دون أن يجرؤ

أحد على نجدتهم. يظلون يئنّون أنيناً خافتاً، أو عالياً، بعضهم يحشرج في كفاحه لالتقاط الأنفاس، وبعضهم يستصرخ طمعاً في الفوز بنجدة. وبعضهم يستسلم لقدره ما أن يُصاب بالطلقة فيهوي ليهمد لتوّه. ففي الأيام الأولى كان الناس يهرعون لنجدة المصابين ونقلهم لبرّ الأمان. كانوا يتعاونون في حملهم إلى الشوارع الخلفية قبل الاحتيال لإيصالهم إلى حظائر المستشفيات الميدانية. ولكن النجدة توقفت بعد تدخّل القنّاصة. توقفت النجدة بعد أن حوّل هؤلاء الأبالسة المنقذين أيضاً إلى ضحايا.

فكم من رجلٍ لقي مصرعه في اللحظة التي انحنى فيها على بدن جريح ليصير بدوره جريحاً أو ضحية تسبق الضحية إلى رحاب الأبدية! ولكن محاولات الإنقاذ التي توقفت نهاراً استمرت ليلاً. لم يكتب لها أن تستمر طويلاً لأن الأبالسة المعسكرين على بناية «الضمان» ما لبثوا أن احتالوا على الظلمات بالأقنعة الكاشفة ليلاً فأسقطوا المزيد من الضحايا، فلم يجد الأهالي مفرّاً من الاستعانة بالحبال لجرّ الجرحى إلى الأبنية الخلفية. ولكن الحبال لم تكن لتنقذ إلا القلّة، لأن الإصابة تفقد المصاب صوابه حتى لو لم يفقد الوعي، لأن الفجاءة تشلّ فيه الإرادة على ما يبدو. تشلّ فيه إرادة الدفاع

عن النفس. تشلّ فيه إرادة الحياة. إنسانٌ خرج للحظة ليختطف الخبز من الدكان المجاور فإذا بقطعة معدنية طائشة في حجم حبّة الفول تخترق جسده الهزيل. تخترق جسده المشفوع بالعافية، الموعود بالخلود، لتحتفر فيه جُحراً! ألا يحق لإنسان كهذا أن يفقد صوابه دهشةً لهذه المصادفة الحمقاء؟

والواقع أن هذه المصادفة الغبية هي التي كان لها فضل إشعال فتيل الحريق منذ أول يوم. منذ أوّل مظاهرة. تلك المظاهرة المضحكة التي سار فيها بضعة أنفار فقط فأثارت استهزاء عقلاء المدينة بسبب قلة العدد. ولكن القطعة المعدنية الطائشة أنقذت الموقف.. يومها أيضاً. قطعة معدنية طائشة انطلقت من فوهة سلاح يحمله شرطي أحمق تخترق جسداً موعوداً، أيضاً بالخلود مثله مثل كل الأجساد التي لم يخطر الموت لها يوماً على بال! تخترق جسد مخلوق موعود بالخلود مرتين لأنه ليس شيخاً في أرذل العمر، ولكنه شاب في مقتبل العمر. فكيف لا يكون هذا العمل عدواناً على شريعة الله التي نصبت هذا الكائن خليفة لها في الأرض؟ بأي حق ينازل شرطي إرادة الله فيميت خليفته على الأرض لا لشيء إلا لأنه خرج إلى السبيل رافعاً راية تظلّم؟ أليس هذا استفزازاً لأمّة الخالدين المستخلفين على الأرض بعهد الله؟ أليس هؤلاء هم

الأحياء عند ربهم يرزقون والجديرون بلقب شهداء؟

زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الدور أثقالها لتعمّ القيامة. اختفى من المكان شبح ليحجب الأفق جيش أشباح. انتهى دور الشرطي ليبدأ دور زبانية من نصّب على الدنيا الشرطي.

٢

مازلتُ أتساءل: هل كنت سأهبّ ، كما هبّ كل من هبّ ودبّ لو لم أعرف القتيل؟ لا أدري. ولكن ما أدريه هو أني لم أمتشق السلاح مُحاكاةً للأنداد، ولكن سقوط القتيل شهيداً هو ما زعزعني. هو ما كشف لي مجهولاً لم أعرفه قبل ذلك اليوم في نفسي. فأنا من جيلٍ لم يعد يؤمن بشيء. بل ربّما هو الجيل الذي لم يؤمن يوماً بشيء! جيلٌ ولد ميّتاً لأنه فتح عينيه على دنيا ميتة! دنيا جرداء برغم أنها تتغنى آناء الليل وأطراف النهار بفردوسٍ ذي لونٍ أخضر! وكلما زاد اليقين بالمستقبل الأخضر ازدادت الأرض تصحّراً والحياة في البلاد شحّاً وشحوباً! ليت الشحّ اقتصر على الأرض وحدها، ولكنه تسلل ليصير بصمةً مطبوعةً في النفوس! وأظنّني أتجنّى على الحقيقة عندما أنعَت هذه البليّة بالشحّ، لأن إسمها الحقيقي يجب أن يكون **الإفلاس**! أو بالأصح: **لعنة**! وعندما يكون الناس ملعونين فهم يتعادون. إنهم يكنّون كراهية دفينة لبعضهم بعضاً. كراهية مجانية لأنها بلا سبب. فالأمّ بالنسبة للإبن لا تعود أمّاً! و الإبن بالنسبة للأم لا يعود إبناً ! وما يُقال عن علاقة الأمّ والابن يُقال على كل صلة قربى! فإذا كانت صلات ذوي القربى تتقاسم الكراهة، فماذا يمكن أن يُقال عن صلات الأباعد، أو صلات الأغراب؟

نشأتُ في ساحةٍ معاديةٍ بالفطرة دون أن أفهم سرّ هذا العداء. عداءٌ متبادلٌ في البيت. عداءٌ ألعن في المدرسة. عداءٌ مبينٌ وسافرٌ في الشارع بدليل أني لم أخرج يوماً لقضاء حاجةٍ من الحوائج التي لا غنى عنها إلاّ وتلقيت إهانة، أو تعرّضت لاستفزاز، أو دخلت بسبب هذه الروح في عراك مع أغيارٍ يعانون الداء ذاته. هل قلت الداء؟ كلاّ! ذاك أكبر من الداء. إنه وباء! وباءٌ بدليل أنه ينتقل بالعدوى. عدوى سَرَت في عروق المدينة كلها، ثم انتقلت إلى المدن الأخرى ليتحوّل الوطن كله مشفىً هائلاً يعجّ بمرضى يعانون جميعاً من هذا الورم الخبيث: **الكراهة!**

تساءلت طويلاً عن طبيعة الورم فاعتزلتُ. تقوقعت حول نفسي كالقنفذ لأني وجدت أن العزلة أحسن سلاح للدفاع عن النفس. أحسن سلاح لمواجهة العداء. ولكن العزلة كانت تحدّياً آخر يتحوّل فراغاً ، بل خواءً، إذا لم نملأه بحشوة، لأن الوقفة وجهاً لوجه مع ما نسمّيه «النفس» شرّ أسوأ كما اكتشفت. وكي لا أرتكب حماقةً في حقّ هذه النفس هدتني الأقدار إلى **الكتب**. غرقت في الكتب منذ ذلك اليوم. غرقت ولا أجد حرجاً في الاعتراف بأن لها يرجع الفضل في مداواتي من الداء العضال الذي أراه ينهش الجميع، بل إليها يرجع الفضل في بقائي على قيد الحياة. هل بالغت؟ كلا! فكم من مرّة قررت أن أندفع لألقي بجسدي البائس (الذي لم أكتشف أنه ذو قيمة إلاّ ساعة امتشقت



السلاح) تحت عجلات شاحنة، وكم من مرّة قرّرت أن أربط على صدري لوح حجر وأرمي بنفسي في يمّ البحر، وكم من مرّة فكّرت أن الأفضل أن أقفز من أعلى طابق في البنيان. ولكنني كنت أتراجع في كل مرة لا رحمةً بنفسي أو بأهلي، ولكن لأنني اكتشفت تالياً أن الرغبة في المغادرة ليست هاجسي وحدي، ولكنها **هاجس الجميع!** هل قلتُ الجميع؟ عندما أقول الجميع فإنّما أعني الأقران. الأنداد. الزملاء. كلّ من عرفت من جيلي. فهل المرض العضال حكرٌ على الجيل؟ هذا ما يبدو، برغم أنني أرى الجيل الذي سبق أيضاً يطفح بالعداء. يعاني الكراهة. كل ما هنالك أنه جيلٌ أقدر على ترويض مشاعره، أو بالأصح، أقدر على إخفاء مشاعره .

هل تريدون أن أسمعكم الحقّ؟ الحقّ أن الكراهة التي قتلت في قلوبنا الأحلام كانت بسبب **اللاّمبالاة.** كل شيء سيان بالنسبة لأناسٍ لا يعرفون ماذا يريدون! كل شيء سيان بالنسبة لأناسٍ لا يعملون! وإذا عملوا فهم لا يجنون! كل شيءٍ سيان في واقعٍ يستوي فيه الذين يعملون والذين لا يعملون ! والذين يعلمون والذين لا يعلمون! بل من يعمل عرضةً للمساءلة أكثر لأنه يخطئ أكثر! ومن يعلم عرضة للقصاص أكثر لأنه يستفزّ باستخدام علمه! ولماذا على من يعمل أو على من يعلم أن يأبه

لشيءٍ إذا كان الحصاد في كلا الحالين الحسنات؟ لماذا على من يعمل أو من يعلم أن يُتعب جسداً ميّالاً للخمول بالطبيعة، أو ينهك عقلاً يستمرئ الكسل بالطبع، إذا كانت النتيجة باطلاً في الحالين؟ وهكذا فَقَدَ العمل **روح الصلاة**، وأضاع العقل هبة الحُكم ليهجع الجميع في أحضانٍ يصير لها الاسترخاء فردوساً، فكيف لا يؤدّي **مصرع الأحلام** إلى كراهةٍ علنية، و فوق ذلك مجّانيّة؟

ولكن يوم اندلاع نار الحريق كان يوم سقوط بعبع الكراهة. فهل أحبّ الناس بعضهم بعضاً لأنهم لم **يكتشفوا** بعضهم بعضاً إلا يوم قَدَح الزّند بسَقَط الحريق؟

٣

التاريخ أيضاً رجمته الأيقونة الخضراء بحجر! هل رجمته بحجر؟ كلا! الواقع أن التاريخ رجمته الأيقونة بألف حجر! بألف ألف حجر! ولو لم أستجر بحضرة الكتاب لما كان لي أن أعلم المصير الذي آلىَ إليه التاريخ في زمن السلالة الخضراء! ويبدو أن هذا هو سرّ مناصبة الأيقونة العداء لكلّ ما متّ بصلة لحضرة القرطاس! ناصبتها الأيقونة العداوة لأن التاريخ بجلالة قدره يسكن هناك! هل التاريخ وحده تحتضنه دفّات الكتب؟ كلا! بطون الكتب تحتضن ما هو أعظم شأناً من التاريخ. بطون الكتب تحتضن في جوفها **الحقيقة** أيضاً! فكيف لا تناصبها سلطات الأيقونة العداء؟ فمحو الذاكرة خطوة أولى في المسلسل. يليها شطب التاريخ بأيّ ثمن. قطع دابر الماضي بأيّ ثمن. الماضي شاهدٌ معادٍ لأنه يخفي صاحب العيان الذي يستخفّ بالشهوة إلى الامتلاك، إلى الهيمنة، إلى الجنون! ولذلك يجب أوّلاً زحزحته. يجب التخلص منه **لتحرير المنبر قبل الشروع في التلقين**: التلقين بقراءة مزامير **الجديد**. لأنّ لا جديد في حضور حضرة التاريخ! ولهذا وَجَبَ قبل كل شيء تغريب التاريخ من ذاكرة الجيل!

ولهذا كانت محاولتي لاسترداد جلالة التاريخ من منفاه

ضرباً من جنون كلفني ثمناً غالياً ! لقد استجرت بالكتب في تنفيذ بنود هذا العهد. وبفضل هذه الكنوز أنعشت صلتي بهذا السلطان الرهيب. ولكن انتعاش التاريخ سمّم ذاكرتي، بل غرّبني عن دنيا الناس حولي لدرجة أبحثُ فيها مرّة لنفسي بالسخرية من سفساف المنهج الدراسي علناً. فبعد التخرّج في جامعة كان للالتحاق بها سيرة، والانخراط في وظيفة تدريس كان للحصول عليها سيرة أخرى، فوجئت بالمنهج الذي وقعتْ على شخصي مسؤوليّة تلقينه للجيل الشقيّ في مدرسةٍ ثانوية لا تبعد عن بيتنا كثيراً. كانت سنوات البطالة التي سبقت الحصول على الوظيفة تسري في دمي، تسري في دمي لتحقن كياني بذلك الداء اللئيم الذي لم يعرف حقيقته إلا أمثالي. داءٌ يعطّل العقل ويشلّ نعمة التفكير ويحوّل الإنسان بهيمة تدبّ على قدمين! في تلك الفترة عرفت معنى الخمول. معنى ألاّ يجد الانسان عملاً. معنى ألاّ ينشغل الإنسان بعمل، أيّ عمل ! أظنّ اليوم إنه أسوأ مرض يمكن أن يُبتلَى به إنسان! البعض يقول إنّه يورث اللاّمبالاة! ليته يورث اللامبالاة فقط، ولكنه يورث ما هو أسوأ يقيناً من اللاّمبالاة. إنه يورث **بلادةً!** يورث ذلك النوع من البلادة الذي يساوي بين الموت والحياة. بلادة من حقها أن تساوي بين الموت والحياة إذا كانت قد ساوت بين التحريم



والإباحة، بين الخطأ والصواب، بين الحقيقة والبهتان! فماذا يمكن أن يُعوَّل عليه إذا استوت النقائض في قلب الإنسان؟ خرجت من هذا الحضيض قبل اجتياز فسحة نقاهة، لأنه إذا كنا في أمَسّ الحاجة إلى فترة نقاهة بعد التعافي من حُمّى أو أية وعكة عابرة ، فكيف لا نكون في حاجةٍ أكبر للنقاهة عندما نستيقظ من غيبوبة عظمى كالبلادة، أو اللامبالاة، كما يسمّيها بعض الدهاة؟

كنت مازلت عليلاً عندما اقتحمت باب التدريس. مازلت أعاني آثار الغيبوبة، أو فلنقل **الغياب**، عندما دخلت الفصل لأول مرّة. وأعترف أن هذه الغيبة لازمتني طويلاً أيضاً، فكنت أسرح بعيداً في لحظة تستدعي حضوراً. أسرح كأني أفرّ من الدنيا فراراً. كأنّي أستجير بالحلم هروباً من واقعٍ لا أنتمي إليه، بل يُخيّل لي أنّي لم أنتمِ له يوماً. يكفي أن أجد نفسي في موقفٍ لا أحسد عليه حتى أستعير جناحين أرفرف بهما بعيداً. لم أتساءل في تلك الأيام عمّا إذا كان هذا المسلك هو طبعٌ موروثٌ عن جينات الآباء، أم أنه شطحٌ تغذّيه الكتب التي يروق للعقلاء أن يتحدثوا عن سلطانها المسكون بالأرواح التي تذهب بالعقول! لم أتساءل كثيراً لأنّ من وقع ضحية كابوس البطالة وحده أعمى! لأن من عانى البطالة وحده يدري ما معنى أن

يجد الإنسان نفسه بلا عمل، بلا جدوى، **بلا معنى!**

وتشاء سخرية الأقدار أن تُقحمني في التاريخ بأول تجربة. فالمادّة التي كان على شخصي أن يُعلّمها الجيل كانت بإسمٍ غريبٍ هو: «**التاريخ المعاصر**»، لأن الصفة في العبارة تناقض الموصوف، تماماً كما تناقض الصفة الإسم الموصوف في اللغة العربية كلما ورد هذا الإسم في صيغة الجمع. فهل هي نكتة أخرى من نكات كهنة الأيقونة؟!

ولِمَ لا؟ يجب التسليم بكلّ أمرٍ مستهجنٍ في عهد الأيقونة الخضراء! وقد تعلمت خلال الأعوام التي قُدِّرَ لي أن أحيا في ظلّها أن أقبل كل ما يحدث بروح السخرية. هذه السخرية التي يقول أحدهم إن لولاها لقضى انتحاراً منذ زمن بعيد. وها هو الدليل بين يديّ: دفتر الماضي، المسمّى في كل اللغات تاريخاً، يحرق المراحل بقدرة قادر، يخترق الزمان بقدرة قادر، ليقتحم حصون العصر، ليقتحم حصون الحاضر! ولكن لماذا لا نتحلّى بالصبر فنحاول أن نكتشف سرّ الأحجية؟ فلنقتحم حرم القمقم أولاً لنرى الفحوى، بتصفّح الفهرس: الثورة السنديانية.. ماذا؟ هل هذا معقول؟ مهلاً، مهلاً، لا شكّ أن هذا خطأ. خطأ مطبعي يقيناً. فالأخطاء المطبعيّة لعنة الكتب العربية، فأهل التصفيف الذين يُشرفون على تنضيد هذه الكتب في أشدّ الحاجة لدوراتٍ

في محو الأميّة ! هذه بليّة آمن بها كلّ من له علاقة بالكتاب منذ زمنٍ بعيد، دون أن يفلح هؤلاء في إقناع أصحاب دور النشر بتأهيل مستخدميهم قليلاً، ربّما بسبب ما يُروَى عن حاجة أصحاب دور النشر أنفسهم للالتحاق بدوراتٍ في محو الأمية! أو ربّما لبخل هذه الملّة المعروف.! لا علينا.. فلنغفر الأخطاء لدُهاة التنضيد، ولنغفر البُخل لأصحاب دور النشر، لأنّنا سننتحر إن لم نتوّج مسيرتنا بالغفران!

ولكن إذا غفرنا، واعتنقنا الغفران ديناً، هل سنغفر الخطيئة التالية الواردة في الفهرس؟ هل العبارة خطأٌ مطبعيٌّ آخر؟ مهلاً! مهلاً! العبارة تقول بالحرف: ثورة زيمبا.. هل هي «زيمباوي»؟ أم أن الكلمة «زيمبابوي»؟ اللعنة ! فلتكن الكلمة ما تكون، ولتُنطَق كيفما اتّفق، لأنها بلا شكّ أيضاً خطأ شنيع . خطأٌ لا يغتفر حتى لو كان خطأً مطبعياً، فكيف إذا لم يكن كذلك؟ ولكن مهلاً! هنا يوجد عنوانٌ فرعيّ قد يفسّر سوء الفهم ويُصوِّب الخطأ: «دور المناضل موغابي في استقلال زيمباوي»! عجباً ! هل يعقل أن تكون سيرة ذلك العجوز المتصابي (بل والمخبول) **تاريخاً معاصراً جديراً بأن تتعلمه أجيالٌ تجهل تاريخ أسلافها منذ ألوف السنين ؟ بل وتجهل حتى تاريخها القريب المتمثّل في تجربة الاستقلال؟!**

كلاّ، كلاّ! يقيناً هنا يوجد خطأ جسيم. يجب التأكّد من هويّة هذا المنشور الغبيّ أولاً. ها هو الغلاف الواجهة مشفوعٌ بعبارة «اللجنة الشعبية العامّة للتعليم العام»، يليه العنوان الفرعي بخطّ النسخ: «التاريخ المعاصر». حسناً. فلنقلب الصفحة لنقف على حقيقة هذه المُلحَة السمِجة. المؤلفون. أسماءٌ معروفة حقاًّ، ولكن.. أسماء معروفة، ولكن في مجالٍ أبعد ما يكون عن العلم أو التعليم أو التأليف ! إنهم كبكبة متداولة من فرسان الجيش. يا رب الأرباب، ما هذا؟

ضبّاط القوات المسلحة يتطاولون في مناهج الجيل؟!

أطلقت قهقهة عالية يومها دون أن أعي . أفلتت منّي الضحكة المجلجَلة دون أن أدري. نسيت بالطبع حضوري في حَرَمٍ تعليميّ هو فصل دراسي. نسيت ربما لأني لم أتعافَ بعد من محنتي. وربما بسبب غروري. بسبب استهتاري. بسبب ثقتي في نفسي. فقد عاشرت الكتب طويلاً سنوات فراغي. والكتب علاوة على كونها منفى أجارني من أذى الخلق ومن وجود الخلق، إلا أنها أجارتني من عدوٍّ صَرَعَ الكل. أجارتني من الخواء. الكتب عبّأتني وأعادت لي الثقة في نفسي، وفي قومي، وفي وطني، وفي لغزي الأبدي: **الإنسان!** ويبدو أن الثقة في دنيا تغيب فيها الثقة لعنة أخرى. رذيلة أخرى. فكل



رأيٍ أبديه، أو فِعلِ آتيه، يُفسَّر في عرف أناسي غروراً. يُفسّر استعلاءً إلى درجةٍ جعلتني أشكّ في نفسي وأقتنع باستعلائي، لا لشيء إلا لأني أجد نفسي مضطرّاً في كل مرة أن أتعالى على تفاهاتهم، على غاياتهم، على اهتماماتهم، على سُخفهم وانحطاطهم برغم أني لم أرَ نفسي يوماً أفضل منهم، أو أكثر تميُّزاً. ولكني لا أنكر أني كنت طوال الوقت أرثي لحالهم. كنت أشفق عليهم دون أن أرحمهم في دخيلتي. ويبدو أن السرّ يكمن هنا . فما تستبطنه السّريرة لا يُخفَى مهما حاولنا أن نُخفيه. ما تستبطنه الروح يفيض على السِّيماء فيبوح بلا لسان. وهم قرأوا في سيمائي الامتلاء فحسبوه استعلاءً. ولكنّي لم آبه. نسيت أنّ الحضور في الكتب، أو في رحاب الامتلاء، لا يفيض لغةً في السيماء فقط ، ولكنه يفيض طريقةً في المسلك. وهنا كانت الخطورة التي استغفلتني ولم أقرأ لها حساباً. والنتيجة؟ النتيجة ترجمها ما حدث يوم التاريخ ذاك. فقد أعقبتُ القهقهة المنكرة استخفافاً بالعبارة. عبّرتُ عن استيائي بالفم الصريح. وكان من الطبيعيّ أن تبلغ هذه الحماقة تخوم الإدارة فأتلقّى استدعاءً من المدير! ظننتُ نفسي مازلت أحيا في ربوع كتبي فنسيت أني أدبُّ الآن في أدغالٍ محفوفةٍ بالظلمات ، تكشكش في أرضها الأفاعي، مزروعة بفوهات بنادق قنّاصة من جنسٍ

آخر أسوأ من القنّاصة الذين يرابطون الآن فوق سطوح بنيان «الضمان» ليقتنصوا أبرياء السبيل. وكان عليّ أن أدفع هذا السهو وقفةً أمام المدير لتعقبها وقفات أخرى أسوأ بما لا يقاس من وقفتي أمام المدير: وقفة أمام الأب أيضاً بعد المواجهة مع مدير المدرسة. وقفة أخطر أمام لفيفٍ من الأشباح سآتي على ذكرها عندما أعود لخلوتي بعد غزوتي الجوار طمعاً في الفوز بكسرةِ خبزٍ أو قطعة جبنٍ أقيم بها أودي كما يروق لأصدقائي الأوائل أن يعبّروا في الكتب.

هل قلت قطعة جبن؟ لِمَ لا؟ ألم أتحوّل منذ بدء الحصار فأراً يقرض الجدران بعد أن كنت فأراً يقرض الكتب؟

لا شكّ بأنه اعتراف سوف يروق لصاحب الأيقونة وهو الذي نعتَنا بلقبٍ من الفصيلة نفسها في الأيام الأولى لاندلاع الحريق!

٤

أتحوّل إلى آذانٍ صاغية بكامل بدني قبل أن أطلّ برأسي من مكمني. لا يكفي أن أتحوّل سمعاً كي أبيح لنفسي الخروج، ولكن لا بدّ أن أستعين ببقيّة الحواس في ترصّد البناية: بالشمّ، باللمس، بالبصر، بالتذوق، وأخيراً بالحَدَس. هل قلتُ أخيراً؟ كلاّ. الحَدَس ليس الحاسّة الأخيرة، ولكنه الحاسّة الأولى! قرأت كثيراً في كتبي عن الحدس، عن غموض هذه الحاسّة، ولم أدرك حقيقتها إلاّ اليوم. ولا أرى عجباً في هذا لأني أدركت أن الانسان إذا كان مقياس كل الأشياء كما يُقال، فإن الحرب هي مقياس الإنسان. لا قيمة لإنسانٍ لم يحارب! ولن يفهم الأشياء من لم يحارب! لأنّ الحرب تُتيح لنا فرصة زيارة الموت في حرمه. نزور الموت في حصونه، في مجهوله، فإن لم نمت في تلك المغامرة، فإنّنا نعود أناساً آخرين بعد التحديق في عيون الموت. إنه لا يبدو في الحقيقة بعبعاً إلاّ في عُرف مَن لم يعرفه، إلاّ في عُرف من لم يزره، إلا في عرف مَن لم يحدّق في عينيه. ففي المواجهة مع الموت فقط نعرف مَنْ نحن! نعرف عمّا إذا كنا أهلاً لأن نحيا أم أهلاً لأن نموت! نعرف عمّا إذا كنّا بالبقاء أجدَر، أم أنّنا نفايةٌ بالمكبّ أحقّ ! الموت لا يقبل في حَرَمه النفايات، ولكنه يختار الأخيار، يختار العظماء ! فمن يعود من المواجهة سالماً فليس ذلك شهادة صالحة للتباهي،

ولكنه درسٌ يدعو للتأمُّل. إنه حُجّةٌ لتغيير ذلك التغيير الذي لا ندركه ما لم نغيِّر ما بأنفسنا . ولذلك يقال إن الأبطال هم من ينام تحت شواهد القبور، ولا وجود لأبطالٍ على قيد الحياة ! ويبدو أن هذا هو سبب الحشر الذي خرج يوم سالت أول قطرة دم فسقط في الساحة أول شهيد. خرجت المدينة بأسرها يتقدّمها أبناء جيلٍ ظنناه ولد ميتاً! ليس نحن فقط من ظنه ميّتاً، ولكن الدنيا من أقصاها إلى أقصاها حسبته في عِداد الأموات. بل هذه الدنيا من حولنا هي التي أنبأتنا بموت جيلنا، بل هي التي استخرجت لنا شهادة الوفاة بِجُلّ الحِيَلْ . يكفي أن تحتقرك الدنيا كي تعرف أنك لست على قيد الحياة ! يكفي أن يوصد بوّاب سفارة ، أو قنصلية ، الباب في وجهك تعبيراً عن رفض تأشيرة دخول إلى بلاده كي تعلم أنك صفر في أصفار، ولاحقّ لك في الحياة . يكفي أن يكشّر في وجهك شرطيّ الجوازات في أول بوابة خروج ليُعيد لك وثيقة السفر تعبيراً عن منعك من الخروج كي تعلم أنك لست جديراً بالحياة. يكفي أن يستوقفك رجل أمنٍ في أيّ بلدٍ من البلدان ما أن يقع بصره على وثيقة سفرك ليُعلن حالة الطوارئ في المطار كي تدرك أنك لست جديراً بالحياة فقط، **ولكنك خطرٌ على الحياة!** بلى! قبل يوم الشرارة كُنّا كلنا ملوّثين بوباءٍ أعطى للعالم الحقّ لا في تجنّبنا فحسب، ولكن في سنّ القوانين الجائرة

التي تستطيع أن تُجيره منّا. **فهل كانت تلك حياة؟** ألم تكن قطرة الدّم التي سالت بمثابة **غيث إلهيّ** لإخراج أمواتٍ ظنّوا أنفسهم أحياءً من كهف اغترابٍ دام عشرات الأعوام؟ ألا يرجع الفضل لجلالة الموت الذي أيقظهم من سباتٍ يوم اختطف من بينهم الإنسان الأجدر بأن يحيا، ولكن الموت اختاره للرسالة التي أحْيَتْ أُناساً كانوا بالأمسِ في عِداد الأموات وإن حسبوا أنفسهم أحياءً يُرزقون؟ فكيف لا يختار الموت ذلك الجيل الذي عاش في وطنٍ هو **سجنٌ** وليس وطناً، ولم يكتفِ سَدَنَة الأيقونة بتحويل الوطن سجناً، وأهل الوطن سجناء في وطنهم، ولكن احتالوا ليقيموا لهم سجناً يُصاحبهم أينما حلّوا: سجناً لئيماً مدسوساً في وثيقةِ سفرٍ ممهورةٍ بلون اللعنة لتمتدّ إليهم يد المجهول فتسجنهم في كل أرض، تلاحقهم لتستودعهم الحبوس أينما حلّوا، كأنَّ الدنيا التي لا تعترف بغير الوثائق هويةً تهبُّ لنجدة الجائر، لا لنجدة المستجير، فتنفّذ في الأبرياء القصاص استكمالاً للمخطّط، وتنفيذاً لبنود صفقة المجهول المشبوهة. فلماذا اختارت الأقدار جيلنا ليعيش لعنتين: **لعنة طرد سلفنا من فردوس اللاّهوت، ولعنة طردنا من فردوس النّاسوت؟!** فكيف لا يهبّ الجيل هبّة الرجل الواحد إذا كان في الهبّة وحدها الخلاص من موتٍ يبدو حياةً، طلباً لموتٍ هو الحياةُ حتّى لو تبدّى للعميان خلاصاً من الحياة؟

كنتُ أروي سيرة الحواس. سيرةٌ تسبقها سيرةٌ أخرى هي سيرة التماهي مع الجدران، سيرة الحلول في الجدران ، في الهواء ، في أكياس الإسمنت التي تحجبني عن الدنيا. الحلول في كلّ شيء هو يقيني. هو ديني منذ صرت سليل جدران. منذ صار الاختباء قدري. والجوع؟ الجوع سلاحي. الجوع مُعيني في تحقيق التماهي. لم أكتشف أنّ للجوعِ فضيلةً قبل اليوم. لقّنونا طويلاً عن خصال الصوم. ولكن صومنا ليس صوماً أبداً إذا كان صوماً في نهارٍ عن طعام يعقبه إفطار التخمة في الليل. الصيام هو جوع أيام. جوع أسابيع. ربّما جوع أشهر. في صيام يومٍ نؤجِّجُ نَهَماً. في صيام الأيام نقتل شهوةً ونشحذ بدناً. هل قلت بدناً؟ كلاّ! في صيام الأيام نجلو جوهراً خبيئاً. في صيام الأيام نستخرج من المجهول كنزاً منسيّاً، منفيّاً، نسمّيه روحاً. ولا نتماهى مع الطبيعة، لا نحلّ في أصغر الأشياء شأناً، قبل أن نُنزل أقسى أجناس القصاص بهذا العبء الثقيل الذي نسمّيه جسداً، والجوع كما اكتشفتُ هو جلاّده. الجوع هو جلاّد الجسد الوحيد. بالجوع يتبدّد الجسد ليجد إلى الباطن طريقاً. بجوع الأيام تبدأ هذه الكتلة الفظيعة في التحلّل. في الذوبان. في التبخّر إلى أن تنقشع في حدودها القصوى. بعدها فقط **يتململ الجوهر**. تستيقظ الروح لترفرف. تبرز إلى النور فتغترب (ببروزها في الوجود) إرادة الحضور

في الوجود. بتحرّر الجوهر يتبدّد الخوف من الموت فيصير الكائن مريداً في حضرة الموت بعد أن كان عبداً مغموراً في القمقم، سجيناً في الجسد !

لا أتأهب للخروج من معقلي خلف أكياس الإسمنت، في الطابق الثالث من البنيان، في قلب الليل كما يليق بأمّة الفئران أن تفعل، ولكنني أتسلّل في النهار عندما يشتدّ القصف. أي أن حملاتي في غزو الدنيا تبدأ في اللحظات التي يفرّ فيها الخلق من الشوارع ويستجيرون بالمخابئ لأن في مثل هذه الأوقات فقط يتبلبل الأحراس الذين يكتمون أنفاسي في الطابق الثاني، ويتشتّت عسس الطابق الأرضيّ الذين يسدّون عليّ المنافذ لينتشروا في الأبنية المجاورة لاقتناص أمثالي. ففي مثل هذه اللحظات يبدأ تبادل القذائف أو الأعيرة النارية فأنتهز الفرصة للبحث عن القوت. لأغتنم القوت. أغتنم القوت من معسكر العدوّ كما يليق بالمقاتل أن يفعل. لم يعد بوسعي اغتنام الغنيمة بقوّة السلاح كما يليق بالمحارب أن يفعل، ولكن احتيالاً، أي خلسةً. ما معنى خلسة في حالٍ كحالي؟ الخلسة هنا تعني بصريح العبارة: **الاختلاس!** بلى، اختلاس القوت من معسكر العدو صار حرفتي منذ اقتحم الأوباش بفرقتهم المبنى في هجومهم الثاني على المدينة، فتشتّت شمل الرفاق لأجد نفسي

في الخندق وحيداً. احتلّوا الطابق الأرضيّ بعد قصفٍ شديدٍ، مباغت. كنتُ منهمكاً في الحفر، مدجّجاً لحظتها بسلاحٍ آخر، عندما تزلزل المكان بقذيفة. غرقت مجموعتنا في عاصفة غبارٍ حجبتنا عن أقرب الرفقاء، تَلتْهَا رشّة رشّاشٍ ذات نفسٍ طويلٍ ظلّت تتردّد في آذاننا كمعزوفةٍ منكرة. كانت أصوات الرفاق تتعالى طوال الهجمة، ولكنّي لم أتبين النداء بسبب البلبلة الشاملة التي أحدثها الكمين. وجدت نفسي طريحاً بين أكوام الجدار المهدّم مغموراً بركامٍ ملفّق من كلسٍ وحصباء وقطع إسمنت. كان الغبار يغمرني ويحجب عني الرؤية. هل أنا جريح؟ لا أدري. هل أُصِبْتُ بعيارٍ أو شظية؟ هل أصيب الرفاق؟ لا أدري. لم يكن لي أن أدري لحظات الحضور في البرزخ الفاصل بين الوعي واللاّوعي. بين الغياب والحضور، بين الحياة والموت. ولم أستعد يقيني إلاّ في اللحظة التي أفلحتُ فيها بتحريك ساكن. بتحريك رِجلي أوّلاً، ثم.. بقية الأعضاء لأكتشف قبل كلّ شيء أنّي **حيّ**، لأكتشف أنّي **مازلتُ** على قيد الحياة. إحساسٌ غريبٌ أن **نستعيد** الحياة. هل هو ما يسمّيه دهاة الكتب بالبعث؟ لا أدري. ولكنه هبةٌ حقيقيّة سنظلّ نجهل قيمتها ما لم نجرّبها. الإحساس **بالبعث** هو ما يهب الحياة عمقاً، قيمةً، **إعجازاً!** لا أظنّ أن إنساناً يستطيع أن يدّعي أنه

عاش الحياة ما لم يجرب فَقدْ الحياة، ثم استعادة الحياة!

بعد أن أيقنت بوجودي على قيد الحياة تحاملت لأحرّر جسدي من الركام. وجدت نفسي وحيداً في المكان. بالجوار رأيت آثار دماء، ولكن لا أثر لجثث. لا أثر لشهداء، و لا لجرحى. لحظتها عَنَّ لي أن أتفقّد جسدي أيضاً، ولكن زحف الجند لم يُمهلني. أبصرت أفراداً يرتدون لباس العسكر يتقدّمون محاولين الاحتماء من نيران الرفاق بالأبنية الأمامية. ولكن نيران الرفاق في المواقع الخلفية تعرقل تقدّمهم برغم إخلائهم المكان وانسحابهم إلى الوراء. لحظتها فقط تذكّرت أن واجبي الأول البحث عن طريقة للنجاة إذا شئت ألاّ أقع في أيديهم ، لأننا آمنّا منذ الأيام الأولى بأن الموت أهون كثيراً إذا قورن بالوقوع في أسر هؤلاء الهَمَج ! ولكن.. أين المفر؟ الساحة خالية، والقنّاصة يرابطون في برج «الضمان» بعيونٍ لا تنام مدجّجة بعدسات الرؤية آناء الليل، والعدسات المكبّرة أطراف النهار. وفي الجوار انتشر جنود الكتائب ليبدأوا تمشيط المكان تمهيداً لاحتلال الموقع. في لحظةٍ خاطفة وجدت نفسي أتقهقر إلى الوراء. إلى أين؟ إلى البنيان. إلى جوف البنيان. عبر الطابق الأرضيّ ، إلى الطابق الأول، ثم الثاني (حيث المرأة الشقيّة مع طفليها)، إلى.. النهاية. إلى الطابق الثالث والأخير.

هنا، في هذا البيت الخاوي المُعَدّ منذ زمن لأعمال الصيانة، ولكن اندلاع الحريق حال دون وضع النيّة موضع التنفيذ، هنا وراء هذه الكتل من أكياس الإسمنت عليّ أن ألاقي قدري: أحيا أو أموت. أنجو كما نجا الكثيرون دون أن يطمعوا في نجاةٍ ، أو أموت كما مات الكثيرون دون أن يتخيّلوا أنّهم سيموتون. لأني لست أفضل من أولئك الذين رحلوا، الذين استشهدوا، كما أني، إذا كُتِبَتْ لي النجاة، فلن أكون أسوأ حظاً من الذين نجوا في وقتٍ يئسوا فيه من النجاة. ففي الحرب يختلط الحابل بالنابل ويستوي الموت بالحياة!

أثناء انسحابي إلى أعلى سمعتهم. كانوا قد أدركوا الدور الأرضي وتحاوروا. صرخ أحدهم بصوت الآمر: «هيه! احترس يا تحفة!». يقيناً أنه آمرهم يخاطب مستَجِدّاً، أو مرتزقاً، أو مغبوناً انتزعوه من مدرسة ثانوية أو إعدادية ليقولوا له إنهم ذاهبون للاشتراك في تظاهرة، أو لمحاربة عناصر أجنبيّة مخرّبة تسلّلت إلى البلاد كما اعتادوا أن يقولوا. ولكن المغبون الذي خاطبه الآمر مستخدماً نعت «التُّحفة» لم يستَجب للتحذير على ما يبدو ممّا اضطرّ الآمر لأن يُضيف: «في مثل هذه الحفائر يختبئون ليباغتونا في كلّ مرّة، هؤلاء الجرذان!» أعقب العبارة بسبّة بذيئة قبل أن يجود بأمرٍ جديد: «فتّشوا

الزوايا! ابحثوا في البناية بعناية! لا تنسوا الوصيّة: دار دار! شبر شبر!». كنتُ قد بلغت الطابق الثالث عندما انتشروا في الدور الأرضي، وبلغتْ طلائعهم الدور الأوّل فسمعت أحدهم يتعجّب: «هل رأيت النفق؟». فأجابه زميله بصوتٍ بحيح به غصّة غريبة: «إنه النفق الذي تحدّث عنه الأسير الأخير. نَفَقٌ عبر جدران البيوت..». سكت ثم أضاف بعد لحظة: «الحيلة الوحيدة للوصول إلى عمارة القنّاصة بشارع طرابلس!».

في تلك اللحظة سقطت قذيفة أخرى. تزعزع المبنى وعَلا صراخ الطفل، أو صراخ الطفلين معاً في الطابق الثاني. أعقب الزلزلة تبادلٌ عنيفٌ لإطلاق النار. صخبٌ عنيفٌ حَجَب عنّي حوار الأبالسة. ولكني سمعت العبارة الأخيرة التي أطلقها صاحب الحشرجة المنكرة: «لم يخطئ الزعيم عندما أطلق على الشياطين إسم «الجرذان!».

كنت قد قفزت وراء كوم الأكياس الإسمنتية المرصوصة بمحاذاة الجدار في الشقة الخالية بالطابق الأخير.. الثالث. كمنت وراء الكوم بجوار الجدار، وتسترّتُ بالأكياس بالقدر الذي أتاحته العُجالة. لم أطمع في أن أنجو بالطبع، ولكن الموت لم يخطر لي على بالٍ أيضاً. فالوقوع في الأسر بالنسبة لي كان أسوأ من الموت بقذيفة، لأن صنوف التعذيب ذلّ أسوأ

في يقيننا من الموت. وإذا دخلوا واكتشفوني فإني لن أجد ما أدافع به عن نفسي. فقد فقدت بندقيتي في الأسفل مع مِعوَل الحفر الذي تسلّحت به في عملي عندما جاء دوري في الحفر، ولم يبقَ في جيبي سوى مسدسٍ محشوٍّ بطلقةٍ واحدة. والطلقة الواحدة لم تُخلق يوماً لتصفية العدوّ، ولكن لتفويت الفرصة على العدوّ. لتفويت النصر على العدوّ، بتوجيه الفوهة إلى صدغ صاحب الطلقة. لأن الطلقة الوحيدة لا تقتل العدوّ إذا زاد عدد أفراده عن الفرد الواحد. الطلقة الوحيدة تعجز عن إبادة الجيش ولكنها لا تعجز عن إبادة خصم الجيش. في الانتحار تفويت الفرصة على العدوّ لينتصر، ليتباهى بانتصاره، ليجني فاكهة انتصاره. وتفويت فرصة جني الثمار هزيمة للعدوّ. هزيمة لعدوّ من حيث ظنّ أنه غلب!

وضعت الفوهة على الصدغ، والإصبع على الزناد. كنت على استعدادٍ للضّغط كي لا أهزم بيد تلك الملّة اللقيطة التي جاء بها صاحب الأيقونة من أركان الأرض ليكتم بها أنفاسي وأنفاس رفاقي. ليكتم بها أنفاس جيلي ظناً منه أنه يستطيع أن يُعيد عجلة الزمن إلى الوراء. ولكن هيهات! هيهات برغم فظائع الملّة، برغم فنون التعذيب، وبرغم صنوف الاغتصاب. اغتصاب الفتيات القُصّر أمام الأبوين، أو الأخوة. اغتصاب

الزوجات أمام أعين الأزواج. اغتصاب الأزواج أمام الزوجات. اغتصاب الآباء أو الأمهات أمام الأبناء أو البنات أو الأحفاد أو الحفيدات. كل أجناس الكبائر في مسلسل الدّنَس الذي لم تسمع به أذن، ولم تره عين، ولم يخطُر بقلب بشر!

أفلا تبدو الرصاصة الأخيرة رحمة خلاص في حربٍ كهذه؟ أليس الموت فردوساً بالمقارنة مع غزوة الفُحش التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً؟

كانت أنفاسي مازالت تتلاحق عندما دخلوا. دخل إثنان. ارتطام أحذيتهما بالأرضية العارية أنبأني بأنهما إثنان في العدد. جَالا في المكان، فجاهدت لحبس أنفاسي. كانا صامتين. تقترب خطواتهما وتبتعد. سمعت لهاثهما بوضوح قبل أن يتجدّد القصف ويعلو هدير الرشّاشات. تكلّم أحدهما بصوتٍ أسمعه لأول مرة: «تبدو شقة مهجورة!»، فأجاب صاحب الصوت الذي يعاني في الحلق غصّة: «إلقِ نظرة على الحمّام!». دبّت الأحذية. ابتعدت. ويبدو أنهما اتجها لتفقّد الحمّام معاً. عادا. حامَا حول سدّ الإسمنت فتأهبتُ للضغط على الزناد. ولكن أحدهما صرخ للآمر بنداءٍ مفاجئ: «هذا دور مهجور يا أفندي!». تحرّكا بعدها. ابتعدت الخطوات رويداً رويداً فسحبت نفساً عميقاً. سحبت نفساً ظلّ حبيساً لزمنٍ طويل. سحبت النفس

على مراحل. سحبتُ النفس متزامناً مع إيقاع خطواتهما، ولم أطلقه إلاّ في زفرةٍ جنونيةٍ استمرّت طويلاً. بدأتُ أتلقّف الهواء وأبدّد الهواء كأنّي ألهو. كأني اكتشفت حقيقة الهواء لأول مرّة. كأني اكتشفت حقيقةً نسيتُها دوماً وهي أن هذا الهواء الذي نستهين به ونعدّه تحصيل حاصل ليس ضرورةً للحياة وحسب، ولكنه هو الحياة. ولكننا لا نعترف بهوية الأشياء ما لم نفقد الأشياء. ولكن سعادتي باكتشافي لم تدُم طويلاً كعادة كلّ سعادة! ففي الطابق الثاني انطلقت وَلوَلة من حنجرة المرأة الشقيّة. ولولة طويلة، فاجعة، ولكنها يائسة أيضاً. تلك كانت ولولة مَنْ لا حول له ولا قوة. ولولة مَن لا أمل له في النجاة. ولولة المغلوب على أمره الذي لا يرتجي حدوث معجزة تخلّصه من قدره. ليست ولولة من يطلب النجدة، أو يطمع في النجاة من الكابوس، ولكن صرخة موجّهة إلى السماء. صرخة إدانة لغياب عدالة السماء، نداءٌ موجّهٌ إلى ربّ السماء. ولول الطفل أيضاً. ثم تبعه الثاني. ساعتها سمعتُ صوت الرجل يحشرج غاضباً: «إذا لم تسكتي فسأطلق على هذا اللقيط رصاصة!».

صمتت المرأة فجأة، في حين دمدم تبادل إطلاق النار.

كنت أتصبّب عرقاً وأنا أفكر في أمر المرأة. كنت قد بدأت أزحزح كيس الإسمنت الذي يجثُم على صدري عندما عَلا

صراخ المرأة. وكدت أقفز من مكمني لو لم يخرس صوت المرأة استجابة لأمر التهديد بقتل الطفل. بعد صمتها تحرّرتُ قليلاً من جنوني. تذكّرتُ أنّي لن أستطيع أن أفعل شيئاً بطلقة واحدة مهما فعلت. سأقتل أحدهم، وسيقتلني الآخرون ليواصلوا عبثهم بالمسكينة. بل لن يزيدهم خروجي لهم سوى الغلّ عليها وعلى الطفلين وعليّ أيضاً. سوف يظنّون أنها امرأتي وأن الطفلين من صُلبي، فيمارسون ما اعتادوا أن يمارسوه في البيوت الأخرى من فظائع. سأقع ضحية خشيتي، وأجني العار الذي أنكرت. كنت أرتجف وأختنق عندما انهرتُ أرضاً. ولكن القدر لم يرحمني، لأن المرأة عاودت الصراخ بصوتٍ منكرٍ فجأة. فهمتُ ما حدث. لقد بدأ السفلة لعبتهم التي لقّنها لهم سيّدهم. لقد بدأوا تبادل الضحيّة فصرخت الشقيّة بصوتٍ لا إنساني، بصوتٍ حيواني غير آبهةٍ هذه المرّة بالتهديد بقتل الذرّية، سددتُ أذني في ذلك اليوم، وكتمتُ فجيعةً مازلت أستطعم مرارتها إلى اليوم، وستبقى نزيفاً في قلبي إلى الأبد.

٥

لم أخرج من شرنَقتي قبل مرور ثلاثة أيام على مكوثي في القبو. لم أدفن نفسي تحت أكياس الإسمنت طوال هذا الأمد خوفاً، ولكن خجلاً! خجلاً من نفسي. خجلاً من عجزي بسبب الموقف من المرأة. كنت قد لمحتها لأول مرّة في أول يوم تولّيت فيه أمر الحفر. أطلّت من فتحة السُّلّم استجابةً لفضول. هل قلت لفضول؟ بل الأصح أن أقول استجابة لاستنكارٍ. تشبّثت بمساند السُّلم الخشبية وتفحّصتنا في الطابق الأرضي بنظرةٍ مستفهمة، ثم عابسة: سيدة ممتلئة القوام، بلون حَب القمح البعلي، أي لونٍ زهري، ترتدي فستاناً منزلياً فضفاضاً تكشف أكمامه عن ذراعين بضّين مرصّعين بسوارين محبوكين بعروق الذهب على نحوٍ ينمّ عن ذوقٍ رفيع. في أذنيها أيضاً تدلّى قرطان ذهبيان طويلان منمنمان بعناية. ولم أكن لتسترعي هذه التفاصيل انتباهي لو لم تكن زينة المرأة نقطة ضعفي. زينة النساء تأسرني، زينة النساء تغويني. لا أحكم على جمال المرأة قبل أن أتفحّص زينتها، أقصد حليّها، لأنّ في الحلي لمستها. في زينتها تسكن مفردات لغتها. سحرها. لحنها. قصيدتها. أشعار المرأة في زينتها، في حليّها. ليس ضرورياً أن تتفنّن في اقتناء ما ندر، أو افتعال العَجَب، ولكن الفتنة كثيراً ما تتجلَّى



الإصدار «٦٣» يونيو ٢٠١٢

في البسيط الأبسط. وهنا تكمن عبقريتها، هنا تتألق مواهبها. روح المرأة حقاً في هذا الخطاب: خطاب الزينة! هل قلت نقطة ضعفي؟ ولماذا لا تكون نقطة ضعفي؟ البعض يأسرهم في المرأة قوامها. والبعض الآخر فتنتها. وفريقٌ ثالثٌ حلاوة في لسانها، أو غرابة في مسلكها، أو لا مبالاتها، أو استكبارها، أو الانطباع باستحالة نيلها. عرفت شاباً لم يقترن بفتاة الأحلام إلاّ في اليوم الذي التقى المرأة التي أسرته بتسريحة شعرها، وآخر لم يرتبط قبل أن تصرعه أخرى ببسمتها. أمّا سيدة الطابق الثاني فقد لفتت انتباهي بزينتها. ليس انتباهاً ذاك الإحساس، ولكن ماذا أسمّيه في يومٍ لم نكن لننتبه فيه لشيء، ولا لنلتفت فيه لشيء، ولا نأمل فيه أيّ شيء باستثناء العمل الوحيد الذي نسينا من أجله حتى وجودنا: اختراق صفوف البيوت الطويلة للنفاذ إلى العَور، لاختزال الزمان واختزال المسافات، لبلوغ الهدف الوحيد الذي رأينا فيه خلاصاً، انتظرناه طويلاً، طويلاً: بناية «الضمان» حيث يرابط الأشباح!

قلت إني لمحتها، بل لمحت نظرتها الغاضبة، خطفاً فراقتني حليّها، وافتتنت بزينتها: زينة ربّة بيتٍ استفاقت على هرجٍ في عمارتها فخرجت لتستطلع أمر الدخلاء الذين انتهكوا حرمة سكينتها، وبدأوا بلا سابق إنذار أو استئذان، يفترسون

بمعاول الكهرباء أسس سكنها. هتفتْ من عليائها: «هل أصاب شبكة المياه سوء؟» لم أجب لأني لم أعرف بماذا أجيب أولاً، ولأني ظننت ثانياً أن الزملاء قد أبلغوا السكان جميعاً بالقرار: **قرار حفر الخندق المعلّق** للوصول إلى جنّة الخلاص المعلّقة في سطوح بنيان «الضمان» التي تناطح السحاب لتصلينا من هذا البعد ناراً موقدة. تبادلتُ نظرة مع زميلي الذي كان لي في الحملة عوناً. وعندما قرأ الدهشة في عينيّ أجاب المرأة بالإنابة قائلاً إن الرفاق قد قاموا بواجب إخطار الجميع بقرار الحفر على أن يقوم الحاضر بإبلاغ الغائب، ويبدو أن سوء الحظّ شاء أن يتزامن إخطار الأخت أثناء وجودها خارجاً، وكان على الجيران أن يبلّغوها، ولكن يبدو أنهم نسوا ولكن المرأة استنكرت: «حفر؟ أي قرار؟ وأي حفر؟». ارتبك الزميل أيضاً، ولكنه استعاد حضوره بسرعة جديرة بالإعجاب عندما قال: «هذا موضوعٌ يطول شرحه!». ثم أومأ لي بمواصلة العمل.

في اللحظة التي هممت فيها بمواصلة العمل أبصرت بجوارها طفلاً في السنة الخامسة أو السادسة يتبعه آخر أصغر بعام على الأقل. وقف الطفلان بجوارها قبل أن يطلّ الأكبر سناً من هاوية السلالم محاولاً أن يتطلّع للأسفل ولكنها أمسكت به من يده لتستدير عائدةً إلى الداخل. أخبرني الزميل

أن رجلها مفقود منذ بداية الأحداث، مثله مثل رجال كثيرين في المدينة، وفي كل المدن. وها أنا أخرج الآن من عريني بعد أن خَلا المكان لأتفقّد المكان بعد غياب أبالسة المكان. فقد سيطروا في الأيام الثلاثة الماضية على البيوت المجاورة بدعمٍ من قصفٍ عنيفٍ لم يتوقّف آناء الليل وأطراف النهار. قصف بكل أنواع الأسلحة، ولكنهم برغم ذلك لم يُفلحوا في التقدم سوى بضعة أشبار. بضعة أمتار. كانوا يخلون البيت في النهار لينتشروا على المواقع ليعودوا مع حلول الظهيرة لتناول وجبات الغداء، ثم يعودوا إلى الجبهة الأمامية بعد الظهر، وربّما في الظهيرة إذا استجدّ جديد، أو نشب اشتباكٌ قريب، أو إذا تلقوا أوامر بالتحاقٍ طارئ لهذا الجناح أو ذاك.

في اللحظة التي ولّتنا ظهرها، وتبدّت عجيزتها، فقط تراءت لي أكبر سناً. ربّما أدركت العقد الرابع، وربما أشرفت على نهايات العقد الثالث، ممّا يعني أنها احترقت أيضاً بنار العنوسة قبل أن تطأ قدمها عتبة الخلاص. عتبة الزواج مثلها مثل كل نساء بلدٍ كانت فيه هذه اللعنة قدراً في العقود الأخيرة. قدرٌ دّبرته البطالة كما يؤكّد خبراء علم الاجتماع، قدرٌ حاك مكيدته اليأس كما يؤكّد خبراء علم النفس. قدرٌ لعبتْ فيه البحبوحة الاقتصادية (المزعومة) دور البطولة

كما يؤكّد فرسان الأيديولوجيا السياديّة. الملّة الأخيرة هي صاحبة حملة التنظير في وسائل الإعلام المعنونة باسم «ظاهرة العزوف عن الزواج»، لاستنزال الأبعاد الغيبيّة على الدّاء بالمقارنة مع زمن الستينيات أو الخمسينيات الذهبي في الإقبال على الزواج برغم ظاهرة غلاء المهور. وهي المرحلة التي أنعشت عدد السكان الذي لم يجتز عتبة المليون والنصف في إحصائية عام ١٩٦٧م. في حين قفز ليجتاز مستوى ثلاثة ملايين ونصف مع منتصف السبعينيات. وهو ما اتّخذه خبثاء الأيديولوجيا السياسية حُجّة في حملتهم ليتساءلوا: «كيف لا تكون النعمة الاقتصادية هي سبب العزوف عن إنتاج الذرّية إذا كان فقر ما بعد الاستقلال لم يمنع ازدهار الإقبال على بناء الأُسر برغم الفحش في غلاء المهور؟». لم يجرؤ أحد بالطبع على القول إن السبب هو اللاّمبالاة. **اللاّمبالاة؟** كم هي كلمة غامضة اللاّمبالاة هذه! غامضة؟ كلاّ. بل هي معادية لأنها مستعارة من معجم لا وجود له في كل اللغات المعتمدة في مجتمعات المجتمع: لا في لغة خبراء الاجتماع، ولا في لغة علماء النفس، ولا في حساب أهل السياسة، ولا في حسابات دُهاة الاقتصاد. إنها مفردة مستوحاة من إنجيلٍ غريب (بل مغرّب تغريباً متعمّداً) برغم مؤهّلها المدجّج بشهادة الأعمدة



السبعة التي لم يكن لكلّ هؤلاء أن يفكّوا شفرتها لا لأنهم لم يقرأوا يوماً الكتاب المقدّس (بشقّيه القديم والجديد) والمحرّم خوفاً من عدوى ديانة الأغراب المزوّرة (كما يروق لهم أن يبرّروا تعصّبهم الديني التاريخي الأعمى والمسبق)، ولكن لسرٍّ آخر أسوأ، وهو: اغترابهم عن إنجيلٍ آخر، صار عنقاء مغرب بسبب التلقين الأيديولوجي المبرمج بعناية هو: **إنجيل الحرية!** حرية أخرى تختلف مطلقاً عن الحرية التي يتشدّقون بها في وسائل الإعلام الرسمي كهيئة خطاب تتوكّأ على عكّازٍ وحيد نظراً لغياب أيّ خيار إعلاميٍّ آخر غير رسمي كما في بقية البلدان!

في غزوة ذلك اليوم سرت مواهبي الجديدة في الإصغاء. مواهبي في التحوّل إلى أذنٍ صاغية. مواهبي في التركيز الموجع للتماهي مع المكان. مع طبيعة المكان. مع الطبيعة في كل مكان. مع الطبيعة في كل زمانٍ أيضاً. وهي لقية اقتنيتها في قبو الأيام الثلاثة الأولى. تجربة القبر. تجربة الموت في بطن القبر. وما خروجي الآن سوى بعث من جوف القبر كتجربة انبعاث يونس من بطن الحوت تماماً. ولم يكن عسيراً عليّ لهذا السبب أن أدرك خواء البيت من الغزاة منذ اللحظة الأولى، ولكن أنفاساً تتردّد في مكانٍ ما من الطابق الثاني

حيث تقيم المرأة. ألقيت نظرة شاملة في الأسفل لم تكن لتصير لي عوناً أكثر من عون الحَدَس، أو التماهي، أو التحوّل أذناً كبيرة صاغية وسائرة أيضاً. نزلت الدرج بخفّة طير. تقدمت من الباب. من باب الضحية. وقفت أتسمع. لا وجود لدخيلٍ في حرم البيت كما أنبأتني الأنفاس. هبّ لنجدتي الأنف أيضاً. حاسّة الشمّ برهانٌ آخر. كم هو عملٌ مذهل ترويض الحواس! تربية الحواس! ولكن.. لماذا أتيت؟ هل جئت طمعاً في الفوز بطريدة حقاً؟ كلا! بطلقة واحدة لن يحالفني الحظ في إنجاز بطولة. ولا في الفرار من الشَّرَك. ولا.. ولكن ألَيس طلب القوت أيضاً بحثٌ عن طريدة؟ أليس سعينا في الأرض من البداية، إلى النهاية ما هو إلا الطلب في سبيل اقتناص **طريدة؟** أليست **أحلامنا طرائدنا**، وما نحن في الصفقة سوى **قنّاصة** لا تختلف عن قنّاصة الأغراب الذين يرابطون فوق سطوح بنيان «الضمان» ليشلّوا حركتنا ويكسروا فينا الإرادة؟

حسناً. ها هو الباب. وها هي روائح المرق الطازج تغزو أنفي فتزعزني بالدوار. دوار إنسان نسي آخر مرة ذاق فيها طعاماً يابساً فكيف بطعامٍ مغمور في مرق بنكهة محليّة؟

لم أقرع الباب، ولكني دفعته بإصبعي. بسبّابتي. لم أفعل ذلك استهانة. لم أفعل من باب الاستطلاع. أو من باب الخوف

من وجود دخيلٍ أو أحد أفراد الغزاة ، ولكن اجتنابـاً للصوت. أيّ صوت؟ صوت قرع البـاب. أيعقل أن أستخفّ بدمدمة المدافع أو ضجيج الانفجارات الذي أصبح معزوفة أبديّة منذ اندلاع الحريق ثم أتردّد في قرع بابٍ خشية.. خشية مـاذا؟ خشية أن تنفجر أذني. تنفجر أذني؟ ينفجر قلبي قبل أذنــي!.. هل هذه مزحة؟ كلا! ولكن صوت الباب إذا قرعته سوف يُحيي ما شئت أن أدفنه إلى الأبد. سوف يُحيي الانطباع الآخر.. يُحيي الاستغاثة التي استودعتها النسيان. يُحيي عاري. يُحيي وقوفي مكتوف اليدين . يُحيي نزيف الأبد الذي سوف يُسمّم حياتي فيما إذا حدثت معجزة ونجوت من القيّامة.

كـان البـاب قد انسحب كـأنّ تياراً هوائياً هـرع لعوني. انسحب سلساً. انساب انسياباً إلى أن توقف دون أن يحدث صريراً. اشتدت رائحة الطبيخ في أنفي، ولكني لم أغالب دواراً كما حدث منذ قليل، ولم أتـزحـزح. في مواجهتي على بُعْد خطواتٍ داخل فسحة المدخل، وقفت المرأة تحدّق في وجهي. تحدّق بصمتٍ. بتحدٍ. باستكبار، كأنها كانت في انتظاري. لا ظلّ في عينيها الكبريتين لدهشة. لا ظلّ لاستنكارٍ أيضاً. ولكن الغموض فقط يُهيمن. يُهيمن لا في مقلتيها الثريّتين فقط، ولكن في وقفتها. في أطرافها. في قوامها. في فستانها

الفضفاض واسع الأكمام الذي رأيتها ترتديه يوم الهجمة المباغتة. ولكن ما أدهشني هو هيئة الاستعلاء التي فاضت في سيمائها وغزت كل جسدها لتشمل حتى ملابسها. كأن ما حدث منذ ثلاثة أيام كان أكذوبة. كان حلماً. كان خيالاً. كان كابوساً في أضغاث أحلام. كان اللعاب قد غادر فمي منذ زمن. أمّا الآن فغياب اللعاب أفقدني لساني أيضاً. وكم كلفني النطق في تلك اللحظة. كم سيكلّفني النطق في تلك المواجهة حتى لو لم أعِش عطشاً و لم أعانِ جوعاً ، فكيف إذا كنت قد نسيت طعم الطعوم وحلاوة الماء؟ فالإحساس بالعار أعظم سدّ يمكن أن يقوم بين رجل و امرأة. في النهاية أنجدني الكذب. قلت إني لم أطرق الباب لأني وجدته مفتوحاً.. إلخ. ولكنّها لم تنبس. في مقلتيها وَمَضَ إيماءٌ ساخر قبل أن.. قبل أن توجّه إلى قلبي الطعنة: «أبواب البغايا دائماً مفتوحة!». لم أصدّق ما سمعت. ولكنّها لم ترحمني: «تستطيعون أن تتباهوا أنّكم صنعتم من أخواتكم وأمّهاتكم بغايا!» طأطأتُ. ارتجفتُ، ولكنّي لم أفقد صوابي برغم أن فقدان الصّواب هو الجواب المناسب الوحيد. والسبب؟ السبب ليس هول ما عانيناه طوال الأيام الخوالي، ولكن في الحُجّة. في حُجَجِ كلّ من فاتحنا من أهلنا العقلاء. كانوا يُعجبون بما فعلنا، ولكنهم كانوا ينكرونه، أو يستنكرونه

خوفاً علينا. كانوا على يقينٍ من صواب ما فعلنا، ولكنهم كآباء يشفقون علينا من الثمن الذي ينتظرنا. كانوا يعيشون جحيم القبول بالأمر الذي وقع إرضاءً للضمير، ولكنهم يجنون جنوناً مقابل التضحية بقلوبهم. بعضهم لجأ إلى منطق لم يُقنع به نفسه فكيف يستطيع أن يقنع الأغيار بحُجّة لم يقنَع بها نفسه كأن يقول: «ما تأتي به الأقدار تذهب به الأقدار، وليس مِنْ شأن مَنْ لا حول له ولا قوة أن يتدخّل في مشيئة الأقدار»؟

برطمتُ بعد استماتة: «أنا...». قاطعتني بيقين «أعرف من أنت.. أنت يا من افتضّ بكارة نزلي بناب النار، وفتح أبواب بنياني للزناة كي يستبيحوني، ثم تسلّلتَ إلى أعلى لتدسّ رأسك في أكياس الإسمنت وتترك عورتك عارية!». كانت تلهث عندما هممت الدفاع عن نفسي: «في مسدّسي طلقة واحدة..». ولكن يبدو أنها لم تسمعني. تنحّت جانباً. واجهت الجدار، حدَّقت بعينيها الواسعتين في الفراغ. حشرجت: «كان يجب أن أشي بك! أم.. أم أنك تظنّ أني لم أحسّ بوجودك في الأعلى؟».

في المواقف التي لم أكن لأحسد عليها اعتدت أن أستجير بالكتب. اعتدت أن أستشير الحكيم الوحيد الذي كان لي في دنياي الجرداء نصيحاً. ولكن الكتب كانت تخذلني في كلّ مرة. كل الكنوز التي استخرجتها من بطونها طوال أعوام (هذه الكنوز

التي كنت أؤمن بها إيماناً أعمى في ساعات الخلوة) كانت تتبخّر في موقف الحرج. وكان من الطبيعي أن أختنق بالغيظ في مثل هذه اللحظات. أختنق بالغيظ يقيناً مني أن الذنب هو ذنبي وليس ذنب الكتب. لأنّ النسيان هو السبب. الذاكرة هي التي تتخلّى عني وليس أصدقائي الذين يسكنون الكتب. وهكذا أستسلم لليأس محاولاً أن أهتدي إلى حيلة تمكّنني من نفسي. حيلة تلهمني لأن أفعل شيئاً بنفسي. لأن أفعل ما يجب أن أفعله في نفسي. وها أنا أفتّش يومها في حيلة تخلّصني من وقفتي أمام المرأة ومن نفسي. وكي أحرّر نفسي من خزيي فكرت أن أفرّ لأضع نفسي بين جنود الألوية الذين ينتشرون الآن في الحيّ ليقتحموا بيوتاً جديدة ، وينتهكوا حرمات حرائر كثيرة. ولكن الشهوة إلى الثأر للشرف الضائع هو ما قمعني لاقتراف هذا الفعل الأحمق. ففي الحرب ينبغي الالتزام بناموس الحرب. وناموس الحرب هو الذي قضَى بوجوب التجرّد من عواطف زمن السِّلم والتركيز على تحقيق الغلبة مهما كلّف الثمن. فالعواطف سلعة زمن السِّلم. أمّا الحرب فلا تعترف بغير البرود عُرفاً. بالحضور في السلم نحن أناسٌ من لحمٍ ودمٍ وروح، بالحضور في الحرب نحن لسنا أناساً، نكفّ عن أن نكون أناساً من لحمٍ ودمٍ ولغزٍ إسمه روح لنقلب لأنفسنا ظهر المجنّ،



لأنّنا لن نكسب حرباً إن لم نعتنق قانون الغاب الذي نتشدّق به دوماً استعارةً، ولم يخطر ببالنا أن نحياه يوماً؛ كما تغنّينا بالحروب ولم يخطر ببالنا أن نحياها حتى في الأحلام! ولكن الكتب تقول إننا لا يجب أن نضمن حدوث أيِّ شيء (بما في ذلك الأعجوبة) مادمنا على قيد الحياة، ما لم تَحِنْ ساعة سداد الدَّيْن. نقرأ ذلك في الصحف الأولى دون أن نصدّق. نقرأ ذلك في الصحف الأولى، ونتداول ما نقرأ بين الناس دون أن نصدّق ظناً منا أن ما نتداول لا يعدو أن يكون أساطير الأولين. ولهذا السبب نفقد صوابنا ويختلط حابلنا بنابلنا ما أن تحلّ الطامّة وتقرع أجراسها القارعة. تقرع القارعة أجراسها فجأة دون سابق إنذار مستخدمةً أتفه سبب. وإلاّ هل كنا سنصدّق يوماً أن تلك المسيرة الهزيلة التي سار فيها بضعة أنفار لم يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين يمكن أن تصلح شرارةً تشعل حريقاً بهذا الحجم، وقيامة بهذا الهول ؟ وها أنا أقف الآن أمام شقيّةٍ جريحةٍ لن أفلح في إيقاف نزيفها (نزيف روحها) مهما فعلت، وهو ما لم أكن لأصدّق حدوثه أبداً قبل شهر أو حتى قبل بضعة أسابيع. فكلّ شيءٍ كان بالوسع تخيّله إلا أن يُستباح الشرف. ومتى؟ ليس في عهد الظلمات. ليس في أزمنة غزو الدخلاء كالطليان أو قبلهم الإسبان، أو فرسان القدّيس يوحنا، أو

في غزوات العصور الوسطى، أو... ولكن يحدث هذا في مطلع العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين. يحدث لا كأسطورة لا معقولة تُروى بلسان صاحب فضول، أو مريد اختلاق الفضائح الأخلاقية، ولكن كواقعٍ نحياه كشهود عيان. **واقع يحياه جيلنا كواقعٍ حقيقي وليس خيالاً مروياً بلسان مخبول.** إنه أسطورة صرنا فيها شهود عيان، كما صرنا وقوداً لحربٍ مميتة كانت منذ شهر خيالاً بعيد المنال. فهل هذا ما يسمّيه أصدقائي في الكتب **استحالة وجود زمن آمن؟** أليس هذا ما يحذّر منه دهاة الحكمة فيقولون إن الأحمق وحده يستطيع أن يتباهى بالسعادة ما ظلّ حيّاً يُرزق، ولم يهجع إلى جوار أسلافه في الحفرة التي لا عودة منها ولا خير فيها؟

إنه الكابوس الذي جعلنا نتصرّف كأننا في غيبوبة: نحارب، ننزف، ونتبادل مع ذلك النكات كأننا نيام! نموت أيضاً كأننا نيام! وإذا سقط زميل، أو هَلك ذو قربى ندفنه أيضاً كأننا نيام! نحتال على نفاذ الذخيرة، ونتسلل إلى مصنع الحديد والصلب لنسرق القطع التي مكّنتنا من اختراع متفجّرات، بل وقنابل، كأنّنا نيام! نجوس في الأرض، ونسري في الليل البهيم استجابة لنداء القمر دون أن ندري كأنّنا نيام! وها أنا أقف شاهداً على امرأة مطعونة الشرف محاولاً أن أعزّيها دون أن

أصدّق! وإذا كنت أكذّب كل ما حدث ويحدث حتى الآن فإنّي أصدّق شيئاً واحداً: **الحلم!** أصدّق أني أحيا في الحلم! وإذا كان ما أحياه حقّاً حياة فلا شكّ أن **الحياة حلم!**

من زاوية في البيت أطلّ برأسه مخلوق. أطلّ الطفل برأسه كأنه يستطلع أيضاً. في عينيه الواسعتين المستعارتين من عيني الأم فزع. وعندما أيقن أن الرجل المنتصب في مواجهة أمّه ليس شبحاً من أشباح السعير تشجّع. تقدّم خطوات ثم ابتسم. ابتسم لي! ربّما تذكّرني في اللحظة الغابرة عندما أطلّ من هاوية السُّلّم ورمقني بمقلتيه الكبيرتين بفضول. كنتُ معفّراً بالتراب في تلك المرة فكيف تعرّف إليّ حتى يبتسم لي؟ أحسست بامتنانٍ لأنه لم ينكرني كما أنكرتني أمّه. امتنان دفعني لأن أنحني عليه وأشدّ على وجنته مداعباً. ولكنّي تراجعت ما أن ضبطتُ بسمة استخفافٍ قاسيةٍ في عيني المرأة. تراجعتُ، ولكنها استوقفتني: «لا وجود لرغيف خبز في بيتي..». هل قرأتْ الجوع في سيمائي؟ أم أنها قرأته بفطنتها؟ فماذا سيأكل مقاتل يتخبأ تحت أكياس الإسمنت ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ؟ يقيناً جائع إذا كانت تسكنه الملائكة كما سكنت الشهداء الذين سقطوا. شهداء رأت النساء في وجوههم سكينة الجنان فلم يملكن إلا أن يطلقن ألسنتهن بالزغاريد تحيّة إكبارٍ

لهؤلاء. أمّا نحن فكنَّ يلاقيننا بالزغاريد أيضاً، ولكنهنّ لم يبخلنَ علينا بصنوف الطعوم يوماً، لأننا وإن كنّا في نظرهنّ ملائكة أيضاً، إلاّ أننا في حاجةٍ إلى الطعام ما لم ننزل جنّات عدنٍ كما هو الحال مع الشهداء!

بعد لحظات أضافت: «ولكن أستطيع أن أقاسمك قطعة لحمٍ بشرط أن تغرب في الحال قبل أن يُداهموا المكان!».

٦

مع حلول المساء أخبو كما تخبو نيران الشموع لأنهم إذا كانوا يخرجون لينتشروا في النهار، فإنهم يهيمنون على البنيان في الليل كما يُهيمن قراصنتهم على بنيان «الضمان» أخيراً. وهي الهيمنة التي مكّنتهم من استعادة السيطرة على شوارع المدينة تالياً، ومكّنت طلائع ألويتهم من دخول المدينة ثانيةً بعدما طُردوا منها في المرة الأولى. في الليل يهدأ القصف نسبياً فيعودون ليستبدلوا ساحة قتال الخارج بساحة قتال الداخل. يتجادلون بصوتٍ عالٍ، يروون سِيَر المعارك، ومفارقات النهار، ونوادر الأحداث. سِيَر تصلح حوليّات لحرب النيام، حوليّات الحرب التي نخوضها معهم ونحن نيام. يروون ويتضاحكون، و.. يتندّرون.

يتندّرون كأنهم لم يشاركوا في حربٍ، ولم يسفحوا دماً، ولم يغتصبوا نساءً، ولكنهم شاركوا في لهوٍ، واستمتعوا بلعبةٍ مسلّية. في بعض الأحيان يتكاثرون، ويتزاحمون في الأسفل حتى يضيق بهم الدور الأول فيفيضون على بقيّة الأدوار. يغزون دوري الثالث أيضاً، ولكنهم لا يمكثون في ضيافتي طويلاً لأن طابقي العاري لا يستهويهم. يدبّون بأحذيتهم الثقيلة عبر البلاط، يتفقّدون الديار، وقد يستخدمون المرحاض

بالجوار قبل أن ينصرفوا. وقد يثرثرون في سعيهم بين الديار قبل أن ينصرفوا. أكثر هؤلاء الزوّار كانوا يصعدون للدور الثالث بقصد الاستطلاع. بنيّة مدى صلاحيّة المكان للقنص. مدَى صلاحيّة الطابق كقلعة للسّيطرة على الشوارع المجاورة على طريقة بنيان «الضمان». استطلاع طمعاً في اكتشاف موقعٍ يمكن أن يلعب دوراً بطولياً كما لعبه موقع بنيان «الضمان». ولكن هيهات أن يجدوا موقعاً شبيهاً بالبنيان الأسطوري كبناية «الضمان». البناية التي أعادت لهم الأمل في استعادة السيطرة على المدينة، ومن ثَمَّ على الوطن بأسره. فإخضاع الوطن للقبضة الحديديّة من جديد رهين استعادة السيطرة على «ذات الرمال». بلى! بلى! هذه هي النزعة الشائعة التي لا يتحدث عنها الهُواة وحدهم، ولكنها الاستراتيجية المُعلنة في وسائل الرأي العام لا في الداخل وحسب، ولكن في كل أركان الدنيا. فالمعادلة مدهشة برغم بساطتها: استعادة السيطرة على البلاد رهينة استعادة «ذات الرمال»، والسيطرة على «ذات الرمال» رهين السيطرة على شارع الحاضرة. والسيطرة على شارع الحاضرة رهين السيطرة على بنيان «الضمان»، أو بالأصحّ استمرار الهيمنة على بنيان «الضمان» أطول أمدٍ ممكن إلى جانب إحكام الحصار على المدينة برّاً وبحراً وجواً. ولهذا كان

سقوط الركن الأخير (الجوّ) في هذا الثالوث طعنة في الخطّة. قرار محفل الأمم بتحريم استخدام الأجواء في قصف العُزَّل كان ضربةً قاسيةً للمخطّط. ولهذا كانت عناصرهم تستميت بحثاً عن موقعٍ آخر له خصال أسطورية مثيلة لخصال بنيان «الضمان»، ليكون عوناً يشدّ أزر قلعة الضمان أطول أمدٍ ممكن، لأن الرهان كان أيضاً على طول النَّفَس، بل الرهان في الأساس في كسر الصمود بالحصار الطويل. أي بالنَّفَس الطويل. ولهذا يتفقّدون كل موقعٍ يتمكّنون من احتلاله علّهم يكتشفون ميزةً من ميزات بنيان «الضمان» يصلح لدعم هذه النيّة ، ولكن الطابق الثالث كموقعٍ حربيٍّ كان يخيّب ظنّهم في كلّ مرة: مرةً لمجاورته بناية أعلى ارتفاعاً تسدّ الرؤية من الجانب الأيمن حيث ينطلق طابور الأبنية السكنية نحو العمق. ومرة أخرى بسبب البنيان الكئيب الذي يحجب الرؤية في الواجهة: بنيان قديم يعود إلى عهود الهيمنة الإيطالية وَرَثه الإنجليز إبّان الحرب العالمية الثانية ليتخذوه مستودعاً، أو معسكراً ليعود في العهود التالية التي تعاقبت على المدينة مستودعاً لكلّ مُهمَلةٍ كما تشهد جدرانه المنخورة برطوبات البحر والمحفورة بآثار الطلقات النارية في الأزمنة الزائلة ؛ وها هي الأقدار تضيف على جدرانه أوسمة أخرى أحدث عهداً سطّرها أبناء المكان بفوهات بنادقهم

آيات هي بمثابة وصايا للأجيال القادمة ! ولهذا يَخِيب ظنّ المستطلعين فيستديرون. يستديرون لأستعيد عزلتي. لأستعيد حرّيتي. حرية أن أتنفّس بهدوءٍ وأملأ رئتيّ بالهواء بعمق؛ لأن هذا هو كل ما أحتاجه **لأحلم**. الهواء كل ما أحتاجه لأحلم. وأن أحلم يعني أن أحيا! **الهواء والعزلة هما كنزا الحرية، وضمان السعادة!** هو ما لم أتعلّمه في تجربة الحرب بقدر ما تعلّمته زمن السلم إن كان ما عشته وقتها يمكن أن يسمّى سلماً: هواءً، وعزلةً، و.. كتاباً!

لولا هذا الثالوث لما أفلحت في أن أعيش لأشهد ميلادي الثاني. لأشهد ميلاد جيلي الأول في الواقع لا الثاني! بل لأشهد ميلاد الوطن. ميلاد أمّة هذا الوطن الشقيّ منذ الأزل. لأنه لولا هذا الثالوث البسيط بساطة الإيمان لقضيتُ انتحاراً! لوضعت حدّاً لاغترابي انتحاراً! لقد قلت إن اللاّمبالاة كانت ورم الجيل. ولكن ورمي كان في غياب الغاية. هل قلت الغاية؟ لماذا لا أتشجّع فأسمّي الأشياء بأسمائها فأقول: الرسالة! هل طال التحريم أعمق أعماقي بسبب الهويّة الدينيّة في كلمة «رسالة»؟ هل يستكثر رجال الدين على أمثالي اعتناق الرسالة؟ ألم ينصّبنا المولى لنكون له في الأرض أخلافاً؟ لماذا لا نقول إن كلّ إنسانٍ في هذه الدنيا رسول، بل واجب كلِّ إنسانٍ في الدنيا



أن يكون رسولاً؟ أليس الإنسان هو الإيمان؟ أيّة رسالةٍ أعظم من رسالة الإيمان؟ **ولهذا أيقنت أن الإنسان إذا عَدَم الرّسالة عدم الإيمان**، وإذا عدم الإيمان فلن يكون جديراً بحمل لقب إنسان. والدليل؟ الدليل أكّده اندلاع الحريق. انتفضنا لأنّا **آمنّا**، لأننا قرّرنا أن نؤمن. لأننا قرّرنا أن نحمل صلباننا ونكون رسلاً. نكون رسلاً كما قُدِّرَ لنا منذ البدء أن نكون. فإنسانٌ لا يُهَدهد في القلب رسولاً إنسانٌ ميتٌ ينتظر موتاً ! لا يكفيه أنه ميّت، ولكنه يُضيف إلى الموت موتاً منتظراً، كأن الموت ليس الشيء الوحيد النافذ المفعول غير القابل للتكرار. **لأن الموت هو المبدأ الوحيد الذي لا يقول كلمته مرتين أبداً**، كأن الموت ليس الكلمة الأخيرة في ناموس القدر التي لا تقبل النقض أيضاً إلى جانب إنكارها التكرار. وقد جرّبت هذا الموت. جربت كما جرّب جيلي هذا الجنس من الموت. جرّبت موتاً ننتظر فيه موتاً. جرّبت موتاً أسوأ من الموت المنتَظَر. ولولا الكتب لارتميت في أحضان الموت الأرحم من موتي الذي كان سرّي كما كان لأبناء جيلي سرّاً. الموت الذي لا يعرف حقيقته سواي وسوى أمثالي. ولو لم تهبّ إرادة الموت لنجدتنا لظللنا رهائن في قبضة ذلك الموت الأسوأ ألف مرّة من الموت. **أليس مفارقةً أن يكون الموت منقذاً من الموت؟** أليس مفارقة أن يهرع الموت

لإنقاذ أناسٍ من الموت الأسوأ من الموت؟ أليست هذه أعجوبة دهرٍ ومعجزة المعجزات ؟ أنبحث دوماً عن العجب العجاب والإعجاز المعجز وكل العجب و كل الإعجاز في متناول اليد؟ آهٍ لو تأمّلنا ما يحدث حولنا، وتفحّصنا حالنا مليّاً، لأدركنا أنّنا لا نرفل إلا في العجب، ولا نحيا إلى المعجزات.

في الأماسي التي يهدأ فيها القصف، أو تضعف وتيرته وتتقطّع، كنت أسمعهم بوضوح. أسمع حوارهم، فعرفت بالسمع أسماءهم. عرفت بالسمع أشخاصهم. عرفت غيابياً شخصياتهم، أي طباعهم. فصاحب الأمر والنهي هو «صابر». إنه قائد الفرقة الذي يدعونه بـ «أفندي». أي أنه صاحب الرُّتبة الأعلى، ولذا فهو الآمر. ثم صاحب الصوت البحيح «بركة». يليه صاحب الصوت الرقيق «مامادو». إسمٌ مريبٌ يليق بأحد المرتزقة. هؤلاء هم الفرسان الثلاثة الذين رشّحتهم لي الأقدار ليكونوا لي أهل جِوار ! أعداء ولكنهم شئت أم أبيت هم الآن أهلُ جوار إلى جانب كونهم أعداء. والجوار في كل الأعراف وفي كل المعتقدات (كما أنبأتني صحفي) وضعٌ مقدّس ! وأهل الجوار في كل الأمم حَرَمٌ له حقوق لا تختلف عن حقوق ذوي القربى. بل لهم في بعض الأحيان حقٌّ يفوق حقّ صاحب القربى. وعلّ سيرة السموأل التي روتها لي كتبي أصدق مثال.

الشاعر اليهودي الذي آوى دروع وابنة شاعرٍ آخر هو امرؤ القيس ورفض أن يسلّمهم لجيش عدوّه ابن ماء السماء الذي ضَرَب حول حصنه حصاراً فاشلاً. رفض مُقايضتهم بإبنه الذي وقع أسيراً في قبضة جيش الحصار وفضّل أن يضحّي به ليموت بيد الجيش أمام عينيه على أن يخون عهد الجوار! العهد المبرم مع المستجير الممهور في العرف القديم دوماً ببصمة ربّ السماوات والأرض. أعدائي الآن أيضاً في عهدتي ! أعدائي الآن أيضاً استجاروا بي وعليّ أن أبحث عن حيلةٍ لتحديد هذه العلاقة المُعقّدة، بل الأكثر تعقيداً في حياتي على الإطلاق؛ وربّما في حياة كل إنسان ابتلته الأقدار فحلّ مكاني: **جارٌ عدوّ.** جارٌ استجار بعدوٍّ فأجارته حقوق الاستجارة دون أن يستعير بالاستجارة الحصانة كعدو! فما هو السبيل لشرح هذه الأحجية؟ لقد تذكرت في ظلمات الخلوة سيرةً شبيهةً: سيرة مُستعارة من تاريخ القدماء أيضاً لا أدري أين قرأتها. إنسانٌ استضاف ضيفاً، فأكرمه بكلّ مراسم الضيافة، ولكنه علم من الحوار أنه هو نفسه عدوّه اللدود الذي بحث عنه طويلاً. وعندما شيّعه مودّعاً بعد ثلاثة أيامِ الضيافة صارَحه قائلاً إنّه سيمهله إلى أن يختفي عن الأنظار، ولكنه سيقتله شرّ قتلة إذا أدركه بعد ذلك! أنا أيضاً أستطيع أن أجد مخرجاً لن يختلف

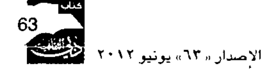
كثيراً. سأراعي حرمة الضيافة ما أمكنني، ولكني سأكون في حِلٍّ من العهد ما أن يبتعد أحدهم شبراً واحداً خارج العتبة. أستطيع أن أقتنصهم من النافذة! أو أباغتهم من الخلف ما أن يطأوا بأقدامهم النَّجِسة أرض الشارع. أليس هذا حلاً؟ أليس هذا هو العدل؟ أليس هو السبيل الوحيد لكسب رضى المنطق، ورضى الضمير، ورضى الدنيا والدين؟ سألزم نفسي بالعهد، ولكن.. هل يلزم الطرف الآخر نفسه بالعهد؟ أليس غباءً أن أقف مكتوف اليدين في أول مواجهة لأتلقَّى طلقةً مميتةً في الجبين إكراماً لعهدي المجهول الذي قطعته على نفسي وحدي دون علمٍ أو مباركةٍ من الخصوم؟

كان يروق لي أن أنقلب سمعاً شاملاً بمجرّد عودتهم من غزواتهم. لا أسمع بالطبع ما يدور وراء الأبواب المغلقة. لا أسمع مُجادلاتهم عندما يغيبون في الشقق الأخرى التي هجرها أهلها منذ بداية الأحداث ليلتحقوا بأقاربهم سواء بمدن الجوار، أو بالمدن الأبعد بالدواخل، أو بالحاضرة. ولكني أسمع ثرثراتهم بوضوح عندما يتحرّرون. عندما يتحرّرون من بنادقهم. من أوامرهم. من حقدهم. من التلقين الذي يتلبّسُهم. أي عندما يعودون أناساً لا جنداً. عندما يعودون من اغترابهم كقَتَلة ليستعيدوا هويّاتهم كبشر! «بركة» تحدّث عن ابنه الذي

أصيب بشظية في رأسه بالجبهة الشرقيّة فمات قبل أن يُدرك المستشفى الميداني. وقد ظلّ يروي هذه السيرة كلّما عاد من غزواته. يرويها في كل مرة بلغةٍ مختلفة، وبروحٍ مختلفة، وبوقائع مختلفة كأنها سير كثيرة لأناسٍ آخرين وليست السيرة ذاتها ! يرويها لا كما حدثت، أو كما تلقّاها، ولكن كما تخيّلها، أو كما حَلُم بأنّها حدثت. إنه عنادٌ غريبٌ في صنع الأسطورة. كفاحٌ لإرواء الظمأ إلى الأسطورة. إرواء الظمأ الخالد إلى الأسطورة. أسطورة الاستشهاد التي تمنح الأموات الشهادة بالخلود. لأنّ كما يبدو لا خلود دون روحِ الأسطورة. وتغذية الوقائع بأنفاس الرُّؤى، وشحن الصَّرعى بفيوض الشِّعر هما الضمان الوحيد لقيام الأسطورة .

أمّا «صابر» فأقلُّ ميلاً للرواية. أو فلأقل إنه يروي أقلّ ويأمر أكثر، ربّما استكباراً وربما انشغالاً. وربّما لأنّ المخوّل بالأمر والنهي وحده يروي لنفسه أكثر ممّا يروي للأغيار! لأنه يرى في الرواية ضعفاً. يرى في الشهوة الغريزية للرواية نقصاً. هذا الجنس أكثر صمتاً، ولكنه أكثر عُنفاً. أكثر عنفاً أو عدواناً لأنه يُخفي. أمّا الذين يروون فيتطهّرون. يتحرّرون. و.. يحيون. أو فلنقل يبرأون. الرواية، إذاً شهادة براءة ، أو حتى نزاهة. والصامتون متآمرون!

صاحب الرواية، كما تعلّمت، روحٌ عارية! وصاحب السكوت مريد سوء! والدليل أن هذا الوغد هو صاحب الغصب في الليلة الأولى. هو مَن سنَّ حقّ المرة الأولى تيمناً بحقّ الليلة الأولى الذي كان سائداً في إقطاعيات أوروبا في القرون الوسطى، بل ظلّ سارياً إلى نهايات القرن التاسع عشر في بعض مجتمعات أوروبا كما هو الحال في روسيا القيصرية كما أفادتني صُحُفِي الأولى. نَزَا الوغد على المرأة على مرأىً من طفليها، وعلى مرأىً من مرؤوسَيه كأنه لا يمارس غصباً، ولكنه ينتزع حقّاً. ينتزع حقاًّ مشروعاً. ينتزع حقاً أباحه ناموس الحرب قبل أن تُبيحه أوامر صاحب الأيقونة الانتقامية. ولم يكتفِ بهذا ولكنه أوقف المرؤوسين ليكونوا له في فعلته الكريهة عسساً، ولإبعاد الصغيرين عوناً! لقد سمعت صاحب الحشرجة (المدعو بركة) يهدد المرأة بإطلاق النار على أحد الصغيرين إذا لم تكفّ عن الصراخ وتمتثل لشهوة الآمر! ثمّ.. ثمّ تنازل عنها لإشباع رغبة جنديّيه. هل قلت جنديّيه؟ الواقع أنّي لم أتبيّن سوى صرختها اليائسة عندما اقتحمها صاحب البحّة، لأني لم أحتمل سماع أكثر ممّا سمعت فسددت أذنيّ بالأصبعين. ولكن.. ولكن ما حدث في الأيام التالية أذهلني إذا جاز القول لأن الإحساس بالذهول قتلته فينا الأحداث منذ الأيام الأولى. قتله فينا هول



ما رأينا منذ أيام الحريق الأول. وبرغم ذلك لا أجد في اللغة كلمة أنسب من الذهول كتعبيرٍ عن السيرة التالية. فقد تناهَى إلى سمعي أنينٌ من ضربٍ آخر من دار المرأة. أنينٌ أنثويٌّ ينطلق من الدور الثاني. آهات لذةٍ حقيقية تزأر بها المرأة كلما أخذت الجلاد في أحضانها. فهل يُعقل أن تفلح العادة في ترويض فعلٍ قبيحٍ كالغصب أيضاً؟ هل يُعقل أن تستمرئ المرأة الحبّ مع جلادها وتنسى سريعاً أنها ضحية؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قبولاً بالواقع الذي لا تملك لدفعه حيلة؟!

لا أدري، ولكن الحقيقة أن المرأة صارت محظيّةً، وربّما معشوقةً، لأنّ المتعة، لأن الاستمتاع بين الرجل والمرأة هو شهادةٌ على الحب، ولا يعود دليلاً على غصب ! والشهادة على الحبّ تهب الفعل الجنسي شرعية أخلاقية حتى لو لم تهبه شرعية قانونية. وما حيّرني أكثر هو كيف استطاعت أن تتعشّقه وهو الذي **لا يروي**، لأني كنت أظنّ أن من لا يحسن أن يروي ليس جديراً بالثقة ! أليس شهريار على حقّ عندما قطع رأس كل امرأة **لم تُحسن أن تروي كما يجب أن يُروَى؟** وقد تجرأتُ في إحدى المرات ففاتحتها باستنكاري فما كان منها إلا أن حدجتني باحتقار لتقول إنها لم تفعل إلا لعدم وجود خيار. فقدرُ المرأة في الحروب أن تكون غنيمة أحد الرجال، هذا إن لم

تكن **غنيمةً** لكل الرجال. حدث هذا في كل الأزمان، وزماننا كما اتّضح لم يكن **استثناء** برغم التشدّق بحقوق الإنسان وما أدراك ما حقوق الإنسان! سكتَتْ ثمّ استدركتْ قائلةً إن المرأة غنيمة الرجال في السلم فكيف لا تكون غنيمتهم في الحرب؟ التجربة برهنت ألاّ وجود لفرقٍ في الحالين إلا في **العدد**. في السلم هي من نصيب الرجل **الواحد**، وفي الحرب هي من نصيب **الكل**. الإمتياز في الاختيار؟ هراءٌ في هراء! المرأة لا تختار رجلها حتى في أوقات السلم، فكيف بأوقات الحرب؟ فما يبدو في ظاهر الأمر اختياراً هو في باطن الأمر غصبٌ مبطّن، غصبٌ مهذّب. خيار من لا يملك الخيار. والدليل؟ صلبتْ يديها حول صدرها العامر يومها لتتحدث عن **الدليل**. قالت إنها فضّلت أن تختار عدوّ الرواية لأنه الأقوى. إنها استجابةٌ للغريزة الحيوانية الأولى التي كانت دوماً امتياز الأنثى للدفاع عن النفس، الغريزة الفطريّة في سبيل البقاء. اختارت رأس القطيع كي تضمن قُوْت الذرّية أيضاً وتحمي نفسها من التنقُّل بين الأحضان. ثم.. ثم هناك أمرٌ آخر لم تكن تريد أن ترويه. ولكن هل تستطيع المرأة أن تسكت على سرّ، أو على أيّ أمرٍ تحسبه سرّاً؟ كلا بالطبع ! قالت إنها انحازت لصاحب الأمر والنهي كي لا تقع غنيمةً لصاحب السّبخة! السّبخة؟ آه،



أبناء السبخة! لم أكن أعلم أن صاحب الحشرجة الكئيبة سليل أسباخ! فلون البشرة هو الشيء الوحيد الذي يصعب على السمع أن يميّزه من بين الأصوات ! والحشرجة في الصوت لم تكن لتكونَ دليلاً على تشويش في بشرة الجلد! **أن تكون الكآبة في الصوت برهاناً على كآبة في لون الجلد هو آخر ما يمكن أن يخطر لي على بال!**

فمن هم هؤلاء الأوباش الذين استجابوا لصنوف التنكيل بأهل المدينة منذ أول يوم دون الأجناس جميعاً؟ من هم هؤلاء الأنجاس الذين هبّوا لتنفيذ الفظائع كما لم ينفّذها مخلوق في أخوتهم من أهل الجوار، وفي نساء أهل الجوار الذين أطعموهم يوماً من جوعٍ وآووهم من خوف؟ إنهم من تلك الملّة التي جاءت يوماً من أعماق الأدغال برفقة تجّار القوافل العابرة للصحراء. إنهم آخر دفعة من صفقة الرقّ التي تزامن وصولها إلى مرفأ «ذات الرمال» بإعلان اتفاقية فيينا القاضية بتحريم تجارة العبيد في بدايات القرن التاسع عشر، ولم يبقَ لباشا طرابلس وقتها سوى الامتثال للأمر الواقع واستبقاء الحمولة المرفوضة من قبل ربابنة السفن الأوروبية على أراضيه. ولمّا كان باشا طرابلس يومها هو يوسف باشا الشهير بروح المرح، أو فلنقل الشهير بروح السُّخرية، فقد تحسّر طويلاً على الخسارة التي تكبّدها بيت المال جراء التحريم فقرّر أن يعزّي نفسه

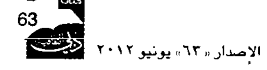
بالسخرية كعادته في مثل هذه المواقف الموجعة. فماذا فعل يا تُرى؟

يُقال إنه سأل مستشاره المدعوّ في لسان الكولوغلية باسم «الكاهية الكبير» عن حقيقة الثمن المدفوع مقابل كل رأسٍ من رؤوس العبيد، فأجابه «الكاهية» بتلك اللّكنة التي تختلط فيها اللهجة الطرابلسية بالمفردات التركية قائلاً: «**كمشة طزّ يا مولاي!**» و«الكمشة» بلهجة أهل طرابلس هي «الحفنة»، و«طزّ» في الترجمة عن التركية تعني «ملح». أي: «**حفنة ملح!**». ولكن يوسف باشا عاد فسأل بروح الفكاهة عن سرّ ولع أمم الأدغال بمعدن الملح أكثر من كلّ أمم الأرض المعروفة بدليل أنهم الملة الوحيدة التي اعتادت أن تقايض أبناءها **بحفنة ملح**، فأجاب «الكاهية» قائلاً إنهم يفعلون ذلك لإيمانهم بالهويّة الإلهية لهذه التربة. سكت الباشا لحظات، ثم بدأ يذرع البلاط ذهاباً وإياباً كعادته حسب تأكيد كُتّاب الحوليّات قبل أن يتوقف فجأة كعادته أيضاً عندما يتلقّى وَحْيَاً ! سأل بلهجة من يخاطب نفسه هذه المرة: «إذا لم تخذلني الذاكرة ففي مملكتنا توجد أرض مكسوّة بهذا **السمّ الزعاف** طوال العام. أليس كذلك؟» هبّ المستشار لموافقة الباشا قائلاً إنها أرض تستلقي إلى الشرق من أرض «ذات الرمال»، وهي لم تصلح يوماً لزراعة زرع، ولا لاستخراج ماء، ولا لإقامة بنيان!

تفكّر الباشا مُهلةً قبل أن ينطق بالأمر الذي كان لحاشية المملكة دوماً فرماناً: «أعتقد أنها المكان المناسب للأمّة التي تتخذ من سمٍّ كالملح معبوداً»، فصاح «الكاهية»: «عين الصواب يا مولاي! فمنذ ابتُلينا بهذه الورطة ونحن نضرب الأخماس بالأسداس بحثاً عن طريقة للتخلص من هذه الشحنة المشؤومة! فمولانا أعلم الناس بضعف الرعيّة إذا تعلق الأمر بالإناث! إنهم لن يتورّعوا من اتخاذ خنفساء محظيةً، فكيف إذا جرّبوا براعة الزنجيات في المخدع؟ لن أضمن يا مولاي أن يختلط الحابل بالنابل فنجد أنفسنا في القريب نأوي في ديارنا ذرّية من سُلالات العبيد!».

ظنّ الباشا مع حاشيته أنه دفن الوباء مع الدفعة الخاسرة بتوطين القوم في الأرض المحروقة بهباء الملح، ولكن الخبثاء عرفوا كيف يحتالون على أسباخ «تورغاء»، وهي كلمة أطلقتها قبائل أهل البلاد الأصليّين في الزمان القديم وتعني في لغتهم المنسيّة «الأرض المشتعلة» أو «المحروقة». وهو تعبيرٌ يليق بأرضٍ ذات خصلة **نارية** كـ «تورغاء». فبدل أن يهلك القوم جوعاً وعطشاً في رحاب الملح، استزرعوا النبتة الوحيدة التي لا تتأثّر بالملوحة وهي النخلة! لم يكتفوا بإنتاج التمور بوفرة ومقايضة هذه الفاكهة بما كانوا في حاجةٍ

إليه من السلع، ولكنهم استثمروا الأسباخ نفسها بإنتاج الملح الذي سيّروا به القوافل إلى موطنهم الأول في الأدغال وعياً منهم بأنه الكنز الوحيد الذي أوقعهم في أصفاد العبودية يوماً بسبب قيمته التجارية النفعيّة، لا قيمته الأسطورية بصفته طعام الربوبيّة كما روّج أربــاب القوافل التجارية! وهكذا تناسلوا وتكاثروا وازدهروا بدل أن يفنوا ويندثروا كما شاء لهم الباشا. وقد اعتبر عقلاء المناطق المجاورة هذا الازدهار **دسيسة شيطانيّة** دبّرتها ضدّهم الغيوب قصاصاً لهم على السُّحت الذي التقموه من تجارة الرقّ على مدى أجيالٍ وأجيال! وها هي تلك اللعنة تُلاحق أخلافهم من بعدهم فتستيقظ من سُباتها بعد قرنين من الزمان. وهي يقظة لم تكن بدون سبب. فالأسلاف لم يغفروا لمستضيفيهم سوء الضيافة. لم يغفروا لهم ما ظنّوه سوء استضافة فـ «ذات الرمال» كانت بالنسبة لهم هي **الفردوس الموعود** الذي سينتقلون بعده إلى الفردوس الأبعد، إلى الفردوس الأوعد. ففي أساطيرهم التي ورثوها عن أجدادهم أنهم لن يتمكنوا من تحقيق الغلبة على اللعنة التي تلاحقهم والمتمثلة في لونهم إلا في اليوم الذي سيتمكنون فيه من عبور ثلاثة بحور لا البحر الواحد في طريق هجرةٍ تاريخيٍّ وأسطوريٍّ ومُميت ينطلق من عمق الأدغال صوب الشمال. وهي



أساطيرٌ مقدّسة (بل صارت أكثر قداسة) لأنها لا تكتفي بتلقين الأجيال الوعد بالتحرر من لعنةٍ صنعها اللون فقط، ولكنها تعدهم بتحقيق الغلبة على مسترقّيهم والهيمنة على الدنيا من ما وراء البحر الأعظم الأخير. البحر الأسطوري الأخير. ولم يكن عسيراً على كهنتهم أن يشجعوا القبائل على بيع أبناء السلالة سواء مقابل الملح أو بلا مقابل على الإطلاق، لأن عبور الذرية إلى الشمال ما هو إلا خطوة في طريق تحقيق النبوءة الموروثة من جيلٍ إلى جيل! ولم يعدم هؤلاء الدُّهاة بالطبع أن يقدّموا التأويل المقنع في سيرة البحور الثلاثة: فالصحراء التي يجب عبورها هي بمثابة بحرٍ أوّل، لا لأنها «بحرٌ من رمال» كما يطلق عليها الأغراب فقط، ولكن لطبيعتها التي زالت كبحرٍ حقيقي. وهو ما تؤكّده لا أساطيرهم وحدها، ولكن أكده على مرّ الزمان شهود العيان الذين عبروها وعثروا في أرجائها على القواقع والأسماك وكل كائنات البحر متحجرةً بسبب القدمة. أمّا البحر الثاني فهو «بحر الروم» كما يسمّيه أهل الشطآن الجنوبية، أو «بحر ليبيا» كما يسمّيه سكان الشطآن الشمالية! وهو بحرٌ ثريٌّ ونبيل وخرافيّ حوله نبتت **جذور البشر** منذ الأزل وكان له الفضل في قيام ما نسمّيه اليوم **حضارات**، برغم عقوق الأبناء الذين ظلّوا ينعتونه بإسم أقوام الضفّة الأخرى كأنهم يتبرأون

من شرف الانتماء إلى إسمه نكراناً لأفضاله! أمّا البحر الثالث في سيرة الفردوس الموعود فقد لفّها الغموض في ذاكرة الأجيال طويلاً، فاستعصى اللغز حتى على أدهى دُهاة القوم. وكان يمكن أن يسود الغموض زمناً أطول لو لم يهرع للنجدة اكتشاف **العالم الجديد** الواقع ما وراء بحر الأقيانوس كما يسمّيه القدماء. هنا هلّل كهنة الأدغال وأوصوا بغزو هذا العالم البكر بأيّ ثمن، لأن اكتشافه ما هو إلا الفصل الأخير في تفسير النبوءة التي انتظروها طويلاً! فتخيّلوا معي ماذا يعني عرقلة هذه المسيرة الجنونية في يقين أناسٍ لا يؤمنون بالأسطورة فحسب، ولكنهم يتنفّسون الأسطورة، ويقتاتون الأسطورة، ويرتوون من سلسبيل الأسطورة. لقد ظنّوا أن استبقاءهم في مملكة الملح مؤامرة من أهل الساحل لعرقلة مسيرتهم إلى الفردوس على مشارف البحر الثاني! إنها مكيدةٌ لحرمانهم من الفردوس بقصد استرقاقهم باستغلالهم للعمل في مناجم الملح التي حدّثهم عنها تجّار القوافل. ولهذا ناصبوا أهل «ذات الرمال» العداء. لم يجرؤوا على الكشف عن العداوة بالطبع، ولكنهم بيّتوا العداوة ودسّوها **تميمة سرّية** في ذاكرة الأخلاف. وها هو الحقد التاريخي المبيّت والمقنّع يكشف عن هويّته الحقيقية في أول فرصة ليكشّر عن أنياب الانتقام!

٧

هل قُدِّر لـ «**ذات الرّمال**» أن تقول بهذه الحرب كلمتها التي لم تقلها كما يجب أن تُقال؟ فالأرض، كلّ أرضٍ، وطنٌ يشتهي القول كما يشتهي ابن الأرض أن يقول! وطنٌ توّاق لأن يروي كما يتوق سليل الأرض لأن يروي؛ لأن حضورنا في الدنيا ما هو إلا **رواية**. هو استجابةٌ لناموس الرواية كما علمتني الكتب. ولهذا السبب يقول لسان حال شهريار: «إروِ إذا شِئتَ ألاّ أقتلك !» ولهذا قتل شهريار أعداد النساء اللاّئي خانهُنّ اللسان فأخفقن في امتحان الرواية. ولهذه العلة أيضاً أفلحت شهرزاد دون غيرها في ترويض شهوة شهريار إلى القتل لأنها أتقنت استخدام اللسان! فالإنسان إذا كان ملفّقاً من جسدٍ وروح فمن الطبيعي أن تتولّى العضلة المخفية بين الفخذين التعبير عن **الحسّ**، في حين تتولّى العضلة المخفيّة بين الفكين التعبير عن **الروح**. رسالة العضلة الأولى إنتاج **الذرّية** للمحافظة على النوع، ورسالة العضلة الثانية إنتاج الشعر الذي نسمّيه **إيماناً** أنشودة مديحٍ في معرفة ربّ السماوات والأرض. أقول هذا آملاً ألاَّ يفسِّر أهل الحرف خطابي (أو تأويلي المتواضع) كتجديفٍ في حقّ الألوهة على عادة هذه الأيام. فقد جرّبت أن أيّ اجتهادٍ في حضورهم هو مخاطرة كبيرة، لأن تهمة منكرة

كالكفر هي فزّاعتهم التي يرمون بها كل من خالفهم رأياً أو اجتهد باستخدام عقلٍ لم يكن يوماً حكراً على أحد. وكان بالوسع التسامح إزاء تحجّرهم وتجاهل الأمر لو لم تكن تهمة كهذه الحجّة الوحيدة التي تبيح لأيٍّ كان استنزال قصاصٍ مُريعٍ كالتصفية الجسدية دون الحاجة للجوء إلى قضاء أو إتاحة الفرصة للمتّهم كي يترافع عن نفسه ظنّاً منهم أنهم بهذا العمل إنّما ينفّذون مشيئة الربّ، كأنهم هم وحدَهم أخلاف الله في الأرض. أقول هذا بعد أن عرفتُ بعضهم في زمنٍ سبق الأحداث، كما عرفتهم وعايشتهم في معمعان الأحداث. وإذا سمحت لنفسي بالاختلاف معهم، بل بالشجار مع بعضهم إلى حدّ القطيعة، إلا أن الواجب يدعوني لأن أعترف لهم بالبسالة لا في الدفاع عن معتقداتهم فقط ، ولكن في حبّ هذا اللغز الذي نسميه وطناً، وتحلّيهم بالشجاعة في الدفاع عنه. **أقول إنّ هذا الوطن مسكونٌ بروح إنسان الوطن، أو العكس.** وغموض مفهومنا للوطن لغزٌ مستعار من غموض الإنسان. أي أن الوطن هو النموذج المكَبَّر للإنسان الذي يسكن الأوطان، كما أن الإنسان ما هو إلا الوطن في النموذج المصغَّر! ولهذا، كما يبدو، نؤمن بالأوطان كم نؤمن بربّ الأوطان. ونحبّ الأوطان كما نحبّ ربّ الأوطان!

كأن الأوطان هي خليفة الله في الأرض في الحجم الأكبر، والإنسان هو الخليفة في الحجم الأصغر! **وعندما تُقال كلمة وطنٍ ما، فإن الوطن هنا هو الذي يقول الكلمة على لسان سليل الوطن سواءٌ أكان هذا السليل نبيّاً أو حكيماً أو مخترعاً عبقريّاً، ليصير المجد صفقة متبادلة تُنسَب في عُرف الأجيال للوطن متمثلاً في إبن الوطن!** فكلُّ ترابٍ يروق له أن يكتب سيرته على طريقته، فإذا نُسِبَ هذا التراب لإنسانٍ استوعبه كمكان، فإن التراب يصير وطناً ينطق ببيّنته إنسان يختزل في كيانه روح الوطن ورسالة الوطن! فإذا قيل عن «**ذات الرّمال**» أنّها تعبيرٌ حرفيّ عن الإسم، وهو ما يعني أنها تاريخيّاً مدينة بلا جذور، لأن طبيعتها ما هي إلا سيوفٌ رملية تتقاطع على تخوم بحر ليبيا العظيم، فإنّنا **نركن إلى السَّهل ونتجاهل الممتنع**، لأن في الإسم الثاني، الأقدم عهداً، والأجدر بالاستجواب، المتمثّل في **مصراته**، يكمن سرّ المدينة. وهو عهدٌ لا يَستمدّ مجده من الأزمنة القريبة التي يظنّ الكثيرون أن المرحلة القرمانلية كانت ذروتها لأن كولوغليّة المنطقة كان لهم النصيب الأكبر في تسيير شؤون المملكة الطرابلسية، لا من خلال أسرة الأدغم أو أسرة بيت المال أو غيرها فقط ، ولكن في حقن أوردة البلاد بأصحاب المعارف وأشياخ العلم أمثال

ابن غلبون مؤلف «التذكار» وصاحب المواقف الشُّجاعة في دفع ظلم الحكام لا على الناس وحسب، ولكن دفع الجور عن الطبيعة أيضاً قبل أن يوجد مفهوم للطبيعة **ككائنٍ حيّ** على النحو الذي نستخدمه اليوم. لم يوجد في كل الدنيا في بدايات القرن الثامن عشر، ولم يوجد في بلداننا إلى اليوم إنسانٌ كابن غلبون انتصر لهذه الأمّ بروح الفطرة، وبروح الشاعر، يوم عَرَّضَ حاكم المدينة أشجار النخيل للانقراض بقطع رؤوسها استدراراً للنزيف المستخدم خمراً في جلسات الترف، فما كان منه إلا أن اعتلى بغلته وسافر إلى الحاضرة لمقابلة «صاحب الحضرة» كما راق له أن يسمّي أمير المؤمنين أحمد الأكبر مؤسّس الأسرة القرمانلية، ولم يعد من هناك إلا مدعوماً بفرمان عزل الحاكم!

ولكن مجد **الإسم المصراتي** لن يتّضح ما لم نستنطق الإسم، ونتأمّل معناه مليّاً. وهو ما لن يحدث دون الاحتكام إلى حرم اللّغة، وحرم اللّغات **المحلّية القديمة تحديداً**. ولو جاس الناس في أدغال الكتب كما فعلتُ طوال سنين عمري الضائع لمَا اندهشوا إذا اكتشفوا الصّلة الحميمة بين «**مصراته**»، و«**سرت**»، وإسمٌ آخر أعظم شأناً في يقين الدنيا هو «**مصر**». هل أبالغ؟ كلا بالطبع ولكن مفتاح الطلسم يسكن

الأزمنة المنسيّة عندما كانت اللغة التي حُرّمَتْ علينا (وهي **الليبية القديمة**) هي لسان الأمّة العريقة التي استوطنت شمال القارّة التي أطلق عليها أهل الشاطئ المقابل إسم «ليبيا» طوال عصور ما قبل التاريخ كما يُسمَّى **خطأ** في خطاب مؤرّخي عالمنا اليوم. ولا أفهم لماذا يسوء الناس في بلادي أن يعرفوا حقيقة حضارات سبقت الحضارات إذا كانت أعظم الأمم شأناً هي التي اعترفت لنا بهذا الإرث المجيد بسبب ضيق الأفق الذي يُحَكّمْ الانتماء العرقي في كلّ شاردة وواردة فنتعصّب لهذه الهويّة على حساب تلك الهويّة كأننا لا نعود كلنا بأصولنا الى آدم وإلى جدّتنا المستعارة من ضلعه حوّاء! فمتى نتعلّم أن تعدُّد الثقافات وتنوّع الأعراق هو ثراءٌ يُحْسَب للأوطان ويُضاعف من أسهم الأمم في التباهي **بصنيعها** أمام الأمم؟ والدليل؟ الدليل تُترجمه **هبّتنا** التي جمعت كل الأعراق وشملت كل الأقليات لاسترداد **الهوية الضائعة!** هويّة وطنٍ مُصَادَرٍ أردنا بعملنا أن نُعيد له هذه **الروح الضائعة** باغتراب الهويّة الضائعة! ولولا هذه القناعة التي جعلتنا نكتشف أنفسنا لأنفسنا لما مُتنا في الميادين وعلى شفاهنا تَرُفّ بسمات السعادة ! أليست أعجوبةً (أو فلأقل مفارقة) أن تنطق وجوهنا اليوم بالسّعادة بالذهاب إلى الموت، في حين نطقت

وجوهنا بالشقاء في وقتٍ ظنّنا فيه أنّنا نذهب بالأمس القريب إلى الحياة؟ بلى! إنه لقاء الحرية التي لا أَمَلُّ من أن أردّد أنّها القيمة الوحيدة التي **تجعل من الموت ميلاداً!**

ولمّا كانت اليابسة أسبق بالحلول ضيفاً على أمُّنا الأرض فقد سُنَّ التقليد التليد الذي ينتحل فيه أبناء يابسةٍ مّا إسم اليابسة فقط بعد أن تكون قد استكملت شروط الوطن المتمثلة في التئام محفل البشر في رحابها. ولهذا نضيف للإسم الممنوح بالولادة دوماً لقب الوطن جنباً إلى جنب مع لقب العائلة للتدليل على الانتماء، وللبرهنة على إكبارنا الوطن، ولأسبقيّة وجود الوطن على وجودنا بدليلٍ آخر هو: **أنّنا نحن من يضحّي بالنفس في سبيل الوطن، وليس الوطن هو الذي يُضحّي بنفسه في سبيلنا!** وعندما يرد في كتب التاريخ أن «مصراتة» إسم قبيلة ليبية قديمة، فإن هذه القبيلة لن تستكمل شروط هويّتها دون يابسة، دون أرض، دون وطنٍ أصغر يحويه وطنٌ أكبر. أي أنها قبيلة أعياها الترحال يوماً فركنت إلى المكان! والاستقرار في رحاب المكان هو ما حَفَرَ في روح الأجيال هذا المفهوم الرومانسيّ الذي نسمّيه **الوطن.** هنا يتماهى إسم القبيلة المتنقّلة في أرض الله الواسعة باسم المكان الذي لا يعود مجرّد مكان، ولكنه منذ الآن هو وطن.

أقول هذا ليقيني بأن كل الخليقة في البدء كانت **راحلة** ، ولم تنقسم إلى أهل رحيلٍ وأهل استقرار إلاّ تالياً! وكلمة «البدء» هنا تلعب دوراً خطيراً في ثقافات العالم القديم لأنها تعني: **الأسبقية** . وقد كان الإنسان القديم مهووساً باستخدام هذه الحُجّة للبرهنة على **حقّ الأقدميّة التاريخيّة**. بهذا المعنى اشتركت مدن أو أوطان بأكملها في كلمة «مزر»، أو «مصر» في الجذر مع «مصراتة»، ومع «سرتا» أيضاً للتدليل على العراقة **والاستئثار على العمق في الزمن!** ففي الليبية القديمة المشتركة مع شقيقتها المصرية القديمة تعني كلمة «مزر» أو «مصر» معنى الأسبقيّة الزمانية، أي مفهوم الرّيادة التاريخية. أما التاء المضافة في نهاية كلمتي «مصراتة» أو «سرتا» فهي علامة تأنيث، والسين في «سرتا» هي إبدالٌ شائع من حرف الزاي. والريادة في غيوب الزمان إذا قورنت بـ «مصر» فليس من قبيل المغالاة، أو التباهي، أن تستعير لقباً مهيباً كلقب «أمّ الدنيا». ففي العربية أيضاً كلمة «مزر» تعني «**الأولوية**». ومن كذّب فليس له إلاّ أن يحتكم إلى ابن منظور علاّمة هذه اللغة الأوحد الذي لا يعرف الكثيرون هويّته كقاضي قُضَاة هذه البلاد منذ ما يزيد على الألف عام ، ففي موسوعته سيجد الخبر اليقين. أمّا «سرتا»، أو «سرتا الكبرى» كما وردت في مصادر

قُدماء الأغريق والرومان، فقد شهد لها التاريخ بأولويّةٍ أخرى لم يكن الإسم إلا ترجمة فعليّة **لها. لأنّ الأولوية في الفوز بالحضور في الزمن رهينة أولوية في الحضور في رحاب المكان.** وهو امتيازٌ كان حِكْراً على عواصم الأمم منذ ألقَى الإنسان عصا الترحال ليستقرّ إلى جوار المياه في المكان. والسباق بحيازة الأسبقيّة في الوجود حقٌّ تنازعته جلّ الأمم لأنه شرفٌ لا يدلّ على عراقةٍ في النسب وحسب، ولكن يحمل مدلول **الهويّة الدينية**، أي هويّة الإنتماء إلى ملكوت الأرباب!

ولكن الظمأ الخالد إلى الربوبية، المبثوث في النزوع إلى **الأولويّة**، لم يكن لينفي حقيقة الهويّة الأرضية التي لم تكن لتجرؤ على التباهي بنقاوة الأعراق. ففي مصر القديمة، كما في سرتا الكبرى، كما في مصراتة، تلاحمت الأقوام، وتناسلت الأمم، وتمازجت دماء الأجناس، كما في بابل الزمان تماماً، بحيث لا يجرؤ مخلوق أن يتباهى بنقاء النسب دون أن يكون هذا الادّعاء تجديفاً في حقّ الحقيقة. فمن يجرؤ اليوم، أو بالأمس البعيد، أن يفخر بامتلاك عروقٍ يسري فيها الدم الأزرق أو غير الأزرق؟ ألن يكون صاحب هذا الادّعاء مثيراً للشفقة في واقع تبلبل عبر كل تاريخه بالسُّلالات، وتماهَى بأجناس الأعراق، فاستعرب المتبربر، وتبربر المستعرب،

وتليّب الإغريقي، والتركي، والمالطي، وإلا ما عرفنا أهلاً بيننا، بل وقبائل كاملة، ندعوهم بأسماء تبرهن على انتماء أصلي في: **الكولوغلية** ذوي الأصول التركية، أو **الرقريقي** ذوي الأصول الإغريقية، أو **القريتلي** ذوي الأصول الكريتية، أو **المالطي** ذوي الأصول المالطية، وهلمّ جرّاً. أردت أن أقول إنّنا يجب أن نتعلم الاعتزاز بهويتنا **الأثرى لا الأفقر!** يجب أن نتعلم أن نفخر بتعدّدنا لأن التعدّد ضمان وجودنا في البُعْدَيْن الأفقي والعُمْقِي، كما يجب أن نتعلم أن نفخر بتنوّعنا لأن في تنوّع الثقافات واختلاف الديانات، يكمن امتدادنا الروحي، وعراقتنا الإلهية، لأن الألوهة التي خلقتنا شعوباً وقبائل هي التي حثّت في الوصية أن نتعارف، ونتحابب، ونتماهى. فهل ذهبتُ بكم بعيداً في هذه الأنشودة العاطفية؟ لا أدري. ولكن اليقين أننا لم ننطلق لنموت في الساحات في ذلك اليوم إلاّ استجابةً لنداء هذه الروح، لاسترداد هذه الروح التي اغتربت طويلاً فاغتربنا عن أنفسنا، وعن بعضنا بعضاً باغترابها!

٨

كدت أنسى ما حدث مع مدير المدرسة، ولم يخطر ببالي أن تكون تلك المواجهة بمثابة هامشٍ سوف يعقبه متن! فبعد أيام اختلى بي الأب ليُعيدني إلى نقطة الصفر. بدأ بحديثٍ غريبٍ عن قدرة الكتب على الذهاب بالعقل، وعندما لاحظ دهشةً في وجهي استيقظت فيه عاطفة الأبوّة على ما يبدو فاستبدل اللهجة. عاد فاعترف بأفضال الكتب التي لا تُحصَى دون أن ينسى استثناء رذيلة واحدة (حسب تعبيره) هي قدرتها على بلبلة العقل بحيث يفقد مريدها الإحساس بالواقع. هكذا عبّر: **الإحساس بالواقع!** سكت ثم تساءل «.. وإلا هل يُعقل أن تنسى في أيِّ واقع تعيش حتى تتهكّم علناً أمام التلاميذ على مناهج تَعْلَم جيّداً من يضعها؟». كدتُ أحتجّ فأقول إن المنهج الدراسي ليس قرآناً منزّلاً، ولكني تذكرت أن آراء سادة هذه الدنيا كثيراً ما كانت متوناً أكثر حُرمةً من القرآن، وأعظم قداسةً من الأناجيل، وأقوى سلطاناً من كل الأسفار، فاستجرتُ بالصّمت ليُضيف: «لم تكتفِ بهذا، ولكنّك أضفت إلى زلّتك خطيئة أسوأ عندما قرّرت أن تستبدل تاريخ المنهج بتاريخك!». أيُّ تاريخ قرّرتُ يا تُرَى بديلاً للتاريخ المقرر؟ أيُعقل أن يكون سرد نبذة من تاريخ هيرودوت عن أسلوب حياة قبائل ليبيا القديمة، أو الاستشهاد



بنصوص تيتوس ليبيوس، أو تاسيتوس، أو سالوستي، أو ديودور الصِّقلّي، أو غيرهم من الأسماء بقصد البرهنة على صواب وجهة نظر في قضيةٍ مّا، من قبيل الاستهتار بالمنهج الذي تفتّقت عنه عبقريّة **حفنة من ضبّاط الجيش؟**

حاولتُ أن أستعيد مثل هذه الوقفات الجانبيّة التي تبدو لي إلى اليوم مجرّد جُمل اعتراضيّة لتأكيد هذه الواقعة أو تلك أو لمنح هذا النصّ أو ذاك عمقاً ضرورياً فوجدتها من وجهة نظر هذه العقلية التي يتبناها الأب الآن لا تُغتَفر! هل قلت لا تغتفر؟ بلى! إنها منكرة إذا قِسْناها بالمنطق السّائد الذي يتحدّث عنه الأب، بل وجديرة بأنّ تضعني في موقف المساءلة القانونية حقّاً. فالواقع أني لم أتجاهل المنهج الذي حسبته **جنونياً**، ولكني استبعدته على نحوٍ ما. احتلت عليه لألقّن الجيل الدرس الأنفع. لم أستبعد الهُراء المبثوث في المنهج تماماً، ولكني عرفت كيف أخترقه اختراقاً لأعبره إلى الضفّة الأخرى! لأعبره إلى رحاب المتعة وفراديس الأوائل **حيث تسود الأمثولة وتُهيمن الحقيقة**. ولكن هل تكتب الأمم التاريخ للأجيال لكي تنتصر للحقيقة؟ كلا بالطبع! الأمم (سيّما أُمَمُنا التي لم تتحرّر بعد من الأسر) تلقّن الأجيال التاريخ لكي تمرّر الأكذوبة! وإذا كنتُ أعي ذلك من الواقع البائس الذي عشناه إلاّ أني لم أستطع

أن أبتلع الابتذال! لم أستطع أن أقبل بقَدَر الببغاء الذي عليه أن يردّد جُمَلاً (مجرّد جُمَل) سخيفة بل ومضحكة كأن نُلغي ثورة «**يوغرتن**» ضدّ روما القديمة، أو ثورة **المختار** ضد روما الحديثة، لنُحِلّ محلها الثورة السنديانية، أو بطولات موغابي المزعومة!

يومها سرحتُ قليلاً إلى أن أعادني الوالد إلى الواقع عندما عنّفني قائلاً إن عليّ ألاّ أنسى ما كلّفه تعييني في هذه الوظيفة بعد بطالة كادت تؤدّي إلى تعفّن عقلي وجسدي معاً لو لم تُنجدني (الوظيفة) في الوقت المناسب. وكان في مرافعته على صواب، لأني كنت قد توقفت عن البحث عن عمل منذ وقتٍ بعيد، منذ أعوام، عندما زفّ لي بُشرَى الحصول على عمل أخيراً. أضاف يومها قائلاً إن الأمر لم يكن ليكون بهذه الأهميّة التي تستدعي القلق لو تعلّق بالفصل من العمل. ولكن في واقعٍ كواقعنا تُهمة كهذه يمكن أن تجرّ متاعب جمّة لا على صاحب الشأن وحده، ولكن على العائلة أيضاً وربّما على الأقارب كذلك. لم أفهم عبارته يومها كما يجب أن تُفهَم، وكان عليّ أن أنتظر الأسابيع، بل الشهور كي أتذكّرها، ولكن بعد زوال صلاحيّتها بسبب فوات الأوان. ففي أحد الأيام، بعد الخروج من الفصل، تقدّم مني شابٌ نحيل يرتدي زيّاً يكاد يكون أسمالاً،

فيعطي الانطباع بالانتماء إلى جيل الضياع الذي قاده اليأس من كل شيء إلى أحضان الإدمان: إدمان المخدرات، وإدمان اللامبالاة، وإدمان إضاعة الوقت. استأذنني بكلمة على انفراد، وعندما استجبت واجتزنا الممرّ المؤدي إلى الفناء، قال لي بصوتٍ مكتوم إني مكلّف بمرافقته إلى المقرّ الذي لا يبعد مسافة طويلة للإجابة على بعض الأسئلة. أسئلة؟ أية أسئلة؟ أسئلة ذات علاقة بالمنهج! حدجته بنظرة استفهام، ولكنه واجهني ببرودٍ يفضح تحدّياً غريباً، تحدّياً مريباً لم يتقنه أحد في الدنيا كما أتقنه رجال الأمن السرّي الذين يعتقدون أنهم الملة الوحيدة المخوّلة بامتلاك هذا الفن، بامتلاك هذا الحقّ! لماذا؟ ربّما ليقينهم بأنهم إذا استطاعوا أن يحوّلوا الاستسرار إلى وظيفة دنيوية فهم الأقدر، بل والأحقّ، بامتلاك الحقيقة التي لن تكون هنا سوى روح هذا العالم الفاني. وامتلاك روح العالم لن يعني سوى امتلاك روح كل مخلوق فانٍ في هذا العالم الفاني، برغم أنهم وحدهم الخالدون أبداً. وليس غريباً على من عَرَفهم مرّة أن يلمس في تصرّفاتهم هذا اليقين، لأني لم أكن لأقول هذا لو لم يشاركني فيه كل من عرفت من أقرباء أو قرناء أو زملاء. هذه إذاً ساعة الحساب التي دفعها الكثيرون ممّن عرفت قبلي، وعرفها حتى الأب، وعرفها كلُّ من دبّ على هذه الأرض؛ وها هو يجيء دوري لأعرفها أيضاً، لأنها في

واقعنا **المُكوس** الواجب دفعها عاجلاً أو آجلاً، بسببٍ ، وبلا سبب! كل ما أرجوه هو ألاّ تستغرق المساءلة طويلاً، لأني في عجلةٍ من أمري ! هذا ما أعلنتُه ببراءة، وقد أدركت على الفور أني اقترفت خطيئة، لأن نظرة الإستخفاف التي أومأتْ بها ملامحه كانت تقول إننا كلنا في عجلةٍ من أمرنا، ولكن هيهات أن نملك أمرنا!

هل توقّعت أن يتحوّل ذلك المشوار دوّامـةً، بل كابوساً، يلاحقني إلى ما لا نهاية؟ لا بالطبع. ولو خمّنت لما تردّدت في أن أفعل ما عاهدت نفسي ألاّ أفعله مهما حدث برغم أن الأكثرية من جيلي فعلته، وهو **الفرار من ربوع البلاد**. الفرار إلى أبعد مكان، أيِّ مكان. ففي كل مرّةٍ ينتصب فيها أمامي هذا السؤال كنت أواجهه باستنكار: بأيِّ حقٍّ أستبدل أرضاً هي امتدادٌ لجسدي كأرض ، ووعاءٌ لوجداني كروح ، لأسرح في الأرض بحثاً عن وطنٍ في أرض الأغراب؟ أيُّ قوة تُجبرني على فعل هذا مادمت لم أبح لنفسي ارتكاب جرمٍ في حق الوطن حتى في الخيال؟

ولكن تجربة **الدوّامة** هرعت لنجدتي بحلٍّ لأحجيةِ هذا المنكر! فما فهمتُه من مسلسل الاستجواب مع مختلف الأجهزة أن صاحب الشأن لا يبرّر لنفسه وللدنيا القيام بهذه الخطوة (الدفع إلى المنافي) إلاّ بعد أن يروّج جيداً لأكذوبةٍ يمكن أن

نسمّيها «**تماهي النظام بالوطن كمفهوم**». هل خَذَلَنِي التعبير؟ أعترف أن التعبير كان نقطة ضعفي دوماً. ربّما لأني لم أجرب التعبير عن أفكاري كتابة، وربّما بسبب الخجل الذي يتلبّسُني كلما دخلت في جدلٍ مع أقراني، أو حتى مع أقربائي. الخجل من إبداء رأي. أو فلنقل الخجل من التعصُّب لرأي. لأن الحماس في الدفاع عن رأي هو الخطوة الأولى في طريق التعصُّب للرأي. والتعصّب لأيِّ رأيٍ غباء مادُمنا لن نضمن أن نتخلّى عنه غداً! وقد اكتشفت أني لم أعتنق يوماً رأياً إلاّ لأتخلى عنه تالياً! وهكذا فقدتُ الثقة بالآراء لأني لم أجادِل يوماً لأُقنع أحداً، ولكن لأقنع نفسي، أي أني أجادل **لأفهم نفسي**، وأفضل طريقة لفهم النفس ليس المجادلة بالصوت العالي، ولكن بالاختلاء مع النفس ومساءلتها في عُزلة . وهو ما يُكسب العمق ولكنه لا يضمن خسارة اللسان، لا يضمن أن ننسى التعبير عندما نستنجد باللسان. وبرغم كل شيء إلا أني لا أملك حيلةً أنسب من التعبير عن طبيعة ما حدث لنا غير ما عبّرت. فالمهيمن لا يستجوبنا، ولا ينكّل بنا، انطلاقاً من شهوته إلى السلطة، ولكن من خلال **الإقناع**. من خلال إقناعنا بأنه لا يفعل بنا ما يفعل إلا حرصاً على الوطن، حبّاً بالوطن، وخوفاً على الوطن. خوفاً عليه ممّن؟ خوفاً عليه **منّا!**

زيـارة مقرّ تلك الإدارة كانت رحلةً طفت بـها أركـان كل الأجهزة الأمنية التـي يمكن أن تتفتّق عنـها عبقرية بشر: **الأمن الداخلي. الأمن الخارجي. الاستخبارات العسكرية.** ثم.. **اللجان سيئة السمعة!** وهو سُلّمٌ كله صاحب **اختصاص** كما قيل لـي! أستطيع أن أفـهم إلـى اليوم كما فـهمت بـالأمس علاقة اللـجان بوصفها حـامي حمى عقيدة الدولـة، ولكن ما دخل جـهاز كالأمن الداخلي بمسألة ذات علاقة بالمنـاهج التعليمية؟! ولكن المنـاهج في مرحلةٍ مّا يمكن أن تشكّل خطراً على الأمن الداخلي كما قيل لـي في الاستجواب. وما يُقـال عن الأمن في شقّه الداخلي ينطبق على الأمن في جناحه الخـارجي. العبث بعقل الجيل البديل مسألةٌ تمسّ صُلب أمن البلاد الخـارجي أيضـاً! فلنفترض صواب الرأي، ولنعتبره حرصـاً. ولكن.. مـاذا بشأن استخبـارات العسكر؟! لقد فوجئت بـأن الحُجّة هنـا كانت أقوى من كل الحُجَج، لا لشيء إلا لأني نسيت أن طـائفة مؤلّفي المنـهج ليست سوى ضبـاط الجيش! وأعترف أن الاستجواب في دائرتـهم كان أهون الاستجوابات على الإطلاق. فبعد أن انتهى المحقّق من طرح أسئلته ليدوّن أجوبتي بمساعدة أحد العسكر مَـالَ نحوي ليسرّ فـي أذنـي بكلمة قرأتها مديحـاً لا يُنـاسب الموقف، ولا خطورة المسألة. فقد صارحني بـإعجابه



بمرافعتي وموسوعيّة ثقافتي (بلى! بلى! هكذا عبر حرفيّاً)، ثم أضاف إنه يوافقني في كل ما قلت بشأن عدم وجود ضرر في **أن نعرف كل شيء عن ماضينا ما لم يُبلبل عقل الجيل الهشّ!** ولكنه ما لبث أن استوقفني عند الخروج ليطرح سؤالاً من باب الفضول كما عبّر. فبالنظر إلى الإجراءات الاستثنائية الصارمة المتّخذة ضدّ تداول **سلعة معادية كالكتاب** يُصبح حيازتي لهذا الكمّ المهول من الكتب التي استشهدت بها، والتي لم أجد حرجاً في أن أعترف جهاراً بقراءتها، تُهمة تفوق تُهمة الاستخفاف بالمنهج بما لا يقاس! أعقب ملاحظته بضحكة مكتومة، ولكنها شرّيرة بما يكفي كي أجد نفسي في اليوم التالي محروماً من جديد من **صَلاتي**. فقد استلمت رسالة توقيفي عن العمل إلى أجلٍ غير مسمى! وعندما استفسرت من المدير عن هذا الأجل غير المُسمّى رمقني بسخرية ثمّ هزّ رأسه أسفاً دون أن ينبس كأنّ سؤالي لفرط غبائه ليس جديراً بالجواب.

٩

كثيراً ما يستهويني تأمُل المفارقات: أليس مفارقةً أن الكلمة الأولى في سياسة التجهيل قيلت تنفيذاً لسياسة باسم «الثورة الثقافية»؟ أوَليس مفارقةً أخرى أن يرجع الفضل في تثقيفي (إن جاز التعبير) إلى سياسة التجهيل نفسها التي أُحْرِقَتْ فيها أجرام الثقافة وهي الكتب؟ أليس عملاً من قبيل سخرية القدر (التي نسمّيها مفارقة) أن تقوم لجان «تطهير المجتمع» بتكليف أبي بإتلاف كنوز المركز الثقافي بالمدينة ليرأف بحالها (كما رأف الراعي بحال أوديب وهو بعد في المهد صبيّ كما أنبأتني هذه الكتب نفسها) لا ليقرأها أو ليحتفظ بها مكتبة في بيته، ولكن لأنه لم يجد جسماً أثقل وزناً من صناديق الكتب ليسدّ بها فوهة بابٍ جانبيّ يؤدّي إلى المخزن مُرجِئاً أمر التخلّص منها إلى حين لم يحن أبداً؟! أليس مفارقة (أو فلنقل سخرية أقدار مرة أخرى) أن يكون أتفه سببٍ يمكن أن يخطر على بال إنسان هو السرّ الذي أنقذ من الضياع إنساناً؟ فتلك الثروة التي نسيها الأب مع مرور الزمن هي الغنيمة التي صارت مرتعاً خصباً لذرّيته فأجارت خليفته من اغترابٍ كان قدر جيله: اغتراب عن ماضٍ عريق، اغترابٌ عن وطنٍ مجيد، اغترابٌ عن هويّة، اغترابٌ عن حقيقة، اغترابٌ عن ذات؟



يقيناً أن تلك الثروة لم تكن لتكون الكنز الأخير الذي أطعم شهيّتي كفأرِ محترف، ولكنها كانت بمثابة الطُّعْم الذي أشعل نار شهيّتي في ما تلا تلك المرحلة العصيبة لا على مستوى اقتناء الكتب فقط ، ولكن العصيبة على كل مستوى! فما أن ترعرعتُ واكتشفت خواء مكتبات البلاد حتى سافرتُ لأستجير بجارة الشرق الكبرى التي كانت عبر التاريخ منارة كتاب. فكنت أسافر برّاً لرحابها لأعود من مكتباتها بمؤونةٍ كافيةٍ لإنعاش الروح طويلاً. أمّا جارة الغرب فقد حللت بها أيضاً مِراراً، ولكني لم أعثر فيها على ما يُمكن أن يشفي الغليل. عسس الحدود؟ أحراس الجمارك؟ رجال الأمن المتنكّرين في ثياب المدنيين؟ كل هؤلاء نفاية لمن قرّر تهريب كتاب. كل التدابير هُراء إذا انتصب في وجهها التّصميم! أبْلهٌ من ظنّ أنه يستطيع أن يُصادر كتاباً ! أن يُصادر إرادةً ! كم أشفق على محقّق أمن العسكر الذي حيّره حصول أمثالي على الكتاب! لا يعلم الشقيّ أنّ اللص قدر الكنز!

في ذلك اليوم بدأ طَوْرٌ آخر من الاغتراب. عدت أدراجي لأنكفئ على نفسي كما اعتدت أن أفعل قبل الحصول على العمل . نزلتُ ضيفاً معزّزاً على بستاني، بستان الكتب، فأحسن استقبالي وأحاطني بالمراسم التي عزّتني في محنتي وإن لم

تُنسِني اغترابي. انسحبت من خشبة المسرح وعدت إلى المقاعد الخلفية لألعب دور المُشاهد بعد أن جرّبت لعب دور المشارك. عدت مقتنعاً كل الاقتناع بعدم صلاحيّتي للعب أيّ دورٍ على هذه الخشبة التي يتسابق (بل ويتقاتل الكل) طمعاً في الحصول على فرصة للعب دور (أتفه دور) في ملهاتها الإنسانية ! وكم تبدو الخشبة مضحكةً. من موقع من يُشاهد! وكم يتبدّى الممثلون أشباحاً مثيرين للشفقة من موقع المشاهد! كم تبدو الخشبة دميةً باطلة إذا قورنت بموقع المُشاهد! كم تبدو تقليداً ركيكاً في نظر من يُشاهد بقدر ما يبدو المُشاهد ظلاً، شبحاً، خيالاً، في نظر من يلعب الدور مبهوراً بالأضواء! معميّاً، مُضلّلاً بالأضواء! إنه الجدل الخالد المحتدّ بين الحضور والغيوب: نحن نرى الأموات أشباحاً، ظِلالاً، ويرانا الأموات بُهتاناً، ظِلالاً برغم أوزاننا التي تُثقِل كاهل الأرض!

وإذا كنت قد رأيت الخشبة كلها **باطل أباطيل**، فكيف يتراءى لمُشاهدٍ مثلي ركنها القصيّ، الضئيل، والمظلم، الذي يمثّله وطني الشقيّ، مكتوم الأنفاس، المُغيَّب بقبضة **أكثر القوى فروسيةً في إبداع الهزل؟** وسوف لن أفلح في التعبير عن فنون هذا الهزل حتى لو أُلهمت عبقرية هوميروس أو أينشتاين! أقول هذا بالرغم أني لم أترعرع إلاّ في هذه الأجواء

الموبوءة بروح عبثٍ فاق كل ما قرأته في الكتب عن صَرعاتَ كاليغولا أو جنون نيرون. ولا أعتقد أن أجناس السفساف التي شاهدها جيلي يمكن أن تستمرّ عقوداً كاملة لو لم تكن طبيعة أصيلة في دنيانا؛ وأنواع السُّخف لم تكن سوى محاكاة لها، أو تعبير رديء عنها. **فبعد سلسلة ثريّة من التقاليع المبتكرة (والمستنكرة عقلياً ومنطقياً) والتي طالت شرورها كل أركان كرتنا الأرضيّة المسكينة، تبلغ اللَّوثة ذروتها بالدعوة القاضية بضرورة استبدال الشعب!** هل تظنّون أنّها زلّة لسان؟ كلاّ! تلك كانت سابقة تاريخية جديرة باحتلال مكانة بارزة في سيرة العبث! والذريعة؟ الذريعة المُعلنَة هي عدم صلاحيّة أرض الوطن لسكن أبناء الوطن! بأيٍّ سبب؟ السبب هو: الملح! الملح؟ بلى! الملح! أرض البلاد التي أطعمت أمم الأرض من جوعٍ عبر التاريخ، وآمنتهم من خوف عبر التاريخ، تتكشّف فجأة عن رقعة هائلة لا تُنبت زروعاً ولا تحوي كنوزاً، ولا تنفع لمقامٍ بسبب سبخة الملح التي لا وجود لها إلا في عقل صاحب هذه الدعوة الجنونيّة! فهل هو الملل، أم الظمأ إلى الهزل الذي لا بُدّ أن يستشرس في وجدان كل صاحب سلطان لم يحدث أن اعترضت رغباته عقبة؟ والمأساة هي ألا تقف المهزلة عند حدود الثرثرة اليومية المعهودة في وسائل الاتصال، ولكن

أن تُفتَح خزائن بيت المال وتتدفّق الثروات السخيّة التي حُرِم منها الناس، لوضع هذه **النكتة الشرّيرة** موضع التنفيذ! وها هي اللجان تتشكل، وها هم اللصوص يعقدون الاجتماعات المشبوهة لتحويل الكلمة الأخيرة في **معجم العبث** إلى صفقة تجارية جديدة تدرّ على مثل هذه العصابات الأموال المهدورة في المشاريع الجنونية منذ بداية الفصل الأول في المسرحية.

وفودٌ تُغادر إلى كل القارات لبحث تفاصيل استقبال حصّتها من الغنيمة الغريبة: **غنيمةُ شعبٍ يُرَحّل من أرضه بنزوة وليّ أمر الشعب!** شعبٌ تعرف كل الشعوب أنه يحيا في أسخى أرض وأكثر أوطان الدنيا ثراءً، لا لشيء، إلاّ لأن هذا الشعب لم يَعدْ يروق لمزاج المخلوق القائم على أمره فقرر أن **يستبدله** بشعبٍ آخر أطوع خُلُقَاً رغم أنف شهادات الأمم التي أجمعت فقالت في شهاداتها إنه **أطوع الأمم.** لم يتوقف الأمر عند حدّ البحث للشعب الطريد عن مأوى، ولكن وفود اللصوص الخبيرة في عقد الصفقات طافت أركان الدنيا بحثاً عن **الشعب البديل** الذي سيحلّ مكان الشعب الشريد! استُجْلب الخبراء من كل الأنحاء لوضع الخطط ورسم خارطة المشاريع التي ستكون نواة لازدهار الأمّة الجديدة، في وطنها الجديد، في ربوع فردوسها الجديد!

هل أصبتكم بالغثيان كما أُصِبتُ به عند سماعي السيرة أول مرة؟ أم أنكم أصبتم بنوبة ضحك منكرة كما أصيب بعض أقراني وجلّ أفراد الأهل؟ كم أحسد أولئك الذين يتمتعون بروح السخرية فتُضحِكهم مثل هذه الصرعات بدل أن تُبكيهم! ذلك أن حياة واحدة لا تكفي لتحمّل وزرٍ يبدو كابوساً في بُعده **كفكرة**، فكيف إذا انقلبت هذه الفكرة **علناً**، ثم **عملاً** أيضاً بعد العلن؟

كنت ألعن نفسي كلما انسلخت عن كتبي وخرجت إلى دنيا الناس. فلم يحدث أن خرجت من خلوتي مرة إلا وعدت إليها نادماً، هارباً، جريحاً! كنت أحبس نفسي في حجرتي أياماً. ولكني كنت أضّطرّ للخروج لا فضولاً للقاء الناس، ولكن حنيناً إلى أمّي الأولى: **الطبيعة!** أذهب إلى البحر، مريدي البحر. ومن حُسن حظّي أنه مهجورٌ دوماً! مهجور لأنه جاور قوماً يعشقون الصحراء، ولا يحبّون معشوق الصحراء: البحر! إنهم مشرئبّون دوماً نحو الوراء، نحو الخلاء الأبدي المغمور بالسراب عند الأفق، مولّين خلاء المياه الزرقاء ظهورهم! كان البحر ترياقي منذ عرفت البحر، منذ اكتشفت البحر. كان سرّي، أو فلأقل: كان معبودي السرّي! ولكن البليّة أني لا بد أن ألتقي أحداً في طريقي إلى البحر، أو في طريق عودتي من البحر. أحد زملاء الدراسة، أو أحد زملاء التدريس، أو أحد الجيران، أو أحد المعارف. وهذا

الـ «أحد» لا بد أن يُخفي في قلبه جهازاً إعلامياً يُخبرني بما لم أشأ أبداً أن أُخبَر. وأكثر الأخبار تداولاً بالطبع هو آخر كلمة قيلت في سلسلة **النكات الشريرة** التي لا تنتهي! والأسوأ من القول هو أنها لا تلبث أن تأخذ طريقها إلى التنفيذ على الفور لتستنهض همم الأبرياء، وتتبلبل أرواح الأشقياء، وتعمّ الفوضى الأنحاء، ليجني اللصوص وحدهم فاكهة **التقليعة الجديدة!**

أعود إلى البيت أيضاً بنصيبي من البلبال! هذا البلبال المجبول بأرذل أنواع البلبلة صار طعام الكل اليومي. **قوتنا المسموم اليومي.** قوت مسموم، ولكنه فريضة، لأنه المكوس المستوجبة على كل من متّ بصلة لهذه الأرض الطيبة في عطائها، ولكنها الأشقى من بين كل أركان الأرض في **أولياء أمرها!** وليّ الأمر هو لعنتها التاريخية! كأن اللعنة قصاصٌ على خطيئة جسيمة غامضة اقترفها السلف في القديم، ليجني ثمارها الخلف اليوم!

لم يبقَ إلا **انتظار الموت**، ولكنه انتظارٌ كان يمكن أن يكون موتاً أمرّ من الموت، لولا وجود الكتب!

١٠

يوم زلزلت الأرض زلزالها لا أعرف كيف وجدت نفسي في الساحة، ولكن عزائي كان في اكتشافي حال الأقران الذين التأموا في الميدان دون أن يعرفوا كيف أيضاً. لم نعرف جميعنا كيف، ولكنّنا كنّا نعرف يقيناً لماذا! فرسان الإعلام سيتبارون في وصف الحدث، وسوف يتفنّنون في استخدام التعبير كأن يقولوا على سبيل المثال: «صحوة بعد سباتٍ عميق»، أو «انتفاضة الأمل من جيل اللاّأمل»، أو «فاتورة حساب الأحلام القتيلة»، أو أية عناوين أخرى من هذا القبيل (وهي عناوين أذكر أني قرأت مثيلها في بعض الوسائل الإخبارية)، ولكن الحقيقة أن لا أحد يومها فكّر في تحديد هوية منطقية لما حدث. كل ما هنالك أننا خرجنا لنلتئم في الخارج تلبيةً لحاجة لم نعد نملك لكبتها حيلة، ولا للتعبير عنها لساناً . حاجةٌ أقوى من كل شيء. حاجةٌ أقوى من المنطق، ومن الإرادة، ومن الغريزة أيضاً. ضربٌ من جنون؟ **غيابٌ في غيوب غيبوبة؟** أم أن هذا هو ما قرأت عنه في الكتب باسم «نداء الحرية»؟ لا أدري. لا أدري. لأني لم أكتشف عجز اللغة التي راق لي أن أتباهى بها دوماً كما اكتشفت يومها. لم تخذلني وحدها، ولكن خذلني المنطق. خذلتني المعرفة. خذلتني الكتب التي راهنتُ عليها وكانت لي

لا رصيد الحياة فقط، ولكن معنى الحياة! يومها فقط أدركت أن الحياة لغزٌ أعظم شأناً بكثير ممّا ظننت، والإنسان فيها أحجية أخرى نفيسة وغامضة، بل أكثر غموضاً ممّا هيّأ لي عقلي الذي راهنتُ عليه. ويبدو أن الأحداث التي سبقت الزلزلة قد لعبت دوراً في بعثنا، أو اكتشافنا المفاجئ لأنفسنا على النحو الذي شهده ميدان المحكمة بالمدينة في ذلك اليوم. لقد تابعنا زلزلة جارة الغرب بلا مبالاةٍ تليق بجيل اللاّمبالاة، أو ما ظننّاه لا مبالاةً، ثم تابعنا بذهول انهيار هرم الدّهر في جارة المشرق. ولكن الذهول لم يزدنا إلاّ يقيناً باللاّجدوى، برغم.. برغم ماذا بالضبط؟ برغم الجرثومة. جرثومة؟ جرثومة شك!. شكٌّ خجولٌ لم يكن أحد ليعوّل عليه كثيراً، ولكن فضيلته كانت في استزراعه بذرة سؤالٍ في صيغة تعجُّب: «هل يمكن تصديق هذا؟ أيعقل أن تصرع البعوضة جرماً بحجم الفيل؟ إذا سلّمنا بحدوث ما حدث، أفلن يعني هذا التسليم عدم وجود مستحيل، والمعجزة في متناول اليد؟ ألا يعني صواب الوصية القائلة إننا لا نهلك إلا بما نستهين؟». ثم.. فجأة، قبل أن نستيقظ من دوار الأسئلة، صحونا في صباح أحد الأيام على حريق حاضرة شرقنا التليد، شرقنا الجريح، شرقنا المجبول بنزيفٍ ظالم تمثل في حصارٍ غير معلن، مميتٍ، استمرّ منذ أعوام، فلم

يكن غريباً أبداً أن تنطلق الشرارة من هناك: من **بنغازي!**

كنا نتابع الأنباء في الفضائيات، في الإذاعات، في الشبكة الدنيويّة التي لا تخفى عليها خافية، بالهواتف، وفي ألسنة شهود العيان. نتابع دون أن نصدق، ولكن لم يكن أمامنا إلا أن نصدّق عندما شاهدنا بأعيننا **نزيف الدّم!**

شاهدنا نزيف الدم فنزفنا كما لم ننزف يوماً! وعندما بلغتنا أنباء أولى البطولات، عندما صنع «زيّو» من جسده صليباً دمّر به ثكنة المعسكر ليحوّل نفسه القربان الذي فتح الطريق للأمّة العزلاء كي تستولي على أداة الدفاع عن النفس، **لم نعد نحتمل.** انتفضنا دون أن ندري. لم ننتفض بالمعنى السياسي لهذه الكلمة المقدّسة التي دنّسها الاستخدام التقليدي المبتذل من قبل وسائل الإعلام ، ولكننا انتفضنا بالمعنى الحرفيّ. انتفضنا بالمعنى الحسّي كما ينتفض إنسانٌ لدغته حيّة ! أعترف أني لم أستشعر بحقيقة هذه الكلمة إلا في ذلك اليوم. كما لم أدرك في دنياي رمزاً أقوى من الرمز الذي ألهمني به بطل حاضرة الشرق «**زيّو**» يومها: لقد رأيت في عمله ثأراً لكل الأعمار التي أهدرتها الراية الخضراء، وانتقاماً لكل الضحايا الذين سقطوا في ظلمات ذاك الدهلين، و.. **وفتحاً! وفتحاً** ليس لبوّابة معسكر لواء السوء، ولكنه فتْحٌ لطريق

الحنين الأبديّ الذي غيّبته الشعارات الميتة عن جيلنا كل هذه السنين، **الطريق إلى الحرية!**

كان الاكتشاف مزعزعاً، برغم تواضع اللمّة. برغم ضآلة الحشد، ولكنّه برغم ذلك كان كافياً لإنزال الرعب في نفس **البعبع!** ربّما بسبب وضوح **البيان**، و.. صراحة **الرسالة!** هل قلت رسالة؟ بلى. **الخروج** كان رسالة. رسالة بإبراز **فاتورة الحساب.** الحساب؟ **حساب الأحلام القتيلة!** هل تنازلت فاستخدمت لغة وسائل إعلام عدَدتُها دوماً قرين ابتذال؟ فليكن! فاتورة حساب الأحلام القتيلة. بلى! فالعبرة في لهجة التعبير، بحضور التعبير في الإشارة، لا في العبارة!

من حنجرةٍ ما انطلق هتاف. تردّد مرة، مرتين، قبل أن يستجيب الجمع ويرفع عقيرته بالهتاف. ولكن الهتاف بدأ يتضعضع ربما بسبب غياب.. غياب ماذا؟ غياب خطّة؟ غياب غاية؟ غياب رؤية؟ غياب دليل؟ غياب ترجمان لتحرير النوايا؟ لا أدري. ولا أظن أن أحداً يومها كان يدري. ولكن ما يدريه الكل هو ما أعجز اللسان عن التعبير، لأنه كان أكبر من أن يسعه التعبير. ولكن عندما هتف أحد الأصوات: «**إلى المحكمة!**» لبّى الجميع النداء. انطلقت المسيرة في الطريق المؤدّي إلى **المحكمة**، إلى بنيان مجمّع المحاكم ، إلى الميدان

حيث تنتصب الأنصاب المعدّة لإقرار العدالة، ولكنها **ظلّت خاوية من العدالة!** كأنها تنتظر اليوم الذي سيُفيق فيه الناس من سُباتهم ليقيموا لها العدالة، ليعيدوا لها العدالةالضائعة ، تماماً كما حدث في حصن النزيف الأوّل (الملقّب في معجم الكابوس بـ «البيان الأوّل» كأنّ سخرية الأقدار أبت إلا أن تصير هذه المرة «شرارةً أولى» حقاً لتبرّر اسمها على النحو الذي لم يكن ليروق أبداً للكابوس). ففي حاضرة المنافي في الشرق ، المغسولة بالدم، المجبولة بالألم، كانت الانطلاقة الأولى أيضاً نحو ميدان المحاكم . نحو مجمّع المحاكم، للاحتجاج على اعتقال مريد العدالة، محامي أهالي ضحايا المذبحة التاريخية التي تقشعرّ لها الأبدان . الشرارة الأولى أيضاً انطلقت من زند المسيرة المتّجهة إلى صومعة المحاكم. **المحاكم الناعية منذ عقود فحوى المحاكم.** الناعية غياب العدالة، والمنتظرة استعادة روح المحاكم، المنتظرة عدالةً تبرّر وجود المحاكم. المنتظرة عودة العدالة المغتربة إلى بيتها، وطرد العدالة المزوّرة التي تلبّست الهيكل طويلاً!

وكما حدث في مسيرة الشرارة (بنغازي) المتجهة إلى ميدان المحاكم، حدث في مسيرة «ذات الرمال» التي لم تخرج إلا ثأراً لها: قدح القدر زنده فانبثقت الشرارة التي أطلقت الحريق .

انطلقت الرصاصة من فوهة الكابوس لينبثق النزيف ! سال الدم، وسقط أول **شهيد.** سقط الشهيد فوجد القدر الحُجّة ليقول كلمته. لأن.. لأن **حُكم القَدر كان منذ الأزل رهين النزيف!**

١١

عرفت الشهيد زمن التدريب. التدريب العسكري العام. وهو تلك الصيغة المهذّبة من حملات المداهمات الإرهابية المنظّمة التي شنّها ائتلاف ما سمّي يوماً بـ «**القوى الثورية**» على البيوت والمؤسّسات والمدارس والجامعات للقبض على الشباب والزجّ بهم كالقطعان في المعسكرات لتأدية «واجب الخدمة الإلزامية» بالقوّة، وكان من نتيجتها أن تشتّت شمل جيل المستقبل و شدّ الآفاق إلى كل حدبٍ وصوب لا فراراً من تأدية واجب تدريب في سبيل الدفاع عن الوطن، ولكن فراراً من إرهابٍ يجمع أبناء الجيل بقوة السلاح ليزجّ بهم في معسكراتٍ كالبهائم لا لتدريبهم على حمل السلاح، ولكن تمهيداً لشحنهم إلى أوطان المجهول ليشاركوا في حروبٍ لا ناقة لهم فيها ولا جمل مثل أوغندا، أو تشاد، أو لبنان، أو جُزر الشيطان!

فرّ أبناء الجيل إلى أبعد الأركان حتى خلت البلاد من الأبناء، فتنازلت عبقريّة الزعيم عن بعض كبريائها لترتضي على مضض صيغة ميسّرة للتدريب العسكري تستقطع من وقت المتدرّب شهراً كل عام مع الاحتفاظ بحقّ ممارسة كل صنوف العنف التي يتطلّبها أيُّ تدريبٍ عكسريّ. بموجب هذه الصفقة التحقنا بالمعسكرات أفواجاً لنقضي في تلك البُؤَر الكريهة

شهراً كاملاً نفقد فيه آدميّتنا ونستعيد فيه بدائيّتنا، حيوانيّتنا، همجيّتنا أي **لا إنسانيتنا**. وقد ابتُلينا منذ أول يومٍ بمدرّبَين اثنين: أحدهما يبدو حالماً، غائباً عن الدنيا، وثانيهما مخلوقٌ مستعارٌ لتوّه من مملكة جهنّم ! وإذا كانت خصلة المدرّب الأوّل النسيان، فإن خصلة الثاني البطش! ويبدو أن اللعنة التي تسكن مثل هذه الأوكار لها القدرة على تحويل المزايا رذائل بدليل أن نسيان المدرّب الأوّل وحضوره في دنيا الأحلام سُرعان ما انقلب بالنسبة لنا شرّاً أيضاً بدل أن يكون بلسماً يعزّي في ممارسات قرينه وهوسه بالتنكيل . فها هو صاحب الأحلام (الذي راق لنا أن نلقّبه باسم «السارح» تيمّناً برعاة الأنعام) يلقي لنا بأمرٍ أثناء غيبوبته في أحلامه الأبدية، فإذا امتثلنا وقمنا بتنفيذ الأمر، قلب لنا ظهر المجنّ على الفور مدّعياً أنه أمر بالعكس وقمنا بعصيان الأمر من باب النكاية، ليجد بذلك المبرّر لاستنزال صنوف التذنيب بحقّنا ! أمّا الثاني، الفائز بلقب «الباشا» من قِبَل عصبتنا، فقصاصٌ يدبُّ على قدمين ! وعلّ أسوأ ما تفتّقت عنه عبقريته هو: **الأشراك!** أو نصب أنواع الفخاخ التي لم ينجُ منها أثناء التدريب أحد . وقد عرفتُ الفقيد «خالد» بفضل الوقوع في أحد هذه الفخاخ التي اعتاد الوغد أن يُحسن إخفاءها في طريقنا أثناء التدريب ، وكان

نصيبي السقوط في جوف.. بالوعة! بلى! بلى! بالوعة حقيقيّة ملآنة بمياه المجاري! فقد كان اللئيم يأخذنا في جولاتٍ عبر الحقول المجاورة، أو على خلوات ساحل البحر، يسمّيها «نزهة المحارب» من باب السُّخرية، كي يتسنّى له أن يتفنّن في نصب أشراكه في مثل هذه الفلوات! ولم يكن يكتفي بالطبع بهذا الإنجاز، ولكنه دأب منذ أول يوم على استفزازنا بأرذل سِبَابٍ حتى إذا ارتوى، شَرَعَ في تحقيرنا بخُطَب مخجلة مستعارة من معاجم الرِّعاع واعداً باقتراب الساعة التي سيرانا فيها نفايات في قبضات أبطال الأمم المجاورة ! وهو موّالٌ آخر صدّع به رؤوسنا منذ أوّل يوم إلى حدٍّ أيقنّا فيه بإصابته بعُصَاب إسمه «خطر الأمم المجاورة»! وهي سيرة تراءت لنا خطاباً مناوئاً لخطاب الزعيم التقليدي الشائع عن «**قطار الموت المنتظر**» الذي سيأتي من ما وراء البحار، في حين روّج «الباشا» لقطارٍ آخر مهدّداً بِلا انقطاع بوصوله من أوطان الجوار الجائعة ! وبلغ هوسه بهذا القطار (أو الخطر) حدّاً سمح فيه لنفسه بتسفيه القطار الآخر الذي رّوج له الزعيم واعداً بوصوله من ما وراء البحور ! حدث ذلك عندما وجّه له أحد خُبثاء المتدرّبين سؤالاً حول **القطارين**: أيُّهما أخطر، وأيهما نصدّق، وإلى أين نلتفت، لأننا سوف نترك ظهورنا عاريةً وغنيمةً لعدوٍّ سيُقبِل

من ما وراء البحور فيما إذا استجبنا لوصيّته وضربنا بوصيّة الزعيم عرض الحائط ، في حين أننا سنؤخذ على حين غرّة أيضاً إذا استجبنا لوصيّة الزعيم وكفرنا بوصّيته هو. يومها بلغ به الحُمق حدّاً جعلنا نؤمن بأنه ليس مهووساً فقط ، ولكن يقيناً به لوثة جنون أيضاً ! وها هو يعلن أمام الملأ أن «**قطار الموت**» الذي يروّج له الزعيم هُراءٌ في هراء، ولكن الخطر لن يأتي إلا من **أهل الجوار الجياع!** وكان ذلك الجواب كفيلاً بأن يقطع دابر الشقيّ ! فقد صدر قرار بنقله إلى معسكرٍ آخر. وقيل إنه لم يدرك المعسكر الآخر لأنه اختفى في منتصف الطريق! ولكن.. ولكن ليس قبل أن يوقعني في مستنقع القاذورات الذي انتشلني منه الفقيد. أقول انتشلني من باب الاستعارة لأن الحقيقة أن رجلي أصيبتْ بكسر عندما انتشلني بحركة عنف . وكان من نتيجة ذلك دخولي المستشفى للاستشفاء شهراً، من هناك خرجت بالجبس في رجلي، وبتقريرٍ من الطبيب المختصّ في يدي: التقرير الذي أوصى بإعفائي من التدريب العسكري مدَى الحياة لأن من شأن عمل كهذا أن يقعدني عن قضاء حوائجي مدى الحياة!

أليس اعترافاً بالإحسان أن أقول إن الفضل في تحريري من معتقل التدريب يرجع إلى الفقيد؟! لم أجد حرجاً في أن أقول له

كُلّما لاقيته: «بفضل فعلتك نلتُ الخلاص!»، فكان يستلقي إلى الوراء كعادته كلما تأهب لإطلاق ضحكة قبل أن يقول: «ليته خلاص! إنه نصف خلاص، بل ربع خلاص، أمّا الخلاص الحقيقي فهو يوم الخلاص من الكابوس!». كنا نخاطر دائماً باستعمال كلمة «كابوس» للتعبير عن الورم الذي يفترسُنا كأننا نرمي في وجهه بقفّاز التحدّي! ولكن ما لم يخطر لكلينا على بال هو أن الخلاص داهية يتمتع بروح أندر أجناس السخرية لا لأن حضوره فاحش الثمن فحسب، ولكن لطبيعته التي يروق لها أن تُقبِل بعد فوات الأوان فتحرمنا مُتعة شاهد العيان، كأنْ تحصدنا في طريقها قرباناً لمجيئها كما هو الأمر بشأنه هو، أو تتّخذ مريديها رهائن تنتظر دورها كما هو الأمر بشأني!

١٢

لا يطيب لي أن أخلد للنوم في قبوي إلاّ عندما يشتدُّ القصف في الخارج. أو تعلو أصوات الغزاة في الأسفل . ولمّا كان هذا لا يحدث إلا بالتناوب (كأن هذين القطبين قد عقدا عهداً خفيّاً ضدِّي)، فإن النوم انقلب نقطة ضعفي بقدر ما كان في بداية الأحداث معشوقي، وبقدر ما كان زمن البطالة علّتي . وكي أعزّي نفسي في أرق الأيام الأولى كنت أستحضر أيام البطالة، هذه الأيام التي لا أصحو فيها من نومةٍ إلاّ لأستسلم لنومةٍ أخرى علّ الغياب عن الوجود يُنسيني: يُنسيني خيبتي ، عدم نفعي، ينسيني نفسي ! فاليقظة كانت بالنسبة لي غثياناً، والنسيان معبودي ! ولم أكن لأجد النسيان خارج الغيبوبة، خارج نومة تعقبها نومة إلى حدٍّ أيقنت فيه أني نمت في تلك الأعوام ما يكفيني إلى آخر العمر إنْ كُتب لي العمر، هذا إذا افترضنا أن ما عشته حتى ذلك الوقت يمكن أن يسمّى عُمراً! لأني لا أعتقد أن حياةً بلا عمل يمكن أن تُسمّى حياة. فمن عاش البطالة الأبدية وحده يستطيع أن يكتشف أن العمل الذي نستهين به ليس وسيلةً لنيل القُوْت، ولكنه طقسٌ مسكونٌ بروح الله ! هل قلتُ روح الله؟ بلى! إنه فِعلٌ من أفعال الإيمان الذي لا يختلف عن ممارسة **الصلوات**. هل نُرضِي ضميراً بدون إيمان؟



وهل نفلح في التعبير عن **إيمانٍ** دون ممارسة الصلاة على نحوٍ ما؟

ففي أيام حصاري الأولى هجرني النوم، أو بالأصحّ هجرت النوم. هجرت النوم برغم أن هذا اللغز هو الثروة الوحيدة غير القابلة للتخزين، وغير القابلة للاسترجاع على سبيل التعويض أيضاً. إنها هبة طبيعية ناموسها التقسيط! تقسيطٌ غيرُ قابلٍ للتأجيل، ولا للدفع المسبق على الحساب! وإلا لماذا لم أستطع أن أستدعي الاحتياطي المستخزن في حياة الأيام الخوالي ساعة داهمني الغُزاة ليحتلّوا الطوابق السُّفلى ويضعوا رأسي في فوهات بنادقهم؟

لقد قاومت النعاس ببسالة طوال ليالٍ متتالية خوفاً من إغفاءة يخذلني فيها دائي القديم «الشخير» فيفتضح أمري! ولولا ذكرَى الغثيان لما استطعت أن أصمد: الإحساس المميت باللاّجدوى الذي يعقب كل صحوة. إحساسٌ يستثير الغثيان، غثيان، غثيان، ولا شيء سوى الغثيان! والترياق؟ لا ترياق إلا النسيان! **ولا وجود لنسيانٍ إلاّ في نومةٍ كُبرى تسمّى موتاً، أو في ميتةٍ صُغرى تُسمّى نومة.** وكان عليّ أن أختار إحدى الميتتين، وقد اخترت الميتة الأهـون (الصُّغرى) لا رحمةً بنفسي، ولكن رأفة بأهلي! فالشخير كان لعنتي منذ الصغر

بسبب داء الجيوب الأنفية. فكنت أحشو فتحتَي أنفي بخِرق استقطعتها من كُمّ قميصي كي أكتم الصخب مُستبدلاً التنفس من الأنـف بالتنفس بالفم. ولكني أختنق بسبب وضعي المنتصب في النوم، لأن ضيق القبر الذي لا تزيد مساحته عن الذراع ونصف الذراع لا يسمح بهجعةٍ حقيقية فأغفو جالساً ، متّكئاً على جدارٍ ظلّ ينفث في عِظامي رطوبات موسم الشتاء طوال الوقت، فلا أتمكّن من إغماضةٍ إلا لأستيقظ مفزوعاً بسبب الاختناق، وأحياناً مفزوعاً من صوت حشرجة كان يُصدرها صدري ما أن أسترخي ليهوي الفكّ العلوي منطبقاً على الفكّ السفلي فتنسدّ القناة الوحيدة البديلة لالتقاط أنفس كنز وهو الهواء! **الهواء!** يا لها من معجزة هذا الذي لا نـراه بعين، ونستخفّ بوجوده. ولا ندري أنه الحياة إلا عندما يعجزنا الاحتيال لاقتناصه! وبرغم تفاهة الأمر الذي لا يزيد في بعض الأحيان عن اللحظات في الفوز بالغفوة إلا أني لا أملك إلاّ أن أعترف ببلسمها ! لقد كانت تُريحني حقّاً! أتنصّت لحظات محوّلاً بدني كله إلى حاسة واحدة: **السمع!** ثم أغيب من جديد ما أن أطمئن إلى السكون حولي. ما أن أُفلح في إقناع نفسي بالأمان. إغفاءاتٍ خاطفة، مبلبلة، مزمومة برائحة الموت، ولكنها مُعزّية، تتخلّلها حتى **الأحلام**، أحلامٌ تحت رقابة

الموت ! وبرغم ذلك أستميت في البحث عن النوم، مستهيناً **بشبح الموت**، تلبيةً لنداء مجهول نسمّيه **غريزة البقاء**، برغم أنه في وضعي ليس سوى البرزخ الهزيل هزال نصل السكين، الفاصل بين الفناء والبقاء ! لماذا؟ لأن ذروة العبث أن تكون حياتنا رهينة صخب مكتوم، حشرجة تستبسل فيها الحنجرة لاقتناص نفحة هواء، تتزامن مع وجود أحد أشباح الغزو صَعَدَ إشباعاً لفضول، أو لقضاء حاجته بدورة مياه طابق الخلوة، حتى ينفجر رأسي برصاصة! وهو ما يعني أن بقائي على قيد الحياة حتى الآن كان **هبة** حظّ! بسمة حظّ ! والحظوظ، كما تعلمت، لا تبتسم لنا إلا لتستغفلنا فتضرب ضربتها ما أن نطمئن لبسمتها! ولهذا كان عليّ أن أستعيد لحظات الغثيان كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً. الغثيان الذي كان ثمرة زمن الموت على قيد الحياة، الزمن الذي كان فيه النوم عملي اليومي الوحيد لأصير بفضله جثّةً على قيد الحياة! الغثيان كان لي منبّهاً إلى أن اهتديت تالياً إلى **نظام**. نظام في زمن الحرب؟ بلى. حتى في الحروب لا يعدم وجود النظام. فساعات الاقتتال كانت بالنسبة لي هي «استراحة المحارب» كما يُقال. فما يُلهي عنّي هو الفُسحة الوحيدة (الاقتتال) التي أستطيع أن أغفو فيها ما شئت أن أغفو! لقد قرأت في الكتب كيف كان يروق

لنابليون أن يغفو على ظهر جواده عند احتدام القتال وهو الذي يقضي الليالي ساهراً على خُطط المعارك. أنا أيضاً أغفو على جوادي عند احتدام القتال ! أغفو في اللحظات التي تتزعزع فيها جدران البنيان بالقذائف إحساساً مني بوجود الأمان! هذا عن النظام الأول. أما عن النظام الثاني ففي الساعات التي يحتدم فيها نوعٌ آخر من القصف. يحتدم فيها القصف بين أفراد الغُزاة مستخدمين سلاحاً لا يقلّ خطورة عن المدافع وهو: **عضلة اللسان!** كانوا يتشاجرون فيما بينهم كل ليلة تقريباً. كنت أسمع أصوات نساء لا أعرف من أين يأتون بهنّ ! بعضهن مختطفات من مختلف المناطق كما علمت فيما بعد، وبعضهنّ مجنّدات! مجندات من مختلف الجنسيات ! فكانوا يتسامرون بصخب. سمر تكشف عنه ضحكاتهم ونكاتهم البذيئة التي يروقهم أن يصرخوا بها صراخاً كأنهم يتعمدون أن يعلنوا عنها ! يعلنوا عن سعادتهم! ولمّا كانت **السعادة هشّة بطبعها** فلا بدّ أن ينتهي المحفل إلى شجار. يتشاجرون لأتفه الأسباب لأن الحرب ما هي إلا تعبئة لشرٍّ إسمه الأعصاب. ويتشاجرون لأسبابٍ أكثر جدّية أيضاً. يتشاجرون بسبب النساء. وقد يتطور العراك إلى استخدام الأيدي، بل وإلى استخدام السلاح! استخدام السلاح وسط! استغاثات النساء. إنه مجونٌ من نوعٍ خاص!



مجون من نوعٍ جديد ! مجون جيشٍ ملفّقٍ من جنود محليّين، وآخرين مرتزقة أتوا من كل أركان الدنيا، ونساء مجنّدات محليّات وأجنبيات، ومختطفات، ومؤونة كافية من أنواع المخدرات، وحبوب الفياغرا، والخمور ذات الصنع المحلي، ويقال إن الزعيم تنازل عن كبريائه مرة أخرى ليسمح باستيراد الخمور الحقيقية أيضاً! ففي المرة التي اقتحمت فيها دفعة جديدة من طلائع الغزاة المبنى وعمّت البلبلة الطوابق السفلى، كنت قد أفلحتُ في إنجاز غزوة إلى الحمّام بالجوار (وهو ما ظلّ صُداعي المزمن طوال أيام الحبس، لأن حرصي على ألاّ يتزامن خروجي إلى هناك مع صعود أحد الأوباش كان يكلفني يقظة لا تقلّ عن ذلك الاستنفار المزموم الذي أتسلح به كلما نزلت إلى الطوابق السفلى بحثاً عن قوت)، وعدت لأتوارى خلف متراس أكياس الإسمنت، فإذا بالأسافل تفيضُ على الأعالي بنصيبٍ من الروّاد الجدد: صوت رجلٍ ذي نبرة فظّة، وآخر بنبرة أقل خشونة، و.. صوت امرأة، بل صوت امرأتين. أم امرأة وفتاة؟ هذا ما ترجمته نغمة الأصوات التي أصبحت أخيراً لغتي الوحيدة في تحديد ملامح الدنيا ومسلك أهل الدنيا أيضاً.
كان صاحب الصوت الفظّ نافذ الصبر، انبرى يحثّ البقيّة مستخدماً ألفاظاً نابية لم أسمعها حتى من رعاع الأزقّة !

وكانت المرأة ذات النبرة الفخمة تحاول تهدئة الرجل مقترحةً.. مقترحة قرعة ! لم أفهم في البداية عن أيّة قرعة تتحدث. كان الحوار يدور فوق رأسي بالضبط ! كانوا يلتئمون على نصب الأكياس فأتبيّن خيالاتهم من خصاص الأكياس الجانبية فأنكمش حول نفسي حابساً أنفاسي لئلاّ يفضحني نهمي الأبدي إلى **الهواء!** لم يطل الجدل، لأن المرأة ذات النبرة الفخمة سألت حسماً للموقف: «صورة أم كتابة؟»، فأجاب صاحب الصوت الفظّ: «كتابة! دائماً كتابة!»، ثم أعقب العبارة متفلسفاً: «الصورة رجسٌ من عمل إبليس، أما الكتابة فهي **تعويذة!**». ألقت المرأة بالقطعة النقدية على البلاط في اللحظة التي أجهشت فيها المرأة، كلاّ، ليست المرأة ولكن الفتاة. سمعتها تغمغم: «**اتقوا فيّ الله!** اتقوا الله في خلق الله! كيف تستنكرون رجس إبليس باللسان، ثم..». انتهرتها المرأة بحقد. من فمها انبثق سبابٌ فاحش. وكانت كلمة «مومس» آخر ما سقط في أذني من ذاك السيل المخجل، السيل الجدير بأن يكون أكثر ابتذالاً، ومنكراً، عندما يجري على لسان امرأة **موجّهاً إلى امرأة!** بعدها وجّهت الحيزبون خطابها إلى الرجل: «البكارة من نصيبك، يبدو أن الكتابة تعويذة حقاً!»، فغمغم صاحب الصوت الموحش: «الكتابة لم تخذلني يوماً!»، ثم.. ثم بدأ

الطقس الوثني الذي لم أتخيّل أبداً أن أكون له يوماً شاهداً. هل قلت «شاهد»؟ بلى! **شاهد**. شاهدٌ من وراء حجابٍ حقّاً، ولكني برغم الحجاب شاهد ! هل هو **حجابٌ** حقاً؟ لأكياس الإسمنت عيون ! لأكياس الإسمنت شقوقٌ يُطلّ منها وميض الضوء. ولهذا فهي نصف حجاب ! ومازعزعني أكثر من كل شيء ليس أن تنصّبني الأقدار **شاهداً** على كبيرة كبائر كالاغتصاب، ولكن أن تكون المرأة التي ظننتها رفيقة أحد الرجلين شريكاً في ممارسة الطقس ، لم تكن شريكةً فقط ، ولكنها المحرّض كما فهمت من الحوار. لقد لمحتها من الشقّ : بدينة، ترتدي لباس العسكر. ذات بشرة دكناء. بشرة أهل تورغاء ! مجنّدة محلية من بنات تورغاء ! سليلة الحقد التاريخي الذي عبر أسلافه يوماً الصحراء الكبرى مشياً على الأقدام طلباً لفردوسٍ يقع ما وراء البحار، ولكن القدر خذلهم فقطع بهم حبل الأمل في منتصف الطريق، فلم يبقَ لهم إلا أن ينتقموا ! لم يبقَ إلا أن يورثوا الأجيال وراء الأجيال الظمأ إلى الانتقام. وها هي السليلة تلعب دور القوّادة لتقدّم الدليل ! ها هي تلعب دور **الجلاّد** لتقدّم الدليل. ها هي تُشفي غليل الأجيال بالتنكيل بمن ظنّتهم المسؤول عن نكبتها التاريخية. إنها تتلذّذ بعذاب العذراء. فبعد نعوت الفحش وجّهت للصبية لكمة، ثم تشبّثت

بذراعيها لتُمكّن الوحش ذا الصوت الموحش من اقتراف فعلته! ولولت الفتاة بأعلى صوت وهي تحاول الإفلات من جلاّديها، فكانت صرخاتها إدانة لغياب العدالة : لغياب عدالة السماء. لأن صُراخ الأبرياء حُكمُ إدانةٍ موجّه ضدّ عدالة السماء. **لا حول الضّحايا دوماً حكمٌ غيابيّ في حقّ السماء.** ولكن.. ولكن ها هي السماء تزجّ بي في المعمعة **لإقامة** عدالة السماء! وها هي عدالة السماء تضع في يديّ **سلاحاً** أيضاً. سلاحاً محشوّاً بعيار ناريّ أيضاً. طلقة واحدة حقّاً، ولكنها كفيلة بتمزيق بدن الوحش الذي ينهش جسد الضحيّة جاثماً فوق رأسي بالضبط متّخذاً من المتاريس الإسمنتيّة مخدعاً لافتراع الأبكار كأنه أحد إقطاعيي القرون الوسطى يمارس حقّ الليلة الأولى! كنتُ مغموراً بالعرق عندما سددتُ أذني بأصابعي كما فعلت عندما تناهب الأوغاد امرأة الطابق الثاني قبل أن تستمرئ الأمر وتتّخذ من أحدهم عشيقاً يجيرها من جنون الأفواج التي تتعاقب على اقتحام البنيان بين الحين والحين كأنها قدرٌ. ولكن نواح العذراء اخترق السمع ليرنّ في الوجدان. الوجدان؟ لا أدري ماذا أسمّيه، ولكنه غاص عميقاً جداً حتى صار جزءاً منّي. سرَى في الدم وظلّ يصرخ فيّ أنا. كأنّي أنا من يصرخ. كأني أنا من يستصرخ وليس العذراء المطروحة فوق رأسي.



كنتُ ألهث، وأغالب الغثيان عندما تحسّست سلاحي الذي لم يفارق كفّي. تحسّسته باليد الأخرى، و.. سحبتُ التأمين بإصبع يدي الأخرى. صوّبت. صوّبت ناسياً أني أيضاً **ضحية!** ضحية مسبقة لا تختلف في الوضع عن هذه الضحية التي تُستباح فوق رأسي. نسيت أني رهين الطلقة. **رهين الطلقة** الواحدة لأن وجود الطلقة في مخزن السلاح **وحيدةً** هو حضورٌ لحساباتٍ تنفي البطولة نفياً قاطعاً. تنفي البطولة لأنها تستنهض حساب الربح والخسارة! تستنهض حساب الهزيمة والغلبة! والمحارب يفقد الشجاعة في اللحظة التي يضع فيها هذا الحساب. يخسر في هذه اللحظة. يُهزم في هذه اللحظة. يُهزم الهزيمة الأسوأ من الهزيمة أمام العدوّ، لأنه هو من يهزم **نفسه** بنفسه في هذه الحال. ولهذا فإن غياب الطلقة على الإطلاق أفضل من وجود الطلقة الوحيدة. غياب الطلقة **يُحيي**، ووجود الطلقة الواحدة **يُميت**. يُميتُ بالخوف من إطلاقها لأن وجودها يصبح ضمان الوجود على قيد الحياة. وبرغم ذلك غبت عن حساب الربح والخسارة هذا في اللحظة التي صوّبت فيها باحثاً عن جسد الوغد. ولكني اكتشفت أن جسد الضحية هو الأسفل وليس جسد الجلاّد، وإذا أطلقت فلن أضمن ألاّ أصيب الضحية بدل جلاد الضحية! كان الجسدان مازالا ملتحمين، أحدهما مزمومٌ

بالشهوة، والآخر مغلولٌ بالألم. وحدة اللذة والوجع. عدوان الشهوة مقابل نكبة **الجمال، لأن بداية الإحساس بالشهوة هي الشهادة على نهاية الإحساس بالجمال!** كنت شاهداً على وفاة الجمال، شاهداً على البكارة وهي تلفظ أنفاس النزع الأخير! كنت أجاهد في البحث عن حيلة لإيقاف النزيف. ولكن الضحية كانت تحجب عني جلاّدها في كل مرة كأنها تشفع له! كأنها تستغفر له! **كأنها تجيره من فوهة سلاحي!** ناورتُ طويلاً. لم أناور طويلاً، ولكن الالتحام المحموم هو الذي خذلني. الطقس الوثني هو ما لم يَدُم طويلاً، وها هو الوحش ينزاح كعبءٍ خُرافي عن صدري! لم يتحرر متراس الإسمنت بقدر ما تحرّر صدري. جاهدت للسيطرة على أنفاسي وسحبت سلاحي لتسقط به يدي إلى جواري. لحظتها تذكرت أني لا أملك سوى طلقة أخيرة على عاتقي يقع وزر الاحتفاظ بها لتحقيق انتقامي. لأن رسالتي أن أنجو بها لأعود إلى الحفر. لأعود إلى الجُحر. الجحر المؤدّي إلى برّ **الأمان.** إلى بنيان «**الضمان**». لأن في الوصول إلى هناك يكمن الخلاص. في بلوغ تخوم بنيان «الضمان» ينتظرني الفردوس. ورسالتي أن أحفر، وأحفر، **وأحفر..** إلى الأبد!

خارج القبو سمعت الجلادة تلعن بأعلى صوت. لا تلعن

الفتاة هذه المرة، ولكنها تلعن الرجل الآخر الذي فرّ من المكان لسببٍ لا أدريه. بعد لحظات ابتعدت الأصوات. نزلتْ السُّلم، ولكن أنين العذراء كان لا يزال يقرع قلبي. وعندما أفقتُ واستعدتُ الإحساس ببدني وجدت على ذراعي قطرة دم!

كان ذلك نصيبي من نزيف جسد العذراء. ولكني أحسست به **نزيفاً في قلبي** لم يُكتب لي أن أنساه إلى الأبد.

١٣

عندما اطمأننت لخلوّ المكان تسللت من جحري، استخدمت قرون استشعاري للتأكد من خلوّ البنيان فلم يهرع لنجدتي غير الحواس. كل الحواس، كما في كل مرة. الحواس التي لم تخذلني ولا مرة. كانت الشقة التي جعلتني الأقدار رهينها منزوعة الباب. في مدخلها تكدّست أكياس الإسمنت. في سقوفها استقرت أشرطة إسمنت لترميم الشقوق وسدّ فتحات احتفرها الزمن، ولكن لم يكتب للحشو أن يتمّ لأن الحرب لم تُمهل العمّال لاستكمال عملهم. لأن ترميماً أكبر قرع الأبواب، ترميماً أحقّ من كل ترميم لأنه غير قابل للتأجيل، لم يعد قابلاً للتأجيل. ترميم كيانٍ تهرّأ وباد وآل للسقوط.

تطلعتُ إلى السماء في صباح ذلك اليوم فوجدتها غائمةً. من النافذة مهشّمة الزجاج رأيت على الرصيف بللاً . يبدو أن المطر سقط ليلاً. كان القصف في البُعد مستمراً. القصف الذي لا يتوقف منذ انفجار البركان. إنه المعزوفة التي اعتادتها الآذان حتى صار حضورها كحضور الهواء. صار حضورها ضرورة. فإذا توقفت فلن يبشّر ذلك بخير، بل سيكون نذير سوء. لأن الرهان في أن تهدر المدافع، وتزغرد الطلقات، وتدمدم الدبابات، لأن ذلك وقود المعزوفة. قوت الأمل تَجَسّد



في نغم المعزوفة. إنّها منذ الآن لحن الأبدية. كلمة الفردوس. كلمة الفردوس الموعود. ليس منذ الآن، ولكن منذ البدء. ولو توقف القصف. لو توقف تبادل النار لتوقفت قلوبنا أيضاً. لا تتوقف قلوبنا وحدنا، ولكن سوف تتوقف قلوب الكل، ستتوقف قلوب أولئك الذين يقبعون في البيوت الواقعة خلف الخطوط الأمامية. سيتوقف قلب المدينة. سيتوقف قلب الوطن كله. سيتوقف قلب الوطن الكبير الراكع أرضاً، واضعاً أذنه على الأرض ليتنصّت، ليقتنص صوت المعزوفة، ليقتنص صوت النبض في المعزوفة. صوت نبض قلب الوطن الذي لم يعد له وجود إلا في القصف. وتوقف القصف يعني في يقين الكل توقف قلب الوطن عن النبض، سيعني شهادة الوفاة بحق الوطن. لأن.. لأن ما يهمّ المحارب ليس النصر، ولكن استمرار القتال. استمرار القتال حتى النصر. حتى النصر؟ كلا! الأصح أن نقول: استمرار القتال بعد النصر. استمرار القتال إلى ما لا نهاية. لن يحقق النصر، ذلك المحارب الذي يقاتل أملاً في تحقيق النصر. المحارب الذي يحقق النصر هو المحارب الذي لا يعنيه النصر. هو المحارب الذي لا يكتفي بالنصر . هو المحارب الذي يحارب إلى الأبد ، لأن الحرب لا تعود حرباً في سبيل نصر، ولكنها تنقلب حرباً **لأداء واجب**. والواجب لا يقنع

بالوقوف عند نصر، لا يقنع بالوقوف عند **حدّ!**

واشتداد القصف المتبادل اليوم أحياني وبعث في نفسي الأمل. أملٌ لم يمت يوماً، برغم شبح الموت الذي يحوم حولي ويشاطرني الحياة في قبوي. أمل أن يمضي الرفاق إلى النهاية في تنفيذ بنود العهد الذي كان لي شرف الانتماء إليه منذ البداية، لأن في الاستمرار يحيا أملي. في الاستمرار بالعهد تكمن غلبتي. فيه تكمن غلبتي حتى لو قرّر شبح الموت أن يكفّ عن لعبته ويقتحم خلوتي بطلقةٍ في رأسي. سأرافقه إلى غيوبه وقتها سعيداً لأني متّ وشبعتُ في الواقع موتاً منذ اللحظة التي اقتحم فيها الغزاة المبنى لأجد نفسي محشوراً بين أكياس الإسمنت. متّ لا خوفاً من الموت بالطبع، ولكن رمزاً. متّ في ناموس القدر. متّ بقوانين القدر. لا شكّ أنه الآن يبتسم في مجهوله الأبدي سخريةً كعادته. يبتسم ساخراً لأن **السخرية دين القدَر** الذي لم يحدث أن جاراه فيه أحد! يبتسم مطمئنّاً اطمئنان من قام بتأدية واجب، أو فلنقل إنه استراح الآن بعد أن لبّى نداء الضمير. استراح باسترضاء الضمير، لأنه **أتقن عمله.** فإذا خرجت من المأزق حيّاً بعد الآن فذلك ليس شأنه. ليس شأنه لأن ذلك سيكون معجزةً ، والمعجزات لم تكن يوماً من شأنه. المعجزات ليست من اختصاص القدر. المعجزات

من شأن **أهل الإيمان** ولم تكن يوماً من شأن القدر. وها أنا أواجه مصيري برغم حكم القدر. ها أنا أحيا برغم حكم القدر. أحيا **بوحي إيماني** برغم كلمة القدر. يُجيرني إيماني بالعهد الذي قطعته على نفسي لا حبّاً في الحياة في سبيل البقاء على قيد الحياة ! فإذا قرّر القدر أن يخالف ناموسه ويعود أدراجه ليصحّح الأمر فسأستجيب سعيداً. كل ما أريد أن يرافقني في رحلتي الجديدة زغاريد الوطن، نبض الوطن، معزوفة الوطن المبثوثة في ولولة الطلقات وهدير القصف !

قمت بعدها بزيارة عجولة إلى المرحاض، ثم.. ثم انتعلتُ حواسّي و.. نزلت الدرج. نزلت طمعاً في الفوز بقوت، واستجابة لصراخ أحد الطفلين بالطابق الثاني. نزلت بحذر إنسان حوّل بدنه كله إلى حواس (شمّ، ولمس، وبصر و.. حدس أيضاً). بعد لحظات كنت أطرق الباب. ولكني وجدته مواربا كالعادة. دفعت الباب بهدوء فواجهتني المرأة. في سيمائها وجومٌ اعتادت أن تتّخذه قناعاً تخفي به كل شيء. فلم يحدث أن تنبّأتُ بما ستقول، ممّا يعني أنه قناعٌ متقنٌ جديرٌ بالإعجاب. في الغرفة الداخلية كان الطفل مازال يبكي. تفحّصتني لحظات قبل أن تتساءل عمّا إذا كنت طبيباً. أجبتها بالنفي وعندما لمحتُ خيبة أملٍ في وجهها أضفت قائلاً إنني **معلم!** ابتسمت باستهزاء

قبل أن تعلّق: «يقيناً أن المعلم ليس المهنة التي نحتاجها هذه الأيام!». ثم استدارت لتضيف بلا مبالاة: «لا وجود لخبزٍ في هذا البيت! لا وجود لشيءٍ في هذا البيت» ولّتني ظهرها كأنها تغلق باب الرجاء في وجهي. قبل أن تختفي في الغرفة المجاورة حيث يتشكّى الطفل، تبدّى قوامها ممتلئاً، مسبوكاً، بعجيزةٍ ثريةٍ تماماً كما رأيته أول يومٍ عندما أطلّت عليّ من أعلى لتستفهم باستنكار عن عملي.. عن معنى اختراقي جدار بُنيانٍ يجير بيتها. ولا أعرف لماذا طافت بخيالي هذه الذكرى كأنها واقعةٌ مضى على حدوثها زمن بعيد جداً. واقعة جديرة بالنسيان حقاً. ويبدو امتلاء الأيام الزائلة بصنوف الأحداث وأجناس الأهوال، هو ما أعطى الانطباع بقدمها. انصرفت للعناية بالطفل وتركتني واقفاً بعد أن أيقنت بعدم جدواي. بعد أن خيّبت ظنّها بامتهان حرفة التعليم بدل الطب. رفضت إطعامي أيضاً لهذا السبب. لهذا السبب؟ الواقع أني لم أشكّ في نزاهتها، فربما كانت صادقة. صادقة برغم قدرة رجلها على تزويدها بالتموين؟ من يستطيع أن يضمن قدرة أحدٍ ما على فعل شيء ما في **زمن الحرب؟** من يملك الحقّ في إصدار أحكام الإدانة في زمن الحرب؟ **لا يقين** في الحرب، كما **لا ضمان** في الحرب!

عدت أدراجي مسلحاً بمؤهّلاتي. مؤهّلاتي التي كان لها الفضل في بقائي على قيد الحياة حتى الآن برغم الكلمة الصادرة بحقّي من قِبل جلالة القدر! نزلت الدرج ووقفت في مواجهة باب الزبانية. بوّابة الزبانية. أخرجت المسدّس. سحبت التأمين. دفعت الباب الموارب. كان مفتوحاً. كان مفتوحاً كالعادة. دخلتُ شاهراً سلاحي. دخلت شاهراً سلاحي، مستجيراً بطلقتي الأخيرة. الطلقة الأخيرة التي أعرف أني لن أطلقها حتى لو واجهني منهم شبح! لن أطلقها لأنها أملي الأخير. أملي الأخير الذي صار **رهاني الأخير**. صار رهاني الأخير ولهذا السبب صرت رهينته الأخيرة. بلى! **أنا رهين هذه الطلقة الأخيرة بدل أن تكون هي رهينتي**. وها أنا أشهر فوهة مسدسي في وجه أحد الأجناد احتراساً. لأني لن أضمن ألا يكون أحدهم قد عاد لقضاء حاجة، أو بقي مختبئاً بسبب وعكة، أو أيِّ مبرر من هذا القبيل. جئت شاهراً طلقتي الأخيرة برغم علمي بأني لن أطلقها أبداً إلا إذا كنت على يقينٍ من وجود أملٍ في نجاة. **هذه غريزة**. هذا نداء الطبيعة الأمّ. نداء الدفاع عن النفس. نداء البقاء على قيد الحياة. وهو ما يعني أني ودّعت العقل منذ وقوعي في هذا الفخ، فتولّت الغريزة الأمر وحدها. فهل من حركة؟ هل تردّدت أنفاس؟ هل تناهَت

نأمة؟ كلا.. على المنضدة المواجهة للمدخل وجدتُ المرتع: بقايا خبز، وقطع جبن مثلث الأركان، حبّات زيتون في طبق، وشرائح بسكويت متناثرة بالجوار. على أحد الكراسي وجدتُ كيساً أيضاً. فتّشت الكيس بحركة عُجالة فعثرت في جوفة على علب تن و.. نصف دجاجة ملفوفة في جريدة. ألهمني الجوع أن أفرّ باللقية، ولكني تراجعت في آخر لحظة. الغريزة كانت أقوى. التقطت من التنّ علبتين، وسلخت من الدجاجة شريحة، ثم وقفت فوق المنضدة. اخترت بضع حبّات زيتون وقطعتين من الجبن مثلث الأضلاع، وكسرة خبز. عدت أدراجي. صعدت الدرج بعد أن ترصّدت باب الخروج الرئيسي المفتوح على مصراعيه. كان القصف يعزف بشدّة. والجدران تتزعزع برغم ابتعاد مواجهات الخطّ الأمامي عن الحي. اجتزت بيت المرأة في صعودي إلى أعلى حيث ينتظرني جحري. و.. فجأة توقّفت. عدت أدراجي. وقفت أمام بيت المرأة. دفعت الباب. كان المدخل خالياً، لأن المرأة مازالت تعاند الطفل المريض. نظرت حولي. استخرجت من متاعي الزاد. اقتسمت الزاد. دسست في جيبي شريحة الدجاج، وعلبة تن، وكسرة الخبز. تركتُ الباقي على منضدة بالمدخل، وتسلّلت في طريق العودة إلى الجُحر.



١٤

يوم اقتحام المعسكر طلباً للسلاح التقينا **العقيد سالم** لأول مرة. كان الحريق مازال يشهد انطلاقته الأولى. وكان نزاعنا في تلك الأيام مازال في مرحلته الأولى أيضاً: مرحلة الكرّ والفرّ مع قوى الأمن المحلية. مع الحلف المؤلّف من الشرطة بجناحيها المدني والعسكري، أي العلني الذي يرتدي قيافة رسميّة، والسرّي الذي أجبرته الفجاءة أن يتنكّر لهويته السرّية ويكشف عن حقيقته الخفيّة. هذا إلى جانب اللجان بشقّيها أيضاً: الشعبي والثوري ! ينضمّ إلى هذا الحلف طابور مُريب من المريدين المسلّحين بأسماء مختلفة. وبرغم شهوة هذا الحلف إلى البطش إلا أن الثقة العمياء بالواقع أفقدت هذا الجيش الإحساس بحقيقة الواقع، فكان الحدث بمثابة القارعة التي زعزعت في نفوس هؤلاء الثقة بالنفس بعد أن شكّكت في صواب مقولة «**الفتح الأبدي**» الذي لن يأتيه الباطل لا من أمامٍ ولا من خلفٍ جهلاً منهم بخطورة **الرّهان على الأبد** الذي لم يحدث أن غفر لأحدٍ منكراً كهذا لأنه لن يعني في الترجمة إلى لغة الناسوت سوى الطمع في نيل الخلود، ولو احتكموا لبطون الكتب مثلي لأدركوا منذ أول يوم كم هو **تجديفٌ** هذا المسعَى، ولو لم يكن كذلك لما سخر الزمان ممّن كانوا أعظم منهم شأناً

وأكبر علماً مثل الفرعون الذي راهن على مُلك **المليون عام**، والبهلوان هتلر الذي راهن على إمبراطوريّة **الألف عام**، ولينين الذي آمن بتأسيس نظام **كل العصور**. ولكن يجب أن أعترف أن مُصَاب تلك العصبة في دينها واكتشافها الفجائي للزور في المتون، هو مازلزل الكفّة لصالحنا! فالثقة المفقودة في معسكر العدوّ هي رصيدٌ إضافيّ ضاعف ثقتنا بأنفسنا. وكانت السبب الأوّل الذي أعاننا في تشتيت شمله. لقد ظلّت المُناوشات مستمرّة بعنف لا ليقينهم بأنّهم الطرف الأقوى في النزاع، ولكن ليقينهم بأن الدعم سوف يأتي. بلى. كانوا يقفون موقف الدفاع انتظاراً للآلة الحربية التي عوّلوا عليها دوماً، وكانوا يدرون أنها لن تتأخر في نجدتهم. كما لم نكن نحن سُكارَى نصرٍ أيضاً بحيث نجهل ذلك. ولهذا كان علينا أن نُعِدَّ لهم ما استطعنا من قوّة ومن.. ومن العتاد. من الذخيرة. من البنادق، ومن كل ما يمكن الحصول عليه من سلاحٍ ليقيننا بأنّ **صاحب الشأن** لن يرحمنا، بل ليقيننا بأنه سيكون متسامحاً معنا جداً إذا اكتفى بألاّ يرحمنا ! لأننا نعلم أنه لن يرحم ذوينا، لن يرحم العُزّل، لن يرحم أحداً، لن يرحم حتى الأجنة في بطون الأمّهات، و.. لن يرحم المدينة برمّتها. **فأيُّ خيارٍ تبقَّى؟** لقد فتلنا من دم الشهيد صليبنا، وعلينا بعدها أن **نتنكّب** صليبنا،



ونمضي به إلى النهاية.

لا أدري اليوم مَنْ مِن الرفقاء اقترح اقتحام المعسكر للاستيلاء على السلاح. هل هو سليم؟ أم نفيس؟ أم كريم؟ أم غيرهم؟، لا أذكر، ولكن ما أذكره أن فكرة اقتحام المعسكرات لانتزاع السلاح لم تكن وحياً أو إلهاماً من أحد يومها، لأن ما حدث في حاضرة الشرق (بنغازي) كان على كل لسان حتى صار قدوةً ومثالاً أعلى يُحتذى. مثالٌ أعلى؟ كلا. ذلك كان بالنسبة لكل فردٍ منّا **أسطورة**. كان الأسطورة التي جعلتنا جميعاً نتساءل: «هل يمكن أن يحدث هذا؟». وكان كلّ منّا يُضيف للتساؤل: «إذا حدث هذا وصار حقيقةً واقعةً **هناك**، ألن يعني هذا أنه عملٌ قابلٌ لأن يحدث **هنا** أيضاً، أو في الحاضرة، أو في الجبل، أو في أيِّ مكانٍ من هذا الوطن الذبيح؟». كانت الفكرة **وسواساً** يحيا في وجدان كلٍّ منّا. كل ما علينا فعله هو أن ننسى أننا على قيد الحياة، ونعدّ أنفسنا في عداد الأموات! كل ما علينا فعله، كي نحقق العجب على طريقة الإخوة في الشرق، هو أن ننكر أننا **أحياء**. بلى! يجب أن ننكر إنكاراً أننا أحياء، ونتذكر أننا لم نكن سوى جثامين تدبّ على قدمين. جثث على قيد الحياة، تماماً كما فعل «زيو» الذي حمل جثمانه على ظهره وفجّر به بوابة المعسكر الحديدية ليستعيد حياته

الضائعة في **العدم**، يتنازل عن حياةٍ مزيفةٍ، لينال بهذا العمل الحياة الحقيقية في الأبد. دفع حياةً مزيّفة مقابل **حياة الحلم**. دفع حياة البهيمة لا طمعاً في أن يحيا، ولكن لكي **يُحيي**. وعندما أحيا فقط استردّ الحياة المفقودة. فلماذا لا نحذو حذوه كما فعل البوعزيزي قبله؟ لماذا لا نتخلّى عن موتٍ يبدو حياةً وننحاز إلى حياةٍ تبدو موتاً كما فعل **بوعزيزي الغرب**، **وكما فعل** «**زيو**» **الشرق؟** ألم يجسّد كل منهما سيرة التضحية المثيلة لتضحية المسيح في سبيل الحقيقة؟ هل أبالغ إذا قلت بصوتٍ عالٍ إنهما مسيح هذا الزمان؟ فبدم هذين بدأ الفتح الحقيقيّ، بدأ الفتح المبين، بدل فتوح الزور التي تراهن على تحدّي الأبد، هذا الأبد الذي لم يكن يوماً غير **ربّ الأبد!** وها هو الحلم باستعادة الحلم المفقود، باستعادة **الحلم القتيل**، يقودنا إلى المعسكر لنجد أنفسنا في مواجهة ذلك الرجل الذي استقبلنا ببسمةٍ غامضة وبروحٍ أكثر غموضاً كأنها **التسليم**. هل قلت التسليم؟ الحقّ أني لا أعرف ماذا أسمّي ذلك الوجوم المجبول بإيماءٍ كالحزن المرتسم في سيماء الرجل. إيماءٌ لم نألفه في وجوه من عرفنا من ملّة العسكر. وأعترف الآن أن سُلطان هذا الإيماء أربكنا مسدّداً طعنةً لروح العداء الذي أقبلنا به لأننا لم نكن لنفترض في معسكرات الجيش تسامحاً أو تفهّماً أو



استجابةً نحن الذين انتمينا لجيلٍ لم يَرَ في الجيش إلا عدوّاً، ومن البزّة العسكرية سوى الرمز الذي بعونه **صودرت أحلامنا**. ولكن مسلك الرجل أذاب الشكّ. أذاب الحكم المسبق. أتكفي بسمةٌ عابرة لإذابة جليد الأعوام، بل تراكم جليد لعقود الأعوام؟ لا أدري. ربّما كانت هيئة الرجل هي التعبير. هي البيان المبين الذي استوقفنا ودعانا لمراجعة موقفنا. شخصياً لا أعرف لماذا تراءى لي طفلاً، طفلاً بلا حولٍ ولا قوة. في عينيه لمحتُ وميضاً موجعاً، فهل هو خيال ما نسمّيه براءةً؟ البراءة التي قُدّر لها دوماً أن تكون في حالة دفاعٍ عن النفس؟ البراءة التي كُتب عليها أن تقف موقف العجز، **العجز المشفوع بنزيف الروح منذ الأزل وإلى الأبد؟** لا أدري يقيناً. ولكن وحي الحدس يقول إنه **رجلٌ جريح**، جريح بعمق إن لم يخذلني التعبير.

كنّا عُزّلاً يومها فوقف بيننا **أعزل** أيضاً. طالبْنا بفتح المخازن وتزويدنا بالسلاح. طالبنا بهتافٍ جماعي ! كان الحماس قائدنا، والثأر للحلم القتيل دليلنا. ولهذا لم تكن الحجّة لتقنعنا، ولم يكن المنطق ليُفحمنا. كنا قد قطعنا حتى ذلك اليوم شوطاً بعيداً في طريق **اللاّعودة!** واليقين باستحالة العودة إلى الوراء هو الذخيرة التي أخرجتنا من دينٍ لتُدخلنا إلى دين! أخرجتنا من دين الكابوس وطوّحت بنا في دين الحلم!

ولهذا انقشعت الحدود وتبدّد الخوف. زوال الخوف كان رهين الإحساس العميق باللاّعودة. الإحساس بحضور.. بحضور ماذا يقيناً؟ حضور الإحساس بالقُربان؟ أم الحضور في اللاّحضور، الحضور في **الموت؟** كلا، كلا! إنه **الحضور في الحلم المفقود**، الحضور في البُعد المفقود. الحضور في ملكوت الكلمة السحرية التي ابتذلها سوء الاستعمال، واستباحتها ألسنة الزور أمثال لسان الزعيم، فاغتربت أيضاً كما اغتربت أحلامنا: **الحرّية!**

كان العقيد سالم غريباً في وقفته أيضاً كأنه يستنجد بنا بدل أن يُنجدنا، كأنه في مسوحه الطفولية يقول لنا إنه **ظامئٌ أيضاً ويريد أن يرتوي من نهر الحلم**، من ينابيع الحرية. وعندما هدّدنا بحرق المعسكر شعّ بحزنٍ أعمق مسربلاً بالغموض، فانتظرنا طويلاً قبل أن يُتمتم كأنه يُفشي لنا سرّاً: «ليتني أستطيع مساعدتكم»، هبّ في وجهه بعض الزملاء استنكاراً، ولكنه أضاف إلى العبارة إيضاحاً أدهشنا: «لو وُجد في مثل هذه المعسكرات يوماً سلاح لما اضطررتم إلى الخروج إلى الشوارع لتتولّوا الأمر بأيدٍ عاريةٍ لنقف نحن موقف شاهد العيان!». لم نصدّق في البدء، لأن سوء الظنّ ببزّة العسكر فاقت حسن ظنّنا بالرجل! استفهم أحد الزملاء عن معنى الأُحجية فعاد يبتسم بهدوء ثم أوضح أنه لا يستطيع

أن يهبنا **ما لا يملك**، وإذا كنّا لا نصدّق فالمخازن أمامنا. أضاف أنه سيتنازل لنا عن بضعة بنادق خالية من الذخيرة، لأن الأوامر تقضي بتغييب الذخيرة عن أمّ الذخيرة مسافة لن تقلّ عن مسيرة سفرٍ حقيقي! لم نصدّق. اقتحمنا المخازن، ولكننا لم نصدّق، وعندما شاهد خيبة الأمل مرسومةً على وجوهنا اقترح علينا اللجوء إلى الثكنة الأخرى الواقعة في الطرف الآخر من المدينة. وكم كانت دهشتنا عظيمةً عندما استقبلنا أحد ضبّاط الثكنة قائلاً إن وصية العقيد سالم قد سبقتنا! توقّعنا أن يُلقَى القبض علينا تنفيذاً لوصيّة العقيد، ولكننا فوجئنا بالرجل يفتح أمامنا أبواب المخازن لنستولي على غنيمةٍ بلغت سبع عشرة بندقية مزوّدة بمخزن لكل قطعة. كان ذلك كنزاً، ولكن الكنز الحقيقي لم يكُن البنادق المحشوّة بعبوات الرصاص كما اكتشفنا تالياً، **ولكن الكنز كان العقيد سالم نفسه.** بلى! في تلك الجولة كسبنا نصف المعركة، بل ثلاثة أرباع الحرب، لأن ذلك الرجل الذي يوحي مظهره باليُتم، إن لم نقُل بالاغتراب، كان **سالم جحا** الذي قاد تالياً زحفنا المُميت من ساحة المحكمة في قلب مدينةٍ تحمل في اسمها برهان الريادة في الوجود، حتى قلب المدينة الأخرى (سرتا) التي استغفلتها لتختلس منها الإسم يوماً، كأنّ الرحلة كلها لم

تكن سوى نزيف سخي لردّ الاعتبار!

إنه الزحف الأقدس الذي حرمتني منه الأقدار، ولو خيّرتني لما تردّدت في أن أجود بساقي الثانية ثمناً لهذا الشرف. ولكن للساق سيرة أخرى لم تحن روايتها بعد !

١٥

«الضّمَان»!

اليوم تطلعت عبر النافذة المحطّمة لأشاهد البنيان. عدت من غزوتي إلى الطابق السفلي، ومررت على المرأة للاطمئنان على الطفل العليل، ثم صعدت إلى صومعتي لأستمتع بمشاهدة هذا الصرح الحميم. مشاهدة برج الخلاص الذي لم يكن أحد ليُدرك له قيمة لو لم نفقده لنفقد حرّيتنا بفقده! فبالأمس كان في يدنا، ولم ندرك أنه كان **ضماناً** لحرّيتنا إلا بعد هجوم الغزاة الثاني المعزّز بتلك الزواحف الخُرافية الكريهة الملقبة في لغة العسكر بالدبابات. انسحبنا بعد أن فقدنا ثلث الشباب، ولكننا استطعنا بأعجوبة أن نوقف زحف هذه الزواحف قبل بلوغها ساحة المحاكم. لم نكن كأحياء حسبوا أنفسهم أمواتاً نفزع لسقوط الشهداء لأن في دخيلة كلٍّ منّا يتخفّى شهيد: شهداءٌ على قيد الحياة. شهداء ينتظرون الحياة. شهداء قرّروا أن يستبدلوا موتاً يبدو حياةً بحياةٍ تبدو موتاً. ولكن الحضور في ديار الشهادة لم يُنسِنا الواجب لحظةً واحدة. لم يُنسِنا واجب الاستماتة في.. في الدفاع؟ لا! في ردّ الزحف على أعقابه؟ لا! بل الاستماتة في استئصال الغثيان. الاستماتة في استرداد الروح من برثن الموت. ولهذا السبب استهنّا بالموت. ولهذا

أوقفنا زحف الغزاة. أوقفنا زحفهم، ولكننا لم نُفلح في استرداد البنيان. البنيان الذي لم نكتشف أنه حصنٌ إلا بعد وقوعه غنيمة في يد العدوّ. هناك تمركزت فرق القناصة المستجلبة من كل أوطان الدنيا وشرعوا يكتمون أنفاسنا ببنادقهم ذات الرؤية الليلية. هذه الخسارة شلّت حركتنا وأعجزتنا في استعادة أقرب موقع. احتال الدهاة كثيراً، ولكن هيهات!

اجتمعنا مراراً، وتجادلنا مراراً، ولكننا كنا في كل مرة ننتهي إلى نتيجة واحدة لا ثانية لها: **ضرورة استعادة الحصن بأيّ ثمن.** لا خلاص من الشرَك إلا باسترجاع الحصن، بل لا خلاص للمدينة، لا خلاص للمدن، لا خلاص لكل الوطن، دون استعادة هذا البنيان المكابر الذي يشرف من عليائه على كل الأبنية في المدينة، والذي لم يكن ليسكن النفوس بهذا العمق لو لم تتنفس جدرانه برئة الأسطورة! فقد استغرق بناؤه الأعوام والأعوام لأسباب أرجعها حكماء المعمار لجنس التربة. ولكن أبنية مجاورة قامت على التربة نفسها وارتفعت في أمدٍ أسرع بما لا يُقاس، فما الحكمة؟ تشاور أهل المعمار ثم أعلنوا أن التربة كالإنسان لها أوردة وعروق ومسارب خفية وعلنية لأن كليهما مستعارٌ من أمٍّ واحدة اسمها الأرض. وما يصدق على جسد الإنسان يصدق على بقعة الأرض. فحيثما تسللت العروق

استعسر قيام بنيان، بالقدر نفسه الذي يعدم وجود الماء هنا، وبالجوار يجري النبع، وربما تستلقي بحيرة. لم تُقنع الحجّة سوى القلّة، ولكن العراك مع التربة تواصل. تواصل لا بانهيار الجدران كما في المرات السابقة، ولكن بحصد الضحايا. تحت الأنقاض لفظ الأنفاس ثلاثة عُمّال أجانب، ورابعهم كان مواطناً. اجتمعت اللجنة المحلية لتناقش مقترحاً بإلغاء المشروع. رفعت تقريرها إلى السلطات الإدارية العليا، ولكن هذه السلطات أصدرت قراراً يقضي برفض الاقتراح. والحُجّة؟ الحجّة تنفيذ الخطّة التنموية. والخطط التنموية هي ما لا يقبل النقض لأنها العَصَب في سياسة البلد. فعاد المعماريون يعاركون طبيعة الأرض. في هذا العراك سقط أحد المعماريين أيضاً، فما كان من البقية الباقية إلا أن لاذت بالفرار. ظل المشروع مهملاً لزمن. وكان يمكن أن يبقى أطلالاً إلى الأبد لو لم تتلقَ اللجنة المحلية خطاباً من لجنة المشاريع العليا تتساءل فيه عن مصير المشروع. أعقب الخطاب وصول لجنة تقصي حقائق. وصدر قرارٌ جديدٌ بضرورة إنجاز العمل. ولكن.. صيت المشروع كان قد طاف الأسماع وسقط في آذان ذوي الشأن، أي أهل المعمار الذين اعتذروا بالإجماع عن تحمّل الوزر. تعالت الأصوات ونشط الجدال وعيّر أعضاء اللجنة

أهل المدينة بالتهاون في تنفيذ المشاريع التنموية استجابة للخرافات، استمرّ اللغط إلى أن دخل الساحة مسّاحٌ مريب تطوع لإنجاز الأمر في غضون أشهر. أثار شكوك القوم في البداية، وطعن آخرون في كفاءاته العلمية، ولكنه أبرز شهادات ممهورة بأختام جامعاتٍ دولية ادّعى الخصوم أنها مزوّرة بالطبع ! ولكن اللجنة التي انشطرت الآن إلى شقّين محلي ووطني أقرّت الشهادات مستنجدة بالحكمة الشعبية القائلة إن البحيرة هي القاضي المناسب للحكم على مهارة السبّاح! وكم كانت دهشة القوم عظيمةً عندما انتصب في قلب المدينة برج. برج خرافي لا يقل جمالاً، وربما ارتفاعاً أيضاً عن برج بابل، ودون **ضحايا!** بعدها انتعشت الشائعات بالطبع. قيل إن الرجل ساحر، ومضت أقوالٌ أخرى مسافةً أبعد عندما أشاعت أنه سليل جنٍّ ولا صلة له بسلالات الإنس. ولكن الأجهزة الأمنية وحدها لم تصدق الشائعات لأن بيدها السلطة القادرة على الوقوف على الخبر اليقين.

اعتقلت الأجهزة الرجل وأخضعته لاستجوابٍ صارم. لم تلجأ إلى أساليبها المعهودة في انتزاع الاعترافات من الضحايا لسببٍ بسيط هو أن الرجل فوّت على الأجهزة هذه الفرصة باعترافٍ يقول أنه بريء من كل التّهم الموجّهة إليه،

وكل ما فعله إنه أطعم الأرض الطعوم التي تستحقّ! وعندما سُئل عن طبيعة هذه الطعوم أجاب ببرود إنها رميم العظام. رميم العظام؟ أجل. ذهب إلى حيث يجب أن يذهب واستخرج من الأرض عظام **الفقيد** وعاد بها لينثرها في أسس الجدران! فقيد؟ أيّ فقيد عليك اللعنة؟ **المرابط!** أيّ مرابط؟ المرابط الذي قتله الحاكم التركي منذ قديم الزمان ليستولي على أرضه هذه. هل قلتَ إن هذه البقعة الشقية هي أرض كانت ملكاً لوليّ؟ بلى. كانت حقلاً استولى عليه الحاكم بعد أن تخلّص من الوليّ، **لأن كل مظلومٍ هو وليّ!**

سكت المحقّق طويلاً يومها قبل أن يجود بسؤالٍ أخير عن الكيفية التي توصّل بها كمسّاح لهذه الحقائق التاريخية المشبوهة فأجاب الرجل بأنه رأى ما رأى في **حلم!** حلم؟ بلى! في حلم. تأمّله المحقق طويلاً قبل أن يطلق سراحه، لأن بوسع السلطات أن **تصادر الأحلام**، بل من حقها أن **تقطع دابر الأحلام**، ولكنها لا تستطيع أن تعاقب على **نزول الأحلام**، سيّما تلك الأحلام التي تساعد في تنفيذ الخطط التنموية الخمسية!

١٦

البناية صارت مقرّاً لشركة لئيمة ذائعة الصّيت تُدعى باسم «التأمين» يقال إن إبليس نفسه هو الذي أشرف على تأسيسها وقام باستزراعها في ربوع البلاد لتكون له خليفةً في الأرض، تجني الأموال من ذوي الدخل المحدود **بالاستقطاع الإجباري المسبق** من معاشات هؤلاء المساكين الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً لتنفق هذه الثروة السنوية الهائلة على **مشاريع وهمية**، لتتسرّب الأموال في دروبٍ مشبوهة، لتنتهي في جيوب زبانية نصّبهم إبليس على الرقاب سادةً! والدليل؟ الدليل يجري على كل لسان!. الدليل أن التأمين في المؤسسة مجرّد **إسم**. مجرّد لافتة لذرّ الرماد في العيون. بدليل أنها لم يحدث أن قدّمت تعويضاً لمواطنٍ على ضرر، ولم تتنازل بدفع فاتورة منصوص عليها حرفياً في بنود العقود الإسميّة المبرمة مع المنتفعين بخدماتها أو يجب أن يكونوا منتفعين بخدماتها كشركة تُعنى بالتأمين على الحياة، وحوادث الطرق، والحرائق، وعلاج المصابين بسبب حوادث السير، وتعويض أهل الضحايا، إلى آخر القائمة. وهو ما يشهد به الجميع. فإلى جانب شبكتها الإدارية الأخطبوطية نشرت هذه الشركة فروعاً لها شملت كل أركان الوطن كأنها عروق **ورمٍ خبيث!** ولم تكتفِ



الإصدار «٦٣» يونيو ٢٠١٢

ببسط نفوذها على ربوع الوطن، ولكنها احتكرت هذا النوع من النشاط لتصبح المهيمن الوحيد على هذا المجال الغني بذرّ الأموال المجانية مثلها مثل مؤسّسة احتكارية أخرى لا تقل خبثاً هي **مؤسسة السلع التموينية**. هل قادتني شهوة اللسان للّغو إلى مؤسسة السلع التموينية؟ الحقّ أن وَكر الفساد هذا لعنة أرذل من سابقتها لا لأنها أقوى في فنون الاحتيال، أو لقدرتها التي لا تُجارَى في الاستيلاء على الأموال، ولكن بسبب إخلاصها في **رسالة القضاء على الأمّة!** فليصدق من شاء أن يصدّق وليكذب من شاء أن يكذب، ولكنّي أعني ما أقول حرفياً، بل ومسؤول على ما أقول أمام الضمير. وأمام القانون الوضعي والقانون السماوي. وإلا ما معنى أن تحتكر مؤسّسة واحدة ووحيدة تقوم على أمرها عصابة من مافيا مرخّص لها رسمياً باستيراد طعام الأمّة؟ هل قلت **طعام؟** فلتغفر لي نعمة إلهية كالطعام نعت تلك النفايات منتهية الصلاحية في بلدان الأغراب المستوردة من قبل هذه العصابة بالطعام، لأن كلمة «طعام» في المعجم الذي ورثناه عن أسلافنا تعني شيئاً أكبر قدسيّة بما لا يقاس من فضلاتٍ قررت الأمم أن تتخلص منها **بالمجان** فاستوردتها لجان المؤسّسة مقابل المليارات التي لم تذهب بالطبع لتسديد فواتير تلك النفايات المجانيّة، ولكنها

سقطت في **بالوعة الفئة التي لا تكتفي بشيء ولا يُشبعها شيء!** والنتيجة؟ النتيجة بالطبع هي تعميم **الوباء** الذي ظلّ يفتك بأشقياء الوطن على مدى عقودٍ كاملة ! هل تذكرون اسم هذا الوباء؟ إنه الورم في جنسه الأخبث. بلى! **السرطان الذي أباد أمّة بيد وليّ أمر الأمّة!** لن يدهش أحد إذا قلنا إن تسعين في المائة من وفيات تلك الأعوام حدثت **بحُقنة** مؤسّسة السلع التموينية هذه. والدليل؟ الدليل يسكن ملفّات الطبّ في كل مستشفيات الدنيا التي طافها الأشقياء بحثاً عن علاج. في هذه الملفّات ستقرأون الحقيقة التي تقول إن كل الإصابات الورميّة المميتة التي عانى منها مرضى هذه الهوية سببها: **نوع الغذاء!**

لا أريد أن أضيف في سبيل كشف تفاصيل **مخطّط الإبادة المبيّت** هذا سيرة اللعنة الأخرى، **سيرة النهر** الذي أودى بالحياة في الصحراء ليروي الخضار التي لا تُطعم من جوع في السواحل. خضار؟ ليتها كانت خضاراً حقيقية، لأن العمالة المسخّرة لإنتاجها المستقدمة من الخارج كانت مزوّدة **بفحوى المخطّط**، مزودة بسلاحٍ لا يقل فعالية عن أسلحة السلع التموينية وهو: **السمّ!** هل قلت السمّ؟ يجب أن أقول السموم في الواقع، لأن، ماذا نسمّي حقن الأرض الزراعية بألعن صنوف

الكيماويات التي عرفتها مصانع الدنيا لتُنتِج أكثر في وقتٍ أقصر إن لم يكن السموم؟ ألم تُضبط هذه العمالة مراراً وهي تشحن التربة الزراعية بالسموم المعدّة لقتل الفئران بهدف إشعال فتيل الخصوبة في الأرض استعجالاً لنيل الأرباح دون أن تحرّك السلطات المعنية ساكناً فتضع حداً **لمخطّط الإبادة الجماعية المبيّتة؟** ولكن الدخول في تفاصيل هذا الدهليز سيرة تطول وأحتاج إلى استجواب الذاكرة بنزيفٍ آخر كي أرويه كما يجب أن يُروى ! لذا أستسمح عذراً لأعود إلى سيرة بنياننا المبجّل الذي أسف الناس أن يروه غنيمة في كفّ مصاص دماءٍ سيّئ السمعة مثل «**التأمين**» المزعوم !

ولهذا كان يوم عيدٍ بالنسبة لهم ذلك اليوم الذي لاحظوا فيه دخول مؤسسة «**الضمان الاجتماعي**» شريكاً للتأمين المزعوم في احتلال المبنى. فوجئ بها البسطاء تتسلل تسلّل اللصوص لتقبع بموظفيها في أحد الطوابق السفلية كأنها تستعير خصال مريديها والمنتفعين بخدماتها من عَجَزَة ويتامى وأرامل وكل من لم يعد يملك في الدنيا وليّاً غير **الإحسان.** الإحسان؟ بلى! مؤسسة «الضمان الاجتماعي» تدفع إعانات. تدفع **إعانات** ضئيلة لكي تُبقي أبناء أغنى أرض في أرض الله الواسعة على قيد الحياة ! تدفع إحساناً ! تدفع مِنَح الإحسان

لا لهذه الفئة المنكوبة وحدها، ولكن لكل من بلغ سنّ التقاعد من موظفي القطاع العام. وموظفو القطاع الخاص؟ موظفو القطاع الخاص عليهم أن يذهبوا إلى الساحات للتسوّل عندما يبلغ بهم العمر عتياً لسببٍ بسيطٍ هو أن الدولة لم تعترف بوجودهم يوماً ! لم تعترف بوجودهم لأنهم **سُلالة موبوءة**. موبوءة؟ بلى! موبوءة بجرثومةٍ في غاية الخطورة هي: التآمر! التآمر؟ التآمر على القطاع العام. القطاع الخاص يبيّت نوايا خفيّة غايتها نسف **التوجّه التاريخي**. نسف الخيار التاريخي في استعادة الفردوس المفقود بالوصفة السحرية المسماة: **الاشتراكية!** والتآمر على الاشتراكية **جريمة**. جريمة؟ ليست جريمة فحسب، ولكنها خيانة عظمى عقوبتها الإعدام شنقاً في أحد الميادين العامة!

هل تظنّون ما أقول مغالاة في حقّ السلطات؟ كلا. لقد تم شنق الكثيرين بهذه التهمة في الساحات العامة ! وهو تأكيدٌ صريحٌ لقدر أهل القطاع الخاص بالذهاب إلى الجحيم حال بلوغهم سنّ التقاعد. إنهم طريدو الفردوس. طريدو فردوس «الضمان الاجتماعي» كحجم مصغّر للفردوس المنتظر الأكبر. وعلّ المفارقة أن هذا الفردوس في حجمه الخجول الأصغر لم يسلم من الرجم بالحجارة وبما هو أسوأ من الحجارة. لقد

ظل طوال وجوده مهدّداً بالمحو من خارطة النظام الإداري ومن الوجود. لماذا؟ لأنه وكرٌ للعاطلين عن العمل حسب تعبير الخصوم. لأنه ببساطة عالة على المجتمع في توجيهات الزعيم. ولهذا يجب البحث عن صيغة أخرى للتخلُّص من هذا الوزر الذي أنهك ميزانية الدولة. صيغة؟ الصيغة المقترحة نصّت على تحويل المؤسّسة إلى شركة مموّلة في الأساس من أصحاب الشأن، من القيمة الضريبية المدفوعة عبر أعوام العمل من قِبَل المنتفعين، تماماً كما يحدث في بلدان ما وراء البحار. ولكن الأجر المدفوع في البلاد يُعَدُّ **حسنة تافهة** جداً إذا قورن بالأجر المُجزي المدفوع مقابل العمل في بلدان ما وراء البحار! هذا ليس شأن الدولة، بل شأن المنتفعين الذين يعلمون كما نعلم أنهم إنما يتظاهرون بأنهم يعملون، ولذلك حقّ لنا أن نتظاهر نحن أيضاً بأننا ندفع لهم أجراً ما **داموا يصرّون على أن يظلوا أُجَرَاء ويرفضون قبول مبدأ الشركاء بدل الأجراء!**

ظلّت نيّة البطش بهذه المؤسّسة قائمة طوال الوقت، وكانت طوابير المنتفعين من إحسانها تنتظر صدور قرار إلغاء مصدر قوتهم هذا بِفَزَع. وتعاطفهم مع مؤسستهم الإحسانية هذه هو ما شجّعهم أن يُطلقوا اسم «بناية الضمان» على البرج

الأسطوري المهيب الذي انقضّ عليه تنّين الزمان المدعو **تأميناً** ليبصم واجهته بلافتة طويلة نُحتت فيها عبارة «شركة ليبيا للتأمين» بحروفٍ ضوئية بارزة. ولكن الهجمة لم تكن لتغيّر من قناعة البسطاء الذين ظلوا يطلقون عليها اسم: «**بناية الضمان**»!

١٧

لا تسعفني الذاكرة الآن: مَنْ منّا صاحب ذلك الإلهام الجنونيّ؟ أم أنه إلهامٌ لم يمتلكه أيٌّ منّا؟ أم أنه كان وصيّةً هبطت من السماء فتلقفها قلب المؤمن كما يليق بكل النبوءات، سيّما وأننا كلنا **قلب مؤمن** إذا ذكّرنا بأننا كنا كلنا قلباً واحداً كما آمنا؟ لا أدري. ولكن ما أدريه هو أننا بدأنا وضع الوصيّة موضع التنفيذ على الفور. كانت أول جرافة محمّلة بالعتاد قد رست في المرفأ قبلها بيومين يقودها جمعٌ من بحّارة حاضرة الحرية، حاضرة الشرق التي لم نصدق أنها بلغت شطآن الأمان والتفتت تمدّ لنا يد العون لتنتشلنا من أوحال المستنقع، وربما لم تصدق هي نفسها خلاصها من قمقم الكابوس برغم فظاعة ما دفعته من قرابين ! وبفضل هذا العتاد التقطنا الأنفاس. التقط كل منا ما وقع في يده من سلاح بداية بالمسدّس ونهاية بالصواريخ المحمولة مروراً بأنواع البنادق وصنوف الرشاشات. الخبرة في استعمال السلاح؟ هل يمكن أن توجد خبرة في استعمال القتال مثل خبرة **استخدام** السلاح في ساحة القتال؟ **فالوقفة في وجه الموت أكبر مدرّب لاستعمال السلاح!** وبرغم ذلك لم نكن فريقاً مستجدّاً في هذا المجال، لأن الأغلبية ارتادت مدرسة التدريب العسكري العام، وها هي

الخبرة التي اكتسبناها **قسراً** في معسكرات هذه البدعة تنقلب في وثبتنا ذخيرةً، في حين تحوّلت في حقّ صاحب الفكرة **بليّة!** ولما كان وضع الوصية موضع التنفيذ رهيناً بإقناع الأهالي، سيّما سكان طابور الأبنية المصفوفة طوال امتداد شارع حاضرة الغرب، فقد وقع الاختيار على عددٍ منّا لتولّي المهمة. وأذكر أن العقيد **سالم جحا** كان صاحب الاقتراح الذي انقسمنا بموجبه إلى ثلاث مجموعات تتكون كل مجموعة من مسلحين اثنين أو ثلاثة في أقصى حدّ. وكان رفيقي في الرحلة **نفيس.** انطلقنا بعد حلول ظلامٍ مزدوج الهوية: مرة بسبب هبوط الليل، ومرة أخرى بسبب تكاثف الغيوم المهدِّدة بسقوط الأمطار. كنا مازلنا في عراكنا مع أبالسة الحصن المنيع نتوهّم أن الظلمة يمكن أن تجيرنا من أعيرتهم النارية اللعينة، لأن غرائزنا نفسها كانت ترفض أن نقع ضحايا طلقات عدوٍّ تفصلنا عنه بضعة كيلومترات، وفوق هذا تحت سمع وبصر ظلمة الليل ! احتجاج الغريزة كان ترجمةً لكلمة الطبيعة بالطبع. كلمة الطبيعة في الخصام مع العقل الذي انتهك حُرمتها فانتزع من صُلبها **سرّ التقنية.** وكان العقيد سالم يطوف جموعنا منبّهاً إلى وجوب الحذر، ومذكّراً بالشرَك كأنه نذير القرون الماضية. وبرغم ذلك لم يبخل علينا بالوصية في



هذا الشأن للمرة العاشرة قبل انطلاقنا. بلى! الليل منذ الليلة لم يعد ليلاً. الليل بفضل التقنية لم يعد لباساً، لأنه لم يعد ظلاماً. الليل منذ الليلة في عدسات الرؤية نهار وأوضح من نهار ! انطلقنا من نقطة لا تبعد عن المرفأ كثيراً. نقطة كانت خارج مدَى القنّاصة ، ولكنها صارت في مرماهم بعد مسافةٍ قصيرة. حرصنا أن نتنقّل متباعدين قليلاً. نستجير بجذع شجرةٍ هنا، وبجدارٍ هناك. ولكننا عندما اقتربنا من الخلوة الواقعة بين آخر جِرمٍ يفصلنا عن صفوف البيوت توقفنا. لم نكن على يقين بالطبع أنهم لم يلحظوا تحرُّكنا، فربما ترصّدونا منذ وقوعنا في مرمى أبصارهم، ولكنهم تريّثوا ريثما نطمئن في مغامرتنا ليحصدونا! لقد فعلوا ذلك مع رفقاء كثيرين منذ احتلالهم البرج الأسطوري. حاولنا أن نتبيّن السبيل إلى أول بيتٍ فلم نجد سوى برميل القمامة منتصباً في العراء. كانت البلدية قد تكرّمت منذ مدة وجيزة باستبدال البراميل القديمة ببراميل جديدة، رصاصيّة اللون، بحديدٍ متين ، مزودة بعجلاتٍ أيضاً بعد أن تخلّصت من قِطع الصفيح المُخجلة التي كانت مستخدَمةً في المدينة زمن العقوبات الاقتصادية التي تراكمت فيها القذارة في الشوارع حتى غزت الديدان البيوت المجاورة! وكانت لفتة البلدية الأخيرة بُشرَى ترجمت البحبوحة الناتجة عن قفزة

أسعار النفط لتتجاوز المائة والخمسين دولاراً للبرميل ليغرق البلد في خِضمّ عوائدها، وكان **نصيبنا** من هذا الكنز المذهل هو هذه الصناديق الأنيقة، المزوّدة بعجلات، المعدّة لاحتواء القمامة، التي تنتصب أمامنا في الطرقات كالأشباح!

أومأ لي نفيس فقفزت. بعد ثوانٍ كنا نحتمي بجُرم الصندوق. قدّرنا المسافة بيننا وبين مدخل أول بيتٍ فوجدناها محفوفة بخطرٍ لا ريب فيه. تدارسنا الوضع لحظات فتوصّلنا إلى نتيجةٍ مفادها أننا لم نأت لنموت في منتصف الطريق، ولكننا أُوْكلنا بمهمة **نُحيي** بها الأهالي. بعدها زحفنا إلى الأمام دافعين أمامنا الصندوق المحشوّ بأكياس القمامة. ولكننا في اللحظة التي أيقنّا فيها بالنجاة تلقينا من عسس البرج **الهدية** المنتظرة ! توقعنا أن نتلقى إطلاقة، إطلاقتين، مسدّدتين بدقّة، ولكن القذيفة كانت آخر ما خطر لنا على بال! أطارت البرميل إلى المجهول لأجد نفسي مستلقياً على ظهري بجوار الجدار. جدار أول بيت. كنت مغموراً بالأوساخ الملفوظة من جوف صندوق القمامة، والآلام تُزلزل كل البدن، ولكني لم أغِب عن الوعي لأني كنت أول من صاح باسم نفيس مستفهماً عما إذا أصيب. لم يستجب لندائي الأول، وعندما كرّرت النداء وجدته يقف فوق رأسي وهو يغالب الضحك سخريةً من وضعي



المغمور بأشلاء القذارة. ولكنه ابتلع ضحكته فجأة ليُطمئنني: «بخير! أنا بخير. المهم أن تكون أنت بخير!».

انحنى فوق رأسي. تمتم في الغيهب بصوت أنكرته: «أنت تنزف! ». لم أشعر أني أنزف، لأن المطر كان قد بدأ يهطل في تلك اللحظات بغزارة فنال البلل كل شيء. هبّ لنجدتي. أسندني إلى الجدار وقال إننا نجونا بأعجوبة وطمأنني أننا في هذا الموقع نحن الآن في أمان كأنه يعتذر لي عن ضحكته المنكرة منذ قليل. بعدها تفحّصني فحصاً عابراً قبل أن يزفّ لي بشارة تقول إني لم أُصَب بعيارٍ ولا بشظية، ولكن الخدوش هي سبب النزيف ! كان المطر قد تمادى عندما أفلحنا في لملمة جراحنا وطرق أول باب في السلسلة. لم ننتظر طويلاً. خرج لاستقبالنا شيخٌ في العقد السادس أو السابع. شيخٌ وقورٌ لا أعرف أين رأيته مراراً. أجلسنا في دارٍ فسيحةٍ تتوسّطها أرائك وثيرة ووقف يقترح عوناً هو أعجز على تحقيقه كما عبّر بوقفته البلهاء! طمأنه نفيس بعبارة عابرة ثم حدجني كي أبدأ. **بدأتُ!** بدأت في سرد **المشروع الجنوني** على الفور! قلت إننا وقعنا أسرى في قبضة قنّاصة البنيان، وسوف لن ننجح في صدّ العدوان على الأعراض ما لم تُصبح تلك العصابة **في مرمى أسلحتنا**. والدليل أن الحيّ كله، بل والمدينة كلها، صارت

رهائن لبنادق القتَلة، وقد تشاورنا طويلاً فلم نجد سوى حفر سردابٍ **يخترق البيوت** للاقتراب من معقل الشرور ذاك! سردابٌ يخترق البيوت؟ استنكر الرجل وازداد في وقفته عجزاً. ولكننا لم نرحمه. قلت إن الأصحّ أن نسمّيه **جُحراً**. جُحراً عبر الهواء. أو فلنقل الجحر المعلّق! ثم التفتُّ إلى نفيس مستنجداً. وعندما لم يهرع لنجدتي قلت إن زميلي يمتهن الهندسة وهو الأحقّ بأن يخبرنا ماذا يمكن أن يسمّى هذا العمل في لغة المعمار. ولكن نفيس انكمش حول نفسه في الأريكة كأنه يُعلن تخليه عني تماماً ! تأمّلنا الرجل لحظات قبل أن يُغمغم بعبارةٍ لم أتبيّنها. ويبدو أنه لم يفهم من السيرة سوى رغبتنا في إنجاز عملٍ رآه ضرورةً في **حملة الدفاع عن الشرف**، فحاول أن يستفهم، ولكن عندما أعجزته العبارة استجار بالموافقة ، لا لأنه اقتنع، ولكن **ليتحرر**، وربما تلبية لنداء الثقة. بشّر بالقول: «افعلوا ما ترونهُ مناسباً!» كان ذلك تصريحاً. كان بالنسبة لنا **وثيقة** أعانتنا في انتزاع الموافقة من أرباب بيوت الجوار، استخدمنا العبارة كجواز سفرٍ حقيقي، كحُجّة. قبل أن ننصرف أخبرْنا ربّ البيت أن عملنا سيبدأ فجراً، وربما الليلة، ولكنه استوقفنا بعبارة كأنها وصية مجهولة: «كنت أعلم أن تلك البناية لن تجلب على هذه المدينة سوى اللعنة!».



في زحفنا عبر بقيّة البيوت استخدمنا الموافقة الأولى كتعويذة لنيل الموافقات التالية. إنه عزفٌ على وتر **الطبيعة الإنسانية** المستخدم عادةً في جمع التبرعات. فإذا جاد الجار بمائة دينار تبرُّعاً لمشروعٍ خيريّ، فإن ذلك حافزٌ كافٍ للجار التالي كي يتبرّع بما لا يقلّ عن المئة، بل العُرف يقضي بأن يفوقها. إنها قراءة حكيمة في نفسيّة أناسٍ عاشوا منذ الأزل بناموس العُرف المتوارث جيلاً عن جيل، واستمرّوا يعيشون في ظله بعد أن رأوا **كيف تخذلهم القوانين الوضعية بناموسها الوضيع كل يوم !**

ولكن الخطوة التي تبدأ بالحظّ لا تنتهي بالحظّ ! وهو ما تعلمناه في الأيام القليلة الأخيرة بالحرب ولم نتعلمه في سنواتٍ طويلةٍ بالسِّلم ! ففي منتصف السبيل اعترض مسيرتنا حجر العثرة: رجل في العقد الخامس أو السادس قيل إنه تنقّل في مهنٍ كثيرةٍ بدأت بصيد الأسماك قبل أن تعود لتنتهي بصيد الأسماك بعد أن طافت الدنيا عابرة متون حِرَفٍ أخرى كقيادة الشاحنات الحاملة للبضائع نحو مدن الدواخل، ثم امتهان ما سُمّي بالاستصلاح الزراعي الذي لم يكن في الواقع إلا **تخريباً زراعياً** بامتياز، ثم فتح حانوتاً لبيع المواد الغذائية، ثم ورشةً لإصلاح الإطارات. طاف الرجل كل هذه المهن التي افترست

عمره كله كي يبتني هذا البيت ذا الطابقين. قال لنا إنه لم يحلم في دنياه بشيء كما حلم بامتلاك بيت. **حلمٌ** رافقه منذ الطفولة، ربما لأنه نزل هذه المدينة يوماً مهاجراً، أو فلنقل طريداً من جدب الصحراء في الأزمنة الأخيرة فوجد في البحر صحراء من ماء، فأحبّه كما أحبّ الصحراء. ولذلك عمل صيّاد أسماك لكي يحيا في البحر. ولكنه اكتشف أن عمل البحر لا يُطعم خبزاً فكيف يساعد في بناء **البيت؟** هنا بدأت هجرته الثانية عبر المهن. وعندما جمع ما مكّنه من بناء **البيت** قرشاً قرشاً تخلّى عن المهن، كل المهن، ليعود إلى أحضان معشوقه البحر. وقف في مواجهتنا وقال بلهجةٍ تُترجم التحدّي: «هذه الجدران التي تحيطكم ليست جدراناً، ولكنها..». سكت. سكت فحاول نفيس أن يشدّ من أزره: «ولكن ما نراه ليس سوى بنيان.. ». ولكن الرجل عاند: «كلا! كلا! أنت تخطئ! ما تراه الآن ليس بنياناً، ولكنه.. ولكنه أنا!» تبادلتُ مع نفيس نظرة. كان جرح الرجل قد لامَسَنا، ولكننا لم نكن نملك ما نقدّمه له كعزاء فنكّسنا. حشرج بلهجة من يحدث نفسه: «هذا ليس **بيتاً.** هذا جسد إنسان. هذا **جسدي أنا**، أم أنكم تظنّون أني ابتنيت هذا الجسد بالمال؟ كلا! أنتم تخطئون. لقد بنيت هذا المكان **بشيء آخر**..». سكت فواساه نفيس: «بناء **البيت حُلم** كل منا!».



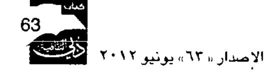
ولكن المريد لم يقتنع: «كلا، كلا! حلمي بالبيت لم يكن **ككل الأحلام!** حلمي بالبيت كان..». أعجزته العبارة فامتنع. زفر أنفاساً سخيّة قبل أن يشيّع نحوي سحنة موسومة بالحزن. سأل: «من منكم يضمن أن الاختراق كما تسمونه لن يزعزع أركان البيت؟». أحلتُ السؤال إلى نفيس: «زميلي يمتهن الهندسة وهو بشؤون المعمار أعلم!». ولكن نفيس خذلني لأنه آثر أن ينتصر **للحقيقة** برغم القسوة: «لا أحد يستطيع أن **يضمن** أنه لن يسقط! الرهان هو إلى **متى** سيصمد!». تأمّلنا الرجل مليّاً، ثم انسحب. انسحب بهدوء ليعود بعد دقيقة حاملاً فأساً يدوية من الطراز القديم. قدّمها لي قائلاً إنه حفر أساسات هذا البيت بهذه الفأس. نكس لحظات ثم أعلن قبل أن يتركنا ويصعد الدرج إلى أعلى: «احفروا بهذه الفأس، واعلموا أنكم بهدم الجدران قد قتلتم إنساناً!».

١٨

اليوم عرفتُ أن إسمها «سدرة»!

انتظرت حتى انصرف أضياف الغصب فتململت مسخّراً الحواس كقرون استشعار قبل أن أزيح كيس الإسمنت العلوي وأطل من الجوف بحذر فأر! وبالطبع كان أول ما فعلته هو تفقد برج الحلم في وقفته المكابرة في البعد. كان مقنّعاً بشتات سُحبٍ استنزفت حمولتها في الليل، فلم يبقَ من سوادها الأعظم سوى الفلول.

يمّمت نحوه لأمارس صلاة كل يوم: أكحّل العين بالمشهد قليلاً، ثم أجدّد بيني وبين نفسي العهد، قبل أن أنطلق لقضاء الحوائج كما يفعل كل الأحياء في هذه الأرض. كان لا بدّ من ممارسة الطقس لكي أقنع نفسي بالبقاء على قيد الحياة. كي أبرهن على أحقيّتي في البقاء على قيد الحياة. لأن ما يحتاجه الإنسان في سبيل هذه الجدارة هو وجود غاية، ثم السعي في الأرض لتحقيق هذه الغاية. السعي للوصول إلى هذه الغاية. وغايتي إذا كانت الوصول إلى الحصن، فإن السعي لاستكشاف ما استجدّ في المكان، أو التجسّس على المفرزة التي تحتل المكان، هو وسيلتي الوحيدة لنيل الغاية.



نـزلـتُ الـدرج بعد استنفـار حـزمـة الـحـواس لـحدودهـا القصوى ! كـان أنفـي ينزف بسبب الحساسيـة التـي استفزّتـهـا رائحة الإسمنت، ونزلت لأطرق بـاب الـجـارة بحثـاً عن مرهمٍ أو قطعة قطنٍ لإيقـاف النزيف. في هذه الزيـارة فقط تنـازلت عن استكبـارهـا (أو مـا حسبته استكبـاراً) لتتطوّع فتخبرني بـأن اسمهـا «سدرة» كـأنـهـا تتبرّع لي بإحسان سخيّ ! تحدثت عن القذيفة التـي أحرقت مخـازن الوقود البـارحة، وعبّرت عن خوفهـا من انقطـاع الكهربـاء. كـانت تستخرج العقـاقير من صندوق الاسعـافـات الأولية وتطوف حولي كـالطيف لمعـاندة النزيف في أنفي. وفهمت لمـاذا أطلقت الأمـم اسم «ملاك الرحمة» على المرأة الممرّضة، لأن المرأة لا تتفتّح خزائن حنـانهـا كمـا يبدو إلا عندمـا توكل لـهـا مهمّة العنـاية بـالرجل في الوضع الذي يكون فيه جديراً بـالعنـاية، في وضعٍ يكون فيه **عاجزاً** عن العنـاية بنفسه، في الوضع الذي يستعير فيه خصـال الطفولة، وضع اللاّحول ولا قوة. ولا أعرف لحظتها لمـاذا استشعرتُ خزيـاً خفيّاً! ربمـا لأنـي لست جريحـاً حقيقيـاً كي أحظى بهذه العنـاية حتى أني ضبطت نفسي متلبّسـاً بـأمنية أن أكون جريحـاً كي أحظى بعنـايةٍ أحقّ من أنـاملهـا اللميسة كأنهـا أصـابع ملفّقة من خزّ! ومـا استثـارني أكثر هو **العطر**. تنسّمت

رائحة عطرٍ ينبعث من جسدها أيقظت في قلبي حنيناً كالوجد. وجد أنساني البرج وغيّب عنّي الحرب. ولكن تلك النشوة لم تدم سوى لحظات، لأنها ما لبثت أن أضافت في تعليقها على قصف مستودعات الوقود: «لا أعرف ماذا سيحلّ بنا إذا انطفأت الكهرباء! الصغيران لم يحتملا ما يجري، فكيف إذا أُضيف إلى هذا البلاء الحياة في الظلام؟». طفلاها مرعوبان بالفعل. الحرب حفرت في نفسيهما جرحاً سيحملانه في الروح صليباً إلى الأبد. سيماء الجرح مسطّر على وجهيهما منذ وقع بصري عليهما في أول يوم. ظننا أننا قدّمنا لهما هِبَة نفيسة يوم الهَبَّة، ولكنها هِبَةٌ باهظة الثمن كما اتّضح.

في تلك المرة استضافتني سدرة بفنجان قهوة لأول مرة. يجب أن أعترف بأن القهوة كانت دوماً نقطة ضعفي. إحدى نقاط ضعفي دون أن أدري لماذا، ليس القهوة كمذاق، ولكن القهوة كرائحة. بلى! في رائحة القهوة يسكن مجهولٌ لم أجد له تفسيراً. ربما ذكرى منسيّة لوحيٍ مفقود! **حلمٌ ما مرسومٌ في لوح غيوب!** وقد أضافت «سدرة» لهذه الرائحة في القهوة شذى العطر الذي أيقظ في الوجدان حنيناً غيبياً أيضاً كأنه الوجد الذي يروي دراويش الزوايا الصوفية عن مفعوله الأساطير!

١٩

صرتُ مع نفيس سجينين في نفقنا المعلق.

قطعنا شوطاً بعيداً في مسيرة الإطاحة بالجدران، الجدران التي يعلم الله كم عانى أهلها في سبيل تشييدها وكم أنفقوا من جُهدٍ ومن أموال. ولكن الحرب هي المكوس التي تستوجب الدفع من قِبل الكل. فإذا كانت حرباً في سبيل استئصال الورم الخبيث فإن الفاتورة المستوجبة سوف تتضاعف حتماً. وقد قرأنا هذا المستوجب في سيماء أرباب العقارات التي نفذنا منها بوضوح. كان الواجب يمتزج بالوجع في سيماهم، ولكن الحياء كان يغلب في كل مرة فيهرعون لإطعامنا، وجلب الأغطية لإيوائنا، خلال كل رحلتنا العصيبة نحو فردوسنا المفقود: «بنيان الضمان»!

أما صلتنا بالرفاق فكادت تنقطع بسبب سلطان التنّين الذي يجثم على البرج ليصطاد ببنادقه الرهيبة كل من سوّلت له نفسه اجتياز المرمى الواقع تحت رحمة فرسان القنص هؤلاء. فكنا نقنع بما يزوّدنا به أهالي البيوت التي نقتحمها عن وضع الجبهة، وعن معنويات الشباب، وعن الموقف في الميناء، وعن آخر جرّافة سلاح ألقت بمرساتها على الرصيف، وعن آخر الضحايا، وعن نوايا العدوّ، وعن آخر التطورات في

جبهات المدن الأخرى سواء في الشرق، أو في الغرب، وعن محفل الأمم، وعن «طير أبابيل» الذي سيهرع لنجدتنا جواً تنفيذاً لمشيئة محفل الأمم، والأهمّ.. عن حال عمليّات الحفر في صفوف الضفة الأخرى من البيوت السائرة أيضاً صوب القبلة، صوب قبلتنا الأولى والأخيرة: بناية الضمان!

كانت بعض الأخبار تشعل حماستنا، وكانت أخرى تخيّب أملنا، بعضها كان يَصدُق، وبعضها الآخر كان يَخذُل. ولكننا عرفنا كيف نكتفي بأنفسنا، ونستمتع بعزلتنا، في حِمَى أُناسٍ ظلوا يطعموننا، في حين دأبنا على تحطيم قلوبهم بنسف أملاك سكنت قلوبهم، لأن قلب الإنسان في ما امتلك كما يقال، كأننا ندفع لهم نكراناً بدل أن نجيب على إحسانهم بإحسان كما يليق **بالمؤمن** أن يفعل. الإيمان؟ وهل في الدنيا إيمانٌ أعظم شأناً من **الإيمان بتحرير الأحلام المغتصبة؟**

بفعل هذا الإيمان كنا سعيدَين! كنا سعيدين في معمعان الحرب. ولكن الحظوظ، كما يبدو، قَدَرٌ حَسودٌ. بل لا نستمدّ مثالنا الأعلى في رذيلةٍ كالحسد إلا من حسد الحظوظ. وها هي تبخل على شخصي القنوع حتى بهذا النزر اليسير من سعادة الحرب: سعادة **رفقة متوّجة بأداء واجب!**

ففي صباح أحد الأيام ولولت في الفضاء قذيفة غادرة



لتسقط في خندقنا. قذيفة طائشة، أو موجّهة، انطلقت من فوهة مدفع، أو من جوف دبابة، أو من مخزن راجمة، أو من ماسورة محمولة، لتنسف سعادتنا وتنثرها في الفراغ شظايا!

كنت قد صحوت فجراً. غسلت وجهي بحمّام الطابق السفلي الملحق بدار الضيوف ككل بيوتنا التي أخلاها صاحب المنزل ذي الطابقين كي تكون لنا مأوى إلى حين عبورنا إلى الجدار التالي. غزت أنفي رائحة القهوة فعرفت أن نفيساً داخل المطبخ لإعداد الإفطار. في الخارج تواصل هدير الأسلحة بكل الأنواع. وكان المنزل يستجيب من حينٍ لآخر برجّة تعقبها رجفة في زجاج النوافذ كأنه إيقاع طبيعي. إيقاع طبيعي؟ الواقع أننا استمرأنا الحرب حتى بات تبادل إطلاق النار في آذاننا معزوفة موسيقية. وها هو الإنسان يبرهن على قدرته باعتياد كل شيء بما في ذلك الموت!

في اللحظة التي قفزتُ فيها نحو الموقع استعداداً لاستئناف العمل، ممنّياً نفسي بالقهوة المنتظرة زغرد في أذني «نداء الموت» كما اعتدنا أن نُسمّي هذا الجنس من القذائف. والمسافة الفاصلة بين سماع الزغرودة ووصولها الهدف لا يستغرق غمضة عادة، بل في الواقع وصول القذيفة رهين سماعها.. فوجدت نفسي طريحاً. طريحاً؟ كلا بالطبع. أفقت من غيبوبةٍ

بعد أمدٍ لم يُكتب لي أن أقدّره بسبب فقدان الوعي. أفقت ليقع بصري على نفيس: كان طريحاً إلى جواري يحوم حوله ربُّ البيت وشبح امرأة، امرأتين! ظننته مغمىً عليه مثلي، فأغمضت عيني لأعاند ألماً في عظمة الكتف اليسرى. ألمٌ لا يُطاق، ودوارٌ و.. غثيان. فتحت عيني مرة أخرى خوفاً من أن أعود فأفقد الوعي. في اليقظة الثانية فقط أبصرت ما حلّ بقريني المسكين: وجهٌ مغسولٌ بالدم افترست القذيفة نصفه وغيّب النزيف ملامح النصف الباقي. خُيِّل لي أيضاً غياب الذراع اليمنى (أم اليسرى؟) كأنها اجتُثَّت من المنكب بوحشيّة. انتابتني رغبة في القيء، ولكن القيء أعجزني بسبب خواء الأمعاء. حام حولي أهل البيت بعد أن يئست العائلة من إنقاذ نفيس. بذلوا ما بالوسع لتضميد الإصابة في الكتف الأيسر. في اليوم التالي حدثني ربّ البيت فقال إن جرحي لا يستدعي جراحة بفضل العناية الإلهية، و.. بفضل تضحية نفيس. تضحية نفيس؟ بلى! نفيس كان قد أدرك المكان ووقف خلفي لحظة النواح، نواح القذيفة، فألقى بنفسه فوقي في الحال: أطاح الانفجار بالمدخل، وبدّد الباب الرئيس تبديداً، وطالتنا الشظايا لتُمزّق جسد نفيس. كنت طريح الفراش بالطابق الأرضي، عندما تذكرت سيرة تضحية الجنود الإنجليز في حرب العلمين. كنت أنزف دماً بدل



أن أسفح دموعاً عندما طافت بالذاكرة هذه السيرة التي رواها لي أخي من جهة الأب الذي تخرّج في الكلية العسكرية منذ سنوات وانقطعت عنّا أخباره منذ بداية الأحداث. شائعات قالت إنه انشقّ عن جحافل البعبع أسوة بالكثيرين ليلتحق بكتائب الأمل التي تحارب على إحدى جبهات الشرق، وشائعات أخرى نفت سيرة الانشقاق لتؤكد ولاءه لقادة الجيش المرابط حول الحاضرة، ولكن أسوأ الشائعات هي تلك التي تحدّثت عن مقتله منذ الشرارة الأولى على يد رؤسائه بسبب رفضه تنفيذ أوامر بإطلاق النار على جموع العزّل في إحدى المدن المجاورة للحاضرة. سيرةٌ كانت النموذج المعبِّر عن حال كل أسرة، وكل سليل أسرة، في بلبلة تلك الأيام التي تضعضعت فيها كل قيمة لتمتزج الحقيقة بالبهتان، الوفاء بالخيانة، البطولة بالخِسّة، الحياة بالموت، لأن لا أحد من أبناء الجيل توقّع أن يحيا يوماً يقلب فيه القدر ظهر المجنّ ليصبح كل شيء بين ليلةٍ وضحاها مُباحاً بما في ذلك ارتكاب المناكر كالقتل وانتهاك الأعراض ! أما بالنسبة لفئران الكتب أمثالي (على قلّتهم) فإن ثقتنا بأنفسنا (أو ثقتنا بما قرأنا بالأصحّ) من الطبيعي أن تكون على المحكّ لتكون حياتنا معها على المحكّ، لأن وصايا الكتب التي لا تملّ من العزف على وتر عدم وجود أيِّ أمان في

حضرة الزمان، لا بد أن تنقلب تحدّياً قاسياً في المواجهة مع حدثٍ كالذي حدث للبرهنة على جداراتنا بالدفاع عن أحلامنا قبل كل شيء، ولنُثبت لأنفسنا قبل الأغيار بأن الفئران التي تحترف نهش الكتب لها القدرة أيضاً على **تدمير سدّ مأرب!**

وإذا كان من حقّي كشاهدٍ على ما حدث أن أدلي بشهادتي موجزة في جملة واحدة فلعلّي لن أزيد على أن أقول إنها ملحمة انكسارات الروح التي لا يجود التاريخ بمثيلها قريباً، وإلا ماذا يمكن أن نسمّي تلك النازلة التي تُبيح للجار أن يغتصب امرأة الجار، وتُشرّع للأخ بأن يقتل أخاه، إن لم تكن على نحوٍ ما يوم نقض العهد وانكسار أرواح الأخيار الذي لن يكون في لغة الناموس غير يوم قيامة؟

أخي هذا كان في عداوةٍ مكتومةٍ مع الأب لا أدري لها سبباً. ربما تعاطفاً منه مع الأم التي طلّقها أبي قبل أن يعي الدنيا فتربّى في كنفها كاليتيم، وهو ما لم يغتفره «ميسور» للأب حاله حال أبناء كثيرين عاشوا تجربة طلاق الأبوين ليقعوا بالتربية تحت تأثير أمهاتٍ جريحات لا بدّ أن يورّثن الأبناء كراهتهن لآباء الأبناء. هذا تأويل أمّي التي لا تجد حرجاً في أن تضيف لتأويلاتها قائلة إنها هي أيضا لن تغفر لأبينا فيما إذا طلقها وسوف تسمّمنا ضدّ الأب لأن هذه هي طبيعة الأشياء.

وبرغم علاقة «ميسور» المعقّدة مع الأب، وبرغم ندرة زياراته لبيتنا إلا أني يجب أن أعترف بكفاحه في سبيل ترجمة أُخُوَّته لي شخصياً إلى واقعٍ دون أن أجروَ فأسمّي تلك المراسم الحذرة أمام الأغيار **حُبّاً** ! وكنت له ممتنّاً على مثل هذه المراسم في ظلّ علاقته مع الأب، هذه العلاقة التي كانت تزداد سوءاً يوماً عن يوم بدل أن يحدث العكس بتقدم العمر كما يُملي المنطق. ولم يتح لي يوماً أيضاً فرصةً للتعبير عن معنى أن يكون للإنسان أخٌ أكبر سيّما إذا عدم وجود أخٍ أصغر أيضاً. إنه إحساس آخر يختلف عن العاطفة التقليدية نحو الأبوين، ربّما لأن الإنسان لا يستطيع أن يفخر بحضور الأبوين إلى جواره، ولكنه يملك الحقّ في أن يتباهى بوجود الأخ في حياته. لأن الكل وُلد من أبوين، ولكن لم يحظ الكلّ بنيل الأخ، الأبوان في الصفقة قاعدة، ولكن الأخـوّة للقاعدة استثناء، ويُخيّل لي أنه كان يعاني من المحنة نفسها (محنة الظمأ لوجود الأخ، أو محنة غياب أخ من الحياة برغم وجوده على قيد الحياة)، ولكن لم يستسلم لهواه بسبب الكبرياء الجريحة. ولهذا أستطيع أن أسمّيه حبّاً عن بُعد، **حباً متبادلاً** ولكنه عن بُعد ! لأن تردّده لم يكن ليسمح لي بالارتماء في أحضانه لأعبّر له عن حبي، لأن تلك خطوة من شأن الأخ الأكبر نحو الأخ الأصغر.

ولكني لم أشكّ في أنه آثر أن يرعاني من بعيد، كان يُجالسني على انفراد في زياراته النادرة إلى بيت العائلة . يدخل غرفتي ليتصفّح الكتب صامتاً، يروق له أحياناً أن يعلّق بعبارةٍ أو عبارتين في مثل هذه الزيارات كأن يقول: «عظيم أن تقرأ الكتب!»، أو «يُقال إن الأهم من قراءة الكتب هو معرفة الكتب التي يجب أن تُقرأ!»، وفي إحدى المرات باركني قائلاً: «يسّرني أن أجد من تستهويه الكتب في مجتمعٍ يُعادي الكتب!». وإذا حدث والتقينا في مكانٍ عام فكان يحيّيني بإيماءة كأننا لم نفترق إلا منذ لحظات. يفعل ذلك كي يوحي للآخرين بالبرود التقليدي الذي يروق للأخوة عادة أن يخفوا به حميمية العلاقة، ويوم روى لي سيرة الإنكليز كنا قد التقينا مصادفة في حديقةٍ عامّة بعد غيابٍ طويل.

استفهمتُ عن الغيبة فقال إنه كان في رحلة عمل إلى الشرق، دعاني للجلوس في مقهى بالحديقة على غير عادته. سألني عن الأب، عن الأم، ثم.. عن شريكهما الوحيد: **الكتب!** جاء النادل فطلب قهوة، وكم دهشت عندما سمعته يطلب لي قهوة أيضاً، كأنه كان يتجّسس عليّ دون أن أدري وإلا من أين له أن يعلم بهوسي بالقهوة؟ توضحني بفضول لم يكن من عادته يوماً قبل أن يبدأ في سرد سيرة أجناد الإنكليز. قال

إن رئيسه اختاره لمرافقة جنرال إنكليزي متقاعد جاء لزيارة أحبّاء في مقابر الحرب العالمية الثانية المتاخمة للحدود مع مصر مستعيناً في دخول البلاد بإحدى الوكالات السياحية. قال إن رئيسه أخبره أن الوكالة خاطبت المؤسّسة العسكرية طلباً للإذن بعد أن أوضحت قيام الجنرال الزائر بتسديد كل تكاليف الرحلة مسبقاً بما في ذلك الطائرة المروحية التي ستُقلّه من مطارات شرق البلاد إلى مقابر الحرب بالحدود، ولم يبقَ سوى إذن السلطات والمُرافق الأمني.

حزم أمتعته وغادر إلى المطار حسب الموعد المحدّد. هناك فوجئ بعجوزٍ يناهز التسعين عاماً يتوكأ على عكاز. عكاز؟ على عكازين: عكاز أنيق مطعّم بعروق الفضة، وعكاز مسبوك من جسد إنسان هو مندوب الوكالة السياحية ! وهو ما أوحى ببحبوحة العجوز المادّية مادام يسمح لنفسه بتغطية النفقات المترتّبة على المرافقين إلى جانب المروحيّات وبقية المصاريف التي شملت أيضاً تكلفة المواصلات البريّة من طبرق حتى الموقع المستهدف في الصحراء عند الحدود، هناك، حيث عسكرَ، كما تحدّث ميسور، قبل أن يستعير لسان الشاعر ليضيف: «كان الجنرال العجوز يطرح في حِجره خارطة للمكان ظلّ يدسّ رأسه في متاهاتها المفترضة طوال

الطريق إلى الموقع الذي عبره منذ ما يزيد على الستين عاماً خلَتْ! ولم يظنّ أن القدر سوف يمهله كل هذا العمر كي يعبره مرة أخرى، كما عبّر، وكنت أتأمّل رجفته وهو يعاند الخارطة المطروحة في حجره، كأنها قرطاسٌ مستغلق يرفض أن يبوح بسرّه دون طقوس الاستعطاف تلك! وكان يشيّع رأسه الضئيل من حينٍ لآخر ليستطلع الصحراء بعينيه المستورتين بزجاج عدستين ثخينتين وهو يرطن لنفسه كلاماً بالإنكليزية كأنه يحدّث أشباحاً لم أتبيّن منه سوى عبارة مثل: (The desert is the desert for ever , nothing can changed in the desert !)

وكنت أحاول أن أتخيّل موقفه لأحيا حلمه الزائل الذي يستميت الآن كي يستعيده، لأني لم أكن بالبلاهة التي تجعلني أتوهمّ أنّ جنرالاً عجوزاً متوقّع أن يطرق الموت بابه في أية لحظة يمكن أن يكلّف نفسه عناء رحلة إلى الصحراء الكبرى، لمجرّد التسلية، أو لإحياء ذكرَى، أو لاستعادة ماضٍ ضاع مهما كانت حميميّة هذا الماضي.

لقد اشترى كل ما استطاع أن يحصل عليه من ورودٍ في أسواق المدن التي مررنا بها، ثمّ قام بنفسه برشّها بالماء كي لا تذبل في منتصف الطريق. وهي الورود التي تفقّدها طوال

الرحلة، وأغدق عليها حناناً أكبر ممّا لو كانت كنزاً؛ حنان أمٍّ تهدهد رضيعها الهشّ! وكان في يقيني على حقّ لأن لا وجود في الطبيعة لشيء أكثر هشاشة، وأكثر استحقاقاً للحنان من : وردة ! وهو حنان تحوّل وسوسة فاجعة عندما بلغنا الموقع وعثر العجوز على كنزه المفقود: كانت تبرز في العراء الصارم، المفروش بحصباء اسودّت بفعل شمس الأبد، ربوة عزلاء تقف في الخلاء كأنها نصب تذكاريّ لجنديٍّ مجهولٍ . تحت الرابية المقنّعة أيضاً بحبيبات الحصباء تجاورت ثلاثة أضرحة من النوع المنتشر في الصحراء الدّال وحده على حضور الإنسان يوماً في هذه البيداء، قبل أن تتصحّر الصحراء وتتحوّل إلى بيداء. أضرحة تبدّت أحدث عهداً، وأكثر تواضعاً، من الأضرحة الأقدم عهداً، والأعظم حجماً، أضرحة مغطّاة بالتراب المخلوط بالحصى، والمشدود في الأعلى بألواح حجارة كئيبة حرصاً على الأجداث من لؤم الرياح، وتحصيناً للرّمَم من نهم الذئاب . ولا تستطيع أن تتخيّل كم تحسّرت لأني لم أكن كاتباً كي أعبّر عن مسلك العجوز ساعة وقوفنا في حضيض النصب التذكاري، أمام الأضرحة الثلاثة، كأن الطبيعة هي التي تنازلت عن ناموسها وذهبت بالرابية لتكون لثالوث الأجرام في ذلك الخلاء الخالي نصباً تذكارياً وعلامةَ دالّة، كأنّها

تترجم اليقين الذي يردّده النصارى في لغتهم والقائل: «إذا لم يذهب محمد إلى الجبل، فإن الجبل يذهب إلى محمد!».

سكت ميسور، تطلع إلى شجرة السنديان الضخمة المنتصبة في قلب الحديقة، المستزرعة من قبل السلطات الإيطالية زمن الاحتلال، ثمّ واصل سرد السيرة بلهجة الحالم كأنّ روح الجنرال هي التي تلبّسته: «كم تمنّيتك أن تراه وهو يركع في حضرة الأضرحة ويصلّي! كم تمنّيت أن يراه كلّ من فقد عزيزاً كي يتعلم من ذلك العجوز الهزيل درس الحضور في الموت، درس المثول بين يديّ من أحببنا برغم الموت، رغم أنف الموت. ركع هناك ساعات . ليس ذلك فحسب، ولكنه بات ليلته كلّها ساهراً يتلو وصاياه بصوتٍ مسموعٍ ويجوس بين الأضرحة المغمورة بظلمات الليل كالشبح. حاول السائق ومرافق الوكالة السياحية أن يستوقفوه لتناول طعام العشاء، ولكنّي منعتهم بإيماءة، وأمرتهم أيضاً أن يلزموا الصمت. في الليل صَحَوتُ على دبيبه في المكان. توضّحتُه على ضوء قمرٍ مشطور إلى نصفين فرأيته يلتقط يبيس حشائش طيرتها الرياح فعلقت في شقوق الألواح الحجرية. في الصباح وجدنا الألواح التي تستر القبور الثلاثة مفروشة بالورود، والجنرال التليد يقبع في مواجهتها ككاهنٍ وثنيّ قديم ! وعندما فرغ عبّر لي بصوتٍ غريبٍ عن رغبته في

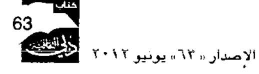
المغادرة. اقترحت أن يتناول طعام الإفطار بعد صيام الأمس، ولكنه أصرّ على المغادرة في الحال. في طريق العودة نام. نام في السيارة كطفلٍ. كأنه تحرّر من روحه في تلك الزيارة وعاد من الرحلة خاوياً ! ولِمَ لا؟ أليس الفراغ من أداء الواجب حرية نستحقّ عليها مكافأة النوم بهدوء؟ الواقع أننا لا يجب أن نخلد للنوم قبل أن نؤدّي واجباً! ولكنه لم يسرّ لي بسرّ الأضرحة إلا يوم عدنا إلى طرابلس وذهبت برفقته إلى المطار لإتمام إجراءات سفره . يومها فاجأني بسؤالٍ أثناء جلوسنا بصالة الانتظار يقول حرفياً: «بماذا ستكافئ إنساناً أهداك عاماً إضافياً من العمر بعد يقينٍ بهلاك؟» تأملت السؤال، ولكني لم أعرف بماذا أجيب. سكتُّ لحظات ثم ردّدت ما يقال عن طبيعة الإنسان الناكر للإحسان لأننا كثيراً ما ننسى الطبيب الذي أجارنا من ورمٍ خبيثٍ ليمدّ في أعمارنا أعواماً! ابتسم العجوز بحزنٍ قبل أن يُحاجج: «ولكن الطبيب الذي يمدّ في أعمارنا يفعل ذلك تأديةً لعمله، ولا أعتقد أنه سيفعل فيما لو علم أن تلك الأعوام التي وهبها لنا قياماً بواجبه سوف تُستقطَع من عمره هو!». وافقته بحماسٍ مفاجئ فأضاف: «كانوا ثلاثة جنود، بالإضافة إلى آمرهم الضابط برتبة ملازم يحتمون بسدٍّ ترابيٍّ عندما ناحت قذيفة موجهة من فوهة مدفع، فما كان

من الجنود الثلاثة إلا أن تقافزوا فوق جسد آمرهم ليجيروه بأجسادهم!. ارتجّ العجوز في مقعده بعنفٍ وهو يستعيد الذكرى، ثم انكفأ إلى الأمام متشبّثاً بعقفة عكازه الفضّية فأمسكت بيده كي لا يسقط . ولكنه عاد فاعتدل في جلسته بكبرياء تليق بجنرالٍ حقيقيّ قبل أن يضيف: «ما أذهلني أنهم فعلوا ما فعلوا في لمحة بصر كأنهم كانوا على اتفاقٍ لا لشيء إلا لأنني أحببتهم كما لم أحبّ أحداً دون أن يسمح لي كبرياء العسكر أن أعبّر لهم عن هذا الإحساس؛ ليُلقّنني هؤلاء درساً يقول إن الحبّ هو مالا يُخفى، لأنه هو أيضاً ما لا يُشترى بغير الحبّ!». سكت . احتضن عصاه بيديه الراجفتين، ثم أغمض عينيه المدسوستين خلف العدستين السميكتين قبل أن يُضيف: «لقد حدّثتك عن المكافأة التي يمكن أن نردّ بها دين إنسان أهدانا عاماً من الحياة مستقطعاً من عمره هو، ولم أخبرك أن هؤلاء الفرسان لم يهدوني عاماً واحداً، بل وهبوني ما زاد عن الستين عاماً كاملة مستقطعة من أعمارهم هم ! أجل كأني عشت أعمارهم التي يمكن أن يحيوها بالإضافة إلى عمري أيضاً ! وها أنا الآن أتأهّب للالتقاء بهم فرأيت من واجبي أن أذهب لألقي النظرة الأخيرة على قبورٍ لا تحوي سوى أجداثهم! لأن هذا هو كل ما أستطيع أن أهبه لهم!».

نَفَّس ميسور بزفرة. تململ في جلسته قبل أن يختتم سيرة الجنرال الإنكليزي: «لقد أخبرني صاحب الوكالة السياحية بعدها بأيّام نبأ وفاة العجوز حال عودته من رحلته الذي تلقاه صاحب الوكالة من ابنته التي كانت قد أشرفت على إجراءات الزيارة مع الوكالة، كأنّ الرحلة كانت بالنسبة له **الوصية الأخيرة!**». سكت ميسور حدجني بغموضٍ ثم سأل: «أليست السيرة أسطورة في الوفاء؟». أذكر يومها أنّي أجبته أن السيرة أسطورة **أكبر من الوفاء**، بل السيرة هي ما يعجز التعبير عنه بالكلمات. وها أنا أستعيدها الآن في فراش الاستشفاء باحثاً عن سبيل أكافئ به نفيساً الذي وهبني عمره كأنني أفكر في طريقةٍ أكفّر بها عن **خطيئة!**

٢٠

أجل! خطيئة، وأيّة خطيئة، أن نستعير حياة إنسانٍ ونحياها عنه بالإنابة ! خطيئة الخطايا حتى لو تنازل لنا عنها طوعاً ! لأن الحياة هي اللقية الوحيدة التي لا تقبل الإهداء، ومحاولة قبولها لتُحيى بالإنابة ليس تجديفاً في حقّها أو في حقّ من وهبها فحسب، ولكنه تجديف في حقّ من **خلقها!** لقد عبّرت عن استنكاري للطبيب الميداني الذي بعث به الشباب في الليل فابتسم الرجل قائلاً: «وكيف تريدنا أن نبلغ تخوم «الضمان» إذا انعدم وجود من يُضحّي في سبيل فرسان الجدران؟». لاحظت في الأيام الأخيرة كيف تخلّى الرفاق عن استخدام كلمة «بناية» للتعبير عن برج الحلم كأن هذه الكلمة الدنيوية سوف تحطُّ من شأن الحصن **كحلم**، من قدسيّة الحصن كرمزٍ يُخفي في عبّه الأمل الأخير! لقد صارت لفظة «الضمان» كلمة سرّ القارعة برمّتها وضمان الخلاص بأسره. ولهذا كان تجريدها من تعريفٍ مبتذلٍ كالمعبّر عنه بكلمة «بناية» احتجاجاً عفوياً صحّحته الفطرة تلقائياً دون استشارة العقل. وعندما استفهمت من الطبيب عن كيفية وصوله إليّ رمقني بنظرة دهشة قبل أن يقول: «وصلت بفضل النفق؟ أم أنك تستهين بعملك مثلك مثل كل الأبطال العظام؟!».



الأبطال؟ وفوق ذلك عظام؟ ياله من تجديف! فالبطولات قدر الأموات لا الأحياء. هكذا كان منذ الأزل وسيبقى هذا إلى الأبد. لم أستعر هذه الشهادات من بطون الكتب وحدها، ولكن من الذخيرة الأخيرة التي وهبتها لي الأقدار.فالقربان هو الجدير بهذا الوسام سواء أطلقنا عليه لقب البطل أو لقب الشهيد، أو غيرها من الأسماء. نفيس هو صاحب الشأن، نفيس هو الشهيد وهو البطل. نفيس وقُرناء نفيس الذين يسقطون كل يوم بالعشرات، وربما بالمئات ، لا لشيء إلا أنهم قرّروا أن يتخلصوا من كابوس. نفيس إذاً هو الشهيد وهو البطل . وعندما لاحظ الطبيب غمّي صفعني بعبارة قاسية لأنه رآها الطريقة الوحيدة كي يهوّن عليّ: «تذكّر أنه لم يفعل ما فعل من أجلك!».

رمقته باستنكار، ولكنه أضاف بنبرة أخرى: «فعل ما فعل من أجل **الضمان!** هل نسيت؟».

استكمل العناية بالجرح وبدأ يُلملم معدّاته الطبية، ثم تفحّصني بفضول قبل أن يبلّغني الوصية: «العقيد سالم يُحيّيك!».

كان يبتسم خفية قبل أن يضيف بروح مرحٍ كأنه يبوح ببشارة: «و.. يهنئك!». العقيد سالم يهنئني! العقيد سالم يُحييني! ذلك يعني أن روح الأسلاف تحيّيني! ذلك يعني أن روح الأجداد

تُباركني! ذلك يعني أن رُسُل الرحمن تشدّ من أزري! ذلك يعني أن ملائكة ربّ الأربـاب نفسها تظللني برحمتها وترفرف بأجنحتها لتحميني! فماذا فعلت حتى أستحقّ هذا الشرف؟ لاشيء! لم أفعل سوى تحطيم جدران مبنيّة بعرق جبين أصحابها، أو بالأصح، بروح أصحابها (لأن الأملاك دائماً منسوجة من أرواح مُلاّكها)، لأحطّم بهذا التحطيم قلوب هؤلاء دون أن أضمن لهم تعويضاً يضمن بلوغ رحاب «الضمان»! ولم أكن لأفعل، لأن الحرب هي البليّة الوحيدة التي يعجز الجبابرة أنفسهم (بل وحتى أصحاب السلطان) أن يقدّموا في معمعانها **الضمان!** لم أكتفِ بهذا، ولكني اقترفت في طريقي جرماً، قتلت في مسيري رفيقاً فبأيّ حق أستحق الوسام؟ ألم يكن الأنسب أن أخضع للقصاص بدل مراسم الإكبار؟ ألا يقضي الواجب أن أكفّر عن آثامي بدل أن أتلقّى تهاني السلف مترجمة على لسان ضمير الحملة العقيد سالم؟

لهذه الأسباب لم أملك إلا أن أستنكر عندما بلّغني الطبيب مقترح الرفاق القاضي بضرورة استبدالي بآخرين إلى حين. استنكرت قائلاً إن إصابتي تافهة، بل أتفه من تافهة، بالمقارنة مع جراح الرفقاء الذين رأيتهم يواصلون وهم ينزفون، وبالمقارنة أيضاً مع آخرين لا يمكثون في الاستشفاء

سوى ساعات لنجدهم إلى جوارنا كالأشباح!

قلت له أيضاً إن المحاربين لا يجب أن يتوقّفوا عن الحرب إلاّ وهم أموات.

تأمّلني الرجل بعدها طويلاً، ثم قال: «لقد اكتشفت في هذه الحرب أن المقاتلين لا يقاتلون لكي ينتصروا، ولكنهم يقاتلون لكي يموتوا!».

ملاحظة الرجل أيقظت في ذاكرتي وصيّة منسيّة لم أعد أذكر صاحبها تقول إن عدوان الإنسان ضدّ أخيه الإنسان غايته انتظار البطش المضاد، غايته تلقي الموت! تلقي الموت **كخلاص**. أي أنه سعيٌ خفيّ للانتحار. الانتحار بيد الآخر. الانتحار المقنّع. الانتحار الغيبي الذي لا تفسير له سوى الحنين إلى الموت. الحنين إلى الحرية. الحنين إلى تلك الحرية التي تجعل من الموت **ميلاداً!** فياله من غموض يتلبّس مسلك هذا اللغز العظيم المُسمّى إنساناً! والدليل؟ الدليل هذا الظمأ **الغيبيّ** إلى تلك الحرية القادرة وحدها على قلب الموت ميلاداً!

اكتشاف الرجل عدم اعتراف المقاتلين بالجراح أعانني على إقناعه. قال إنه لا ينكر أن جُرحي يعدُّ خدشاً بالمقارنة مع جروحٍ أخرى، ولكن ما يستطيعه هو أن يُدلي بشهادته كطبيب، أمّا القرار فهو من شان عصبة القيادة . وعدته أن

أستأنف عملي في الغد، وكل ما أرجوه أن يمنّوا عليّ ببديلٍ للشهيد !

في الصباح، عندما تناولت عدّتي استعداداً لمواصلة رحلتي، كان سليم يقف إلى جواري.

٢١

ولكن ما سرّ المسّ؟ ما سرّ الهوس بالحفر؟ أيُعقل أنه موهبة خبيئة لم أكتشفها في نفسي قبل أن تُقرع أجراس القارعة وتحلّ ساعة كشف الحساب؟ فالمِعوَل كان دوماً آخر آلة يمكن أن تستهويني في الدنيا، والمجرفة لم تستثِر فضولي أيضاً برغم امتلاكنا حقلاً بائساً كان يروق للأب أن يأخذنا إليه في الأعياد وأيام الجمعة للتنفيس ، وإحياء العلاقة مع الطبيعة التي اختلستنا منها حياة المدينة بلا مقابل. هناك كان يعاند جداول استزرعها من باب التسلية لا بغرض الكسب، ولكن تراجع المياه الجوفية بسبب المشاريع الحكومية الجنونية أمات فيه الحماس فانقشع المشروع لنجد أنفسنا غنيمةً في قبضة المدينة ببلبلتها الأبدية ودوّامتها التي لا تنتهي . في تلك السنوات كان يضع في يدي الآلات الزراعية لأكون له عوناً في تهيئة الأرض تمهيداً لاستصلاحها، ولكن محاولاته كانت تنتهي في كل مرة بالفشل ، لأنه لم يحدث أن كلّفني بحمل معولٍ أو مجرفةٍ إلا و وجدني نائماً في ظلال النخيل والآلة الشقيّة نائمة في حضني! فكان يتعجّب في كل مرّة ليقول إني الإنسان الوحيد الذي يجلب له العمل اليدوي النوم بدل أن يطرد من عينيه النوم ! وكان يُشبّه هذا الشذوذ بقدرة البعض

على السير وهم نيام!

فهل للقارعة وحدها يرجع الفضل في إحياء مواهبي في الحفر؟ لا أدري. ولكن ما اكتشفته بمُمارسة الحفر هو أن كل فعلٍ في دنيانا ما هو في الحقيقة **إلاّ حفرٌ في حفر**. هل أُغالي ؟ كلاّ ! فلنحتكم في طلب البرهان إلى ساحة الكتب . فقراءة الكتب **حفر**، لأن الظمأ إلى المعرفة الذي يُبرّر قراءة الكتب ما هو إلا الحفر في الذاكرة. حفرٌ في أنفاق الذاكرة. حفرٌ في مجال هذه الخزنة المذهلة الملقّبة بالذاكرة. وهو ما يعني أن الحفر **استعارة** . فعل مجازيّ في شقّيه البدني والروحي. إنه توقٌ إلى النفاذ في الحالين. بل توقٌ إلى **النفاذ** في كل الأحوال. توقٌ إلى الفرار. توقٌ إلى النار. **الحفر توقٌ إلى النار** والدليل ما فعله البوعزيزي بلسان النار عندما قطع في الحفر شوطاً بعيداً، فكلنا في الواقع محمد البوعزيزي في **حملة البحث عن النار!** كل ما هنا لك أن البوعزيزي بلغ في الحفر الحدود القصوى، ووقف في مواجهة أقسى عين في وجودنا على الإطلاق: **عين الغيوب!** وكان عليه لاستكمال شروط الرحلة وتحقيق الحُلم ألاّ يقف عند حدّ المواجهة، ولكن كان عليه أن يحدّق في هذه الحدقة المستحيلة. ليس هذا فحسب، ولكن كان عليه أن يتقدّم خطوة أخرى فيرتمي في أحضان الأتون . لقد جاهر البوعزيزي

بخطابنا السرّي بالنيابة عنّا، في حين أخفقنا في أن نستعير مثله ألف فأسٍ للحفر، ونتسلّح مثله **بألف جناح** لاختراق النفق المعلّق!

بلى! كلنا على دين البوعزيزي. كل ما هنالك أن البوعزيزي عرف كيف يحفر فاستظهر، ونحن في حفرنا تعثّرنا، فتأخرنا!

٢٢

كنتُ أروِّضُ **حلماً** عندما أيقظتني جلَبَة. في الدور الأوسط؟ أم في الطابق الأسفل؟ أصختُ السمع. تنازلتُ عن كلّ خليّةٍ في البدن لجناب الحاسّة. أصواتٌ تتداخل، كأنّها تتجادل، أو بالأصحّ، تتنابز. إنّه وكر الجند يقيناً لأنّ الأصوات تُسمع أبعد . في البلبَلة تبيّنتُ صوت أنثى. وربّما إناث. هل أتى الأوغاد بمجنّدات، أم استولوا على سبايا؟ وجدتُ نفسي أتنفّس الصعداء. لماذا ؟ لأني لم أميّز بينهنّ صوت ربّة البيت. ربّة الشقّة الواقعة في الطابق الأوسط. ربّة العطر الممزوج برائحة القهوة. ولكن.. لماذا أجد نفسي في كلّ مرّة مُنهمّاً بشأنها؟ أيُعقل أنّي.. لا. لا يُعقل. الحبّ في عُرفي مات مع مقتل الأحلام. **تصفية الأحلام تجلب معها موت الحبّ الذي ما عاد في بلادي حبّاً**، ولكنّه صار صفقةً منذ هيمنتْ الأشباح! بعد مصرع الحبّ أصابت الجيل لعنة أخرى. لعنة رهينة لتصفية الأحلام أيضاً وهي موت الانتماء إلى الوطن. موت هويّة اسمها الوطن، بل مخطّط تصفية الحلم حوّل الوطن وصمة عارٍ تتوّج الجبين. فإذا أُضيف إلى هذه الوصمة مصرع الحبّ بسبب روح الصفقة فقد اكتملت شروط الحلف المُميت بين اللامبالاة والغثيان !

حبّ حسب بنود صفقة : غثيانٌ بلا ترياق ! وموت روح



الانتماء إلى الوطن : ورم الروح الخبيث!

وكان يُمكن للمأساة أن تُحتمل لو اقتصرت الحملة ضدّ الأحلام على جيلنا، ولكنّها طالت الجيل الذي سبقنا، وكذلك الجيل الذي لحقنا ! فكم مرة اختلستُ النظر إلى الأب المسكين (الملاحق بالقوانين الوضعيّة المخوّلة بتصفية الأحلام) لأقرأ في عينيه الجرح الذي جاهد دائماً كي يُخفيه عنّي في وقتٍ كنتُ أكافح أيضاً كي أخفي عنه نزيفي!

وربّما كُنّا نستطيع أن نفعل شيئاً لمغالبة نكبتنا لو وجدنا العزاء، أقلّ عزاء، في مصير الجيل الذي سيخلفنا، ولكن تجربتي الدمويّة مع المنهج الأبله برهنتْ على المستقبل المشؤوم الذي ينتظر هؤلاء الملائكة الذين يجهلون فصول المكيدة التي تُدبّر ضدّهم!

فبأيّ حق يستطيع هذا القلب أن يستيقظ من سباته بعد كلّ هذا ليتعلّق امرأةً شقيّةً مدنّسة بشهوات الغزاة، على رقبتها يتسلّط نصل المقصلة؟ أم أن الدَنَس هو المِسْعر الذي حرّك العظام وهي رميم ، وأجّج في القلب جذوة النار؟ ففي الدَّنَس يسكن إغواءٌ يفوق إغواء نقيضه القداسة. وإلاّ لماذا لا ينجذب راسكولنيكوف إلاّ إلى المومس سونيا ؟ ولا يعشق ستافروغين سوى صاحبة العاهة البلهاء كأنّ كاهن روسيا الأعظم

دوستويفسكي يريد أن يقول لنا إنّ المدنّس أحقّ بالحبّ، لأن من يسمو ليس المترفون، ولكن السموّ تاج على رأس **الألم؟!**

يا ربّي كم أحببت هذا الحكيم، وكم كلّفني الحصول على كتبه في مكتبات أوطان الجوار، وها أنا أستعيد في عزلتي سيرة أبطاله الذين لا أذكر مَن وصَفَهم مرّةً فقال إنّهم ليسوا من هذا العالم. و.. بمْ!

بَمْ أخرى تزعزعت بفعلها أركان البناية. الصوت أسكت لغو الطابق الأسفل، وسقطت فوق متاريس الإسمنت شظايا مستقطعة من السقف. في الدور الأوسط علا صراخ الطفلين. كانت قذيفة من فوّهة مدفع، قذيفتان من فوّهة سِلاح جديد. ربّما صاروخ، وربّما.. أيُعقل أن تكون جرّافة الرحمة قد وضعت في أيدي الرّفاق شحنة جديدة، شحنة من أسلحة ثقيلة؟

حبست أنفاسي وانتظرت القذيفة التالية : قذيفة الخلاص، قذائف إذا لم تحرّرني من حبوس المتاريس الإسمنتيّة ، فسوف تحرّرني يقيناً من **كوابيس الأحلام القتيلة!**

٢٣

لم أتخيّل أنّ ذلك الهجوم سوف يفتح لي باباً على الثالوث الذي حدّثتني عنه كتبي دوماً وهو: **القتل، والحبّ، والقربان.** وإذا شئت ترجمة كلمة «قتل» من معجم القانون الوضعي إلى لغة اللاهوت فلأقل «خطيئة» استجابةً للانسجام في متن الثالوث الخالد. وإذا كنت قد واجهت الموت مراراً في هذه التجربة فإنّي لم أجرّب الخطيئة إلاّ في ذلك اليوم؛ أي.. **القتل!**

فكم من المرّات تغنّت الطلقات النّاريّة بلحون الموت وهي تمرّ بجوار أذني أثناء المواجهات الأولى؟ وكم من المرّات حصدت القذائف أقراناً لم يبعدوا عنّي سوى أشبار، وربّما سنتيمترات ، كان نفيس آخرهم، و لكن لم يكن وحيدهم؟ و كم من البشر أرسلتُ ببندقيّتي إلى الموت أثناء المواجهات الأولى؟ ما أدراني أنّي لم أُصِب بطلقاتي العشرات؟ أريد أن أقول إنّي أجد فرقاً بين الإماتة وبين القتل. أريد أن أعرف الحدّ الفاصل بين هذين الفعلين، بين هذين المفهومين المتداخلين. فإذا كان القتل عن بُعْد زمن الحرب هو إماتة يقتضيها ناموس الدفاع عن النفس، فماذا نسمّي تصفية الخصم في موقف المواجهة وهو **أعزل؟** ولكن.. هل هو أعزل حقّاً إذا تزامنت المواجهة بممارسة الخصم لفعلٍ لا يقلّ شأناَ عن القتل ولم يغفل عن

امتشاق سلاحه إلاّ بسبب ممارسته هذا الفعل الجسيم؟

ولكن لنحتكم إلى ساحة السيرة إذا شئنا أن نستصدر الحكم العادل بحقّ الجاني. فبعد تضعضع وضع الغُزاة الناجم عن شدّة القصف انتقل الهرَج إلى الخارج. كانوا يُخلون المنازل المحتلّة، ويتنادون في الطُّرقات بأصواتٍ عالية تحثّ على التراجع إلى الخطوط الخلفيّة. في الطابق الأرضيّ انقطع الصخب أيضاً فأيقنت بفرار الأحناش من جُحرهم. أصخت السمع قبل أن أزيح كيس الإسمنت تمهيداً للخروج من جُحري أيضاً. كانت القذائف لا تزال تحرث الظلمات بذيولها قبل أن تنفجر في زحفها نحو مواقع الفلول المنسحبة غرباً. قفزت خارج المخبأ ولم أعلم بالطبع أنّي أهجره **إلى الأبد!** في تلك اللحظة عَلَتْ صرخة من الطابق الثاني. صرخة المرأة. صرخة سدرة ! صرخة ليست بولولة، ولا بنواح، ولا باستغاثة ترجو النجدة، إنّها صرخة ذكّرتني بصرخة الليلة الأولى التي وجدت فيها نفسي سجيناً في جحر الإسمنت كالفأر، رهين سلاح لا يحوي سوى طلقة واحدة. صرخة من لا يرجو عوناً، ولا ينتظر نجاةً، ولا يُعوّل على خلاصٍ من قدر ! صرخة هي وصيّة موجّهة إلى السماء، إلى الله، من خليفته الذي يُنكَّل به في الأرض. و.. فجأة انضمّ طفل إلى الجوقة، ثمّ.. تلاه الطفل

الثاني. ولكن الباب ما لبث أن لفظهما خارجاً ليتلوا مناحتهما عند المدخل، لأجد نفسي إلى جوارهما في لحظة. لم أندفع إلى الداخل برغم يقيني من انخلاع قفل الباب من غزوة الأحناش الأولى لأنّي لم أقم بزيارة ربّة العطر الممزوج برائحة القهوة ولا مرّة دون أن أجد الباب مواربا، ولكن بلا قفل. تفقّدت الباب لأنّ ما أدراني ألاّ يرفده الوغد بكرسيّ أو منضدة أو ما شابه من الداخل فيتمكّن منّي وهو المدجّج بالذّخيرة مقابل رصاصتي الوحيدة المدسوسة في مخزن المسدّس المنتصب لحظتها في يدي ؟ ولم يكذّبني حدَسي: لقد كان الباب مغلقاً. مغلقاً؟ كلاّ ! لم يكن مغلقاً وإلاّ لما تخلخل عندما اختبرته من الخارج. لا شكّ أنه الكرسيّ الذي جلست عليه مراراً أثناء زياراتي : كرسيٌّ ملفّق من الخشب من النوع المستخدم في المقاهي الشعبية الموروث من عهد الاحتلال الإيطالي. كرسيٌّ هشّ أبادته الشموس في حلفها القديم مع الزمن. كان الطفلان يحومان حولي دون أن يكفّا عن النواح كأنّهما يظنّان بوقفتي سوءاً ويريانني شريكاً في المكيدة الخفيّة المدبّرة ضدّ أمّهما!

غمضة أخرى كنت في الداخل. كأنّي أفرّ منهما. كأنّي أريد أن أنفي عن نفسي تُهمة سوءِ ظنّهما بي ! في الداخل توقّف طقسٌ ليبدأ طقسٌ آخر. في المدخل، على البساط المطروح فوق

البلاط، توقّف طقسٌ همجيٌّ ليبدأ طقسُ **القصاص**، الطقس الذي أطلقت عليه إسم المواجهة. فقد كان مسدّسي المسلّح بالطلقة الوحيدة مصوّباً نحو رأس ذلك الثور ذي البدن البدين، المصبوغ باللون الكئيب. مصوّبٌ نحو رأس «بركة» الذي عرفته بالصوت، وتصوّرته بالحدَس، قبل أن ألمحه فوق رأسي مرّة وهو يفترع العذراء : العذراء التي وشمتني بدم البكارة وأعجزني الحلم بفردوس «الضمان» أن أثأر لها!

انفصل عن الجسد الجريح بانتفاضة، وعندما أبصر فوّهة المسدّس تُحدّق في عينيه انطفأت الشهوة في مقلتيه فشعّ في الحدقتين النهمتين ذهولٌ مجبولٌ بخوف ! في الوجه المشوّه بشدقين رخوين، وشفتين مفلطحتين متهالكتين، رأيت تجسيداً لقُبح المنكر الذي سار في أعطاف الحملة لينثره السفَلَة حيثما حلّوا كأنّه الوباء ! لم أعد أحتمل . أعترف أنّي لم أعد أحتمل النظر في هاتين العينين الحمراوين الوقحتين فأغمضت عينيّ لومضةٍ قبل أن.. أضغط على الزناد ! قبل أن أتخلّى أخيراً عن **الطلقة الأخيرة** التي ظللتُ طوال هذه الأيّام رهيناً لها، ولم أكن أدري أن الأقدار التي ألهمتني الاحتفاظ بها إنّما أخفتها لتنتقم في شخص هذه الآفة للشرف المُهان، لكلّ الشرف المُهان! ولحسن حظّي أن الضغط على الزناد كان قد

تزامن مع محاولة الوغد تناول سلاحه سريع الطلقات الملقى بالجوار كأنّ الأقدار تهرع هنا لنجدتي أيضاً بإعطائي المبرّر الأخلاقي المتمثّل في مبدأ الدفاع عن النفس. كانت المسافة التي فصلتني عنه لحظة الضغط على الزناد لم تكن في تقديري لتزيد على بضعة أشبار، أو فلنقل ما لا يزيد عن الذراع. وكنت على يقينٍ أنّها ستخترق جمجمته أو ستفجّرها نصفين. ولكنّي أخطأت! لا أدري كيف زلّت يدي، أو ربّما ارتجّت فهوَتْ سنتيمتراتٍ لتُصيب الرجل في النَّحر! هذا ما ظننته لحظتها، ولكن ما استنتجته فيما بعد عند استعادتي شريط المواجهة هو أنّ الرجل همّ بأن يستغفلني لحظة الإغماضة فشيّع رأسه إلى أعلى ظنّاً منه أنّي تردّدت فانتهز الفرصة للقيام بمبادرة! وهو درسٌ لا بدّ أن يلقّنه الحدَس لكلّ من جرّب الحرب: الدرس الذي يقول إن الخصم إذا لم يطلق على الفور فالشهوة إلى القتل سوف تهوي بالترمومتر بما لن يقلّ عن السبعين درجة ، وعلى الطرف المعادي أن يُبادر بتدبيرٍ سريع. ويبدو أن البهيمة كان قد عاش مثل هذه التجربة مِراراً في هذه الحرب، وربّما في غيرها أيضاً! تخبّط الرجل في الدمّ ثم همد. لم أستشعر إنجازاً للمهمّة حتّى تلك اللحظة، ربّما بسبب خواء خزنة مسدّسي، ممّا أعاد لي الإحساس المهين بالعُريّ كإنسانٍ **أعزل!** وهو

إحساس جرّبته في الأيّام الأولى لاندلاع الحريق. و يبدو أن سرّ تشبّثي بالطلقة الأخيرة في جوف المسدّس كان ناجماً عن هذا الإحساس المذلّ. ولهذا فإنّ الحدس هو الذي ألهمني بوجوب الاستيلاء على سلاح الضحيّة (سلاح الضحيّة التي كانت منذ قليل جلاّداً) على الفور. وأعترف أنّي مدينٌ الآن بالحياة لإلهام الحدس ذاك؛ لأنّي لو تأخّرت في تناول الرشّاش لحظةً أخرى لكنت الآن في عِداد الأموات ! ففي اللحظة التي وقع فيها السلاح بين يديّ اقتحم المكان ماردٌ آخر لم أقرأ له حساباً . و مِن حُسن حظّي أنّه اقتحم المكان ليستفهم عقب سماع الطلقة كما اتضح تالياً، ممّا يُبرهن على اشتراكه في تدبير الجريمة ضدّ المرأة المسكينة التي سكنت إليه ووثقت به ليكون لها ترساً تتّقي به شرّ التنقّل بين أحضان الغزاة فخذلها بالتنازل عنها لرفيقه حيوان الفقمة ذاك عندما أيقن بوجوب الهروب ! وقد برهن دخوله المكان خاوي اليدين على ثقته بتدابيره وهو الذي لم يقرأ حساب وجود مخلوقٍ داخل البنيان طوال هذا الزمان ! دخل خاوي اليدين، ولكنّه ليس خاوي الحزام. وقد احتكم إلى هذا الحزام ما أن وقع بصره عليّ، ولكن هيهات: كان الرشّاش بين يديّ، وكنت أسرع ! كنت أسرع لأني كنت أخفّ وزناً . لأنّي كنت أكثر جوعاً! فالجوع الطويل يستطيع

أن يجعل من الرجل شحنةً مزمومةً في خفّة الطير. بلى! الخفّة فضيلة الجوع. ولكن ما أذهلني بعد أن أطلقت على الرجل هو موقف المرأة التي نسُيتها تماماً في حين ظلّت تُلاصق الجدار مذعورةً كأنها تتوقّع من الحائط أن ينشقّ ليُجيرها من هول ما يحدث. وقد ظلّت مُتماهيةً مع الجدار طوال مواجهتي مع جلادها الأوّل. ولكنّها ما لبثت أن انقلبت سعلاةً حقيقيّةً ساعة دخول الجلاد الثاني، أو بالأصحّ، أصابها مسٌّ لحظة توجيهي الفوّهة إلى صدر الضيف الجديد ! ولو لم أبادر بإطلاق النار فوراً لما تمكّنتُ من إصابة الوغد بسببها بالطبع. فلم تكتفِ بزعزعة البناية (أو ما تبقّى من بنيان البناية) بصرخة جنونيّة، ولكنّها دفعتني بكلّ ما أوتيَتْ من قوّة فعثرت بجثّة الجلّاد الأوّل. ثم لاحقتني كاللبوءة وهي تلفظ سِباباً لم أسمع من فم امرأة لابتذاله مثيلاً، وعندما أعجزها اللسان استخدمت يدها أيضاً. تلقّيت صفعة، صفعتين، و.. لحظتها فقط أدركتُ كم كنتُ **هشّاً**. فقد أسقطتني أرضاً عندما حاولتُ أن أعيدها إلى رُشدها. قفزتُ واقفاً ولم أجد حيلة لإيقافها سوى احتضانها بين يديّ وهي تتملّص وتتفلّت وتنفث الزبَد. هدأتْ قليلاً فغمغمتْ أخيراً: «لماذا؟ لماذا؟ كنت أعلم منذ أوّل يومٍ رأيتك فيه أنّك ستجلب إلى بيتي الغمّ!». لم أفهم سرّ سُعارها، فمن أين

لي أن أفهم سبب هذيانها؟ ولكني حمدت المولى أنّها نفّست عن نفسها بالكلام أخيراً ممّا سيُخفّف من نصيب جنونها. ولكنها أضافت: «لم يكفِكم أن تُدخلوا علينا الأغراب لينتهكوا أعراضنا، ولكنّكم تقتلون رجالنا أيضاً!». لم أفهم بالطبع فتكلّمتُ لأهوّن عليها: «لا تخافي! سأجد لك طبيباً لإجراء عمليّة إجهاض !». ما أن سمعت العبارة حتّى عاودتها الهستيريا: «إجهاض؟ و من قال لك أنّي أريد أن أُجري عمليّة إجهاض؟ وما أدراك إني لا أريد أن أحتفظ به يا وجه النّحس؟!». لم أعد أحتمل فدفعتها عنّي كأنّي أنفض عنّي حيّة! ارتطمت بأريكة بجوار الجدار فهوَتْ في جوفها وشرعت تنشج بمرارة. تسلّل الطفلان من بين الجثّتين وأحاطا بها. احتوتهما بيديها وهي لا تزال تنشج. ولكن الطفلين استنزفا رصيدهما من الدموع فاندسّا في حضنها كفِراخ الطير و استمرّا يرتجفان . أنا أيضاً كنت أرتجف . أرتجف مُمسكاً بالرشّاش الرهيب مردّداً كأنّها أصابتني بعدوى المسّ: «تحتفظ به؟ تريد أن تحتفظ به؟ تصوّروا أنّها تريد أن تحتفظ به؟!».

كان الإحساس بالخطيئة ما زال نائماً: الإحساس الآثم بأنّي قتلت إنساناً أعزل!

٢٤

فجيعتي في شيء آخر (شيء هدهدته كأنفس كنز في دنياي كلّها) أنساني الإحساس بالخطيئة كرُكنٍ أوّل في الثالوث لأكتشف بعد قليل أن فجيعتي في كنزي هي الركن الثاني في الثالوث: فجيعتي في الحبّ الذي لم أكتشف أنّه كان حبّاً إلاّ في تلك اللحظة التي واجهتني فيها المرأة بهذيانها الذي لا يُصدّق: قصّة عشقها الرجل الذي استباحها وعبث بشرفها! فكيف أقنع بوجود ضحيّة يُمكن أن تغفر لجلادها إلى الحدّ الذي تنوي فيه الاحتفاظ بجنينٍ هو جرثومة سفاحهما، بل وتفرّ مِن حِمى مَن ظنّ نفسه منقذها لتستجير بحصون قاتلها؟

لا أعرف كيف كنت سأتصرّف يومها لو لم تبعث لي العناية الإلهيّة رسولاً حقيقيّاً متنكّراً في جِرم ساعدي الأيمن القديم «سليم» الذي نجا من قبضة الغزاة بأعجوبة لحظة اكتساحهم المُباغت لمعاقلنا في ذلك اليوم المشؤوم. لقد اقتحم المكان برفقة مجموعة مسلّحين لم أرَهم من قبل تمّ تكليفهم بتمشيط الحيّ من عناصر الغُزاة كما خمّنت. احتواني في أحضانه ما أن وقع بصره عليّ، في حين استسلمت لأحضانه ذاهلاً. كنت ما زلت مأخوذاً بما حدث، غائباً ومحموماً بسبب خيبة الأمل. هزّني بعنف وهو يردّد: «لقد حسبناك في عِداد الشهداء

يا رجل، ولم يخطر ببالنا أن تحيا كل هذا الوقت متنقّلاً بين أحضان الحسان!». وعندما لاحظ غيابي، أو غيبوبتي بالأصحّ، جرجرني إلى الخارج. في الممرّ استفهم عن حالي، ولكنّي أجبته كأنّي أهذي: «هل تتخيّل؟ قالت **إنّها تريد أن تحتفظ به!**». ويبدو أنه بدأ يشكّ في سلامة قواي العقلية، لأنه رَبَتَ على كتفي وهو يفتّش في عيني عمّا إذا كنت مازلت القرين نفسه الذي عرفه، لأن الحرب علّمته، كما علّمت الكلّ، أن الجنون ثمنٌ متواضعٌ دفعه ويدفعه الكثيرون كضريبةٍ للانخراط في هذه البدعة المميتة. وها هو يستبدل لهجته محاولاً أن يستعيدني من رحلة اغترابي فيوشوش بسؤال: «ماذا دهاك يا غافر؟ ما الذي تريد أن تحتفظ به؟». لم يتأخّر جوابي، كأني كنت أنتظر هذا السؤال كي أنفّس عن نفسي فأبوح بما يجب أن أخفي: «الجنين! **تصوّر أنّها تريد أن تحتفظ بجنينٍ نالته من صُلب آمر القتلة!**». لم أنتبه لما قاله سليم بعدها لأنّي سرحت بعيداً لأتأمّل ورطتي، لأتأمّل خطيئتي (خطيئة الركن الثاني، خطيئة الحبّ، لا كخطيئة الركن الأوّل، خطيئة قتل الأعزل)، لأنّ خطيئة الخطايا أن أحبّ امرأةً عابرةً فأخون الكتب. خطيئة الخطايا أن أقع في حبّ مَنْ لا يجب أن أُحِبّ، في حبّ مَن لا يجب أن يُحَبّ. في حبّ امرأةٍ لم أعرفها وأخذل المرأة الوحيدة التي عرفتها

وعرفتني، أخلصت لها وأخلصت لي، أحببتها فأحبّتني كما لم يُحبّني شيء في الدنيا، وأحسنَت لي كما لم يحسن لي شيء في الدنيا: **الكتب!** فأين أنا من ملّة النساء، وأين مِلل النساء منّي؟ ألا يُقال إن المرأة كربّ الأرباب يستحيل أن تُشرك بنفسها أحداً؟ فكيف أتخلّى عن معشوقةٍ أعرفها كما لم أعرف شيئاً لأرتمي في أحضان معشوقة أجهلها كما لم أجهل شيئاً ؟ ولكن..

ولكن ها هو سليم يروي سيرة جديرة بأن تُقرأ روايةً في كتاب. فبعد أن أمر الرفاق (الذين كانوا قد انتشروا في الطوابق بحثاً عن جيوبٍ هنا وهناك) بسحب الجثّتين خارج المبنى، قادني من يدي إلى الطابق الأرضي ليكشف لي سرّ المرأة. قال إنّها أحبّت رجلاً من سكّان مدينة أولياء الطرق الصوفيّة المجاورة، ولكن أهلها رفضوا ارتباطها بالرجل بسبب خلافاتٍ قبليّةٍ قديمة، وزوّجوها لقريبها الذي كان يعمل ضابطاً بالجيش. ولكنّه لقي مصرعه على الجبهة الشرقيّة منذ الأيّام الأولى، في حين شاءت الأقدار أن تأتي لها بالمعشوق المفقود محمولاً على منكب الحرب كأنّه رسول خلاص؛ لأنّ الحرب بليّة في ناموس السعداء، أو مَن يظنّون أنّهم سعداء، ولكنّها في عرف الأشقياء لقية إذا أتتهم بالحُلُم!

بهذه الوصيّة اختتم سليم الرواية قبل أن يضيف قائلاً إن

العجل الآخر (كما عبّر حرفيّاً) ما هو إلاّ المعشوق الذي طال انتظاره ! وعندما اعترضتُ قائلاً إنّه لو كان معشوقاً حقّاً فكيف يُبيح لنفسه التخلّي عنها لجُنده ليستبيحوا المعشوقة المستردّة ؟ ابتسم سليم باستخفاف قبل أن يُجيبني بعبارة لم يكن من حقّي أن أنساها: «من يدري؟ ربّما فعل ذلك على سبيل الانتقام. فعقليّة هؤلاء من عقليّة الزعيم الذي يُحاربنا لأنّه يريد أن ينتقم منّا جزاء تمرّدنا على مشيئته، ونحاربه نحن **لنثأر لأحلامنا القتيلة!**». هزّني بعدها بعنف كأنّه يريد أن ينتشلني من غيبتي بأيّ ثمن قبل أن يقول: «أرجو ألاّ تتوهّم أن كرّتنا هذه نصرٌ، فالقنّاصة مازالوا يسيطرون على «الضمان» ليسيطروا بذلك على الشوارع، وعليك أن تفهم أن استعادة الموقع مرهونٌ بعودتنا إلى **الحَفْر!**».

كانت الفوّهة التي قطعنا شوطاً في حفرها عبر الجدار منذ أسابيع مسدودةً بأكياس القمامة التي خلّفها الغزاة!

٢٥

في الأيّام التالية عدنا إلى الحفر.

استبدلت حفرة الإسمنت بِحُفَرْ الجدران. حفرتُ مع سليم جدران أناسٍ كانت لهم الجدران أجساداً، بل ولبعضهم أرواحاً أيضاً، بلا توقّف. حفرتُ بعُسرٍ كأنّي أحفر صلداً بأظافري، أو صخراً بأسناني. حفرتُ كي أنفذ من المعتقل، كي أتحرّر من سجن، كي أنال الخلاص من سجونٍ لا من سجنٍ واحد: سجن الإسمنت الذي انتهيتُ منه بعد يأس، وسجن الجدران الأكبر حجماً والأعظم قدراً، وسجن آخر يخيّم في الخارج فيحيل الوطن كلّه سجناً كبيراً، قمقماً كبيراً، يَجُبُّ كل تلك السجون الأخرى ويحتويها في جوفه كما تحتوي الدمية الروسيّة الشهيرة في بطنها الدُّمَى الأصغر حجماً، فياله من تركيبٍ مُحْكَمٍ ! ولكن الوصول إلى بوّابة السجن الأكبر رهينة بإزاحة الأفعوان الذي يقف بالمِرصاد حارساً: رهينٌ بتصفية الحساب مع حفنة القنّاصة التي اتخذت من بنيان «الضمان» وَكْرَاً لتمنع بأيّ ثمن وصولنا إلى البوّابة: معقل المعتقل الأكبر. هؤلاء الجبناء الذين لا يُقاتلون إلاّ إذا كانوا في مأمن. بلى! القنّاص محارب رعديد بدليل أنّه لا يحارب أبداً وجهاً لوجه، ولكنّه يُحارب دوماً من وراء حجاب. يحارب فقط إذا ضمن

المأمن، إذا ضمن الضمان الذي يجيره من إصابات الخصم، وعن **بُعْدٍ** أيضاً!

وهكذا انطلقنا بمسيرنا المُميت. مسير ليس ككلّ مسير، لأنّه حفرٌ في حفر. حفرٌ إلى النهاية. حفرٌ إلى ما لا نهاية لو اقتضى الأمر. حفرٌ إلى الأبد لو استدعت الحاجة. والهدف؟ الهدف هو البوّابة. البوّابة حيث يُرابط سجّاننا الكبير. حيث يهيمن جلاّدنا الأوحد حارساً للسجن الذي دفن في زنازنه أحلام الجيل: **دفن في زنازنه أحلامنا القتيلة!**

٢٦

لا أذكر الآن كم جداراً حصدنا بعد استئناف مسيرة الحفر، كما لا أذكر كم حُرمة بيت انتهكنا بعبورنا، ولا كم عِبارة «اعملوا ما ترونه مناسباً!» سمعنا، حتّى اعترضتنا العقبة التي لم نقرأ لها حساباً. لقد اختلستنا نشوة الحفر من حقيقة ما نفعل فسرحنا كأنّنا نسلّم زِمام أمرنا لمشيئة تيّارٍ متّفقٍ عليه، كأنّ الحرب تمنحنا حصانةً ضمنيّةً مطلقة غير قابلة لنقضٍ، فكيف **بجدلٍ؟** كنّا في حالة وَجْد على طريقة أهل الحضرة، وغاب عنّا وجود من يمكن أن يستوقفنا أو يعترض سبيلنا، إلى أن اصطدمنا بجدار صاحبِ دارٍ ذات يوم ليوقظنا من سكرتنا. وما استفزّ أكثر هو توقيت العقبة التي تزامنت مع قرب بلوغنا نقطة النهاية : النقطة التي يصبح فيها البنيان في متناول أسلحتنا، أي بعد اجتياز بنايتين فقط كما حدّد قادتنا في الخطوط الخلفيّة بالخريطة التي زوّدوا بها سليماً في وثبته الثانية. ففي اللحظة التي تأهّبتُ فيها لغرس نصل فأسي الآلي الشَّرِه في نحر جِدار البنيان الثالث أطلّ من وراء السور رأس رجلٍ في العقد الخامس تقريباً، ملوّحاً في وجهَينا بسلاحه سريع الطلقات، معلناً أنه لن يتردّد في حفر جسدَينا بنيران بندقيّته فيما لو حفرنا جدران بيته ، بل فيما لو لمسنا الجدار برأس الفأس مجرّد اللمس!

تبادلت مع سليم نظرة دهشة يومها. نظرة استنكار في الواقع لأنّ هَوَسنا بعملنا، وأملنا باستعادة أحلامنا المفقودة، أصابنا بمسٍّ غيّبنا عن الواقع نهائيّاً إلى حدٍّ جعلنا نقرأ في احتجاج الرجل **إهانة** موجّهة لكلينا شخصيّاً ممّا دفعنا لتحسّس سلاحينا بحركة عفويّة. ولكن سليماً أنقذ الموقف بضحكة مغتصبة قبل أن يدخل مع الرجل في جدلٍ **مُبْهَم** عن الأمد المتوقّع لصمود الجدران أمام قدر الانهيار بعد نخر الأسس! ويبدو أن حُجَج سليم لم تُقنع صاحب البيت، لأنّه لم يكتفِ بالتكشير في وجه سليم قبل أن يتوارَى، ولكنّه لامس جبينه بفوّهة سلاحه الفظيع مهدّداً ومترجماً بهذه الحركة رفضه القاطع لأية تسوية في هذا الشأن! جلسنا صامتين لحظات. واكتشفنا كم نحن شقيّين لو جلسنا عاطلَين! فنحن إذا لم نستمرّ إلى الأمام لا نستطيع أن نعود إلى الوراء. لا نستطيع أن نعود إلى الوراء حتّى لو.. حتى لو اعترضت سبيلنا القيّامة نفسها فكيف برجلٍ يُضحّي بشرف أُمّة مقابل مِلْكٍ هو في الحقيقة مجرّد نصبٍ ملفّقٍ من قوالب الإسمنت. ولم يكن أمامنا إلاّ أن نصدّق ما يردّده دراويش الطرق الصوفيّة من أن قلب الإنسان رهين ما امتلك الإنسان

وضعتُ آلتي جانباً. أسندتها إلى الجدار الظامئ لِلثم نصل الفأس، والفأس الظامئ للغوص في رحم الجدار، و.. **تحسّرت.**

تحسّرت على بطالة فأسي (الذي كان لي طوال الوقت سلاحي أكثر ممّا كان سلاحي لي سلاحاً)، لأنّني تذكّرت بطالتي. تذكّرت **زمن العطالة**. تذكّرت زمن اللاّجدوى الذي أعجزني وأقعدني حتّى عن إنهاء حياتي انتحاراً. لم أحتمل فالتفتّ لأستنجد بالقرين: «يجب أن نفعل شيئاً!». هذا ما قلته. و يبدو أنه قرأ الرسالة في عينيّ أكثر ممّا قرأ في العبارة فطمأنني: «انتظرني حتّى حلول المساء، وسأقنعه!». رمقته بشكّ فعاد يؤكّد: «سأقنعه! أعدك بأنّي سأقنعه! فقط أمهلني حتّى الليل!». خطر ببالي أن أسأله ما الذي سنفعله بأنفسنا حتّى حلول الليل، ولكنّي تراجعت. تراجعت استجابةً لوسوسةٍ غامضة. ربّما بسبب الإيماء الموجع الذي لمحته خطفاً في مقلتيه. إيماءٌ ألهمني أن الرجل يتألّم أكثر منّي. اقترح أن نحاول النوم لنعوّض ما خسرنا بالنهار بالسُّرَى ليلاً. قلت له إنه يتكلّم كأنه على **يقين** من إقناع الرجل فعاد يُجيب بأنّه على يقين. استعنّا على بطالتنا بالجدل حول مسلك الرجل. سليم أثنى على سيرة صاحب البيت كشخصيّةٍ معروفةٍ تتمتّع بين أهل المدينة بصيتٍ محمود. ولكني استنكرت أن يجمع الرجل بين حُسن السلوك بين الناس حتّى إذا قرعت القارعة و حلّت ساعة الحساب تنكّر للفضيلة ودافع عن الاحتلال بقوّة السلاح!

توضّحني سليم مستفهماً فحاججت قائلاً إن الدفاع عن كوم الجدران في وضعنا دفاعٌ عن مفرزة القنّاصة المرابطة في حضن «الضمان»، والدفاع عن أشباح «الضمان» دفاعٌ عن الاحتلال. سكت لحظات قبل أن يعبّر لي عن حيرته في فهم نفوس الناس فيُفاجئوننا بتصرّفٍ نستنكره لأنّه لم يكن يوماً من شيمهم. احتضن رشّاشه وسكن إلى الجدار قبل أن يُضيف كأنّه يقرأ في كتاب: «في الإنسان توجد أناس، ولهذا يعجز حتى الإنسان نفسه عن التنبّؤ بأفعاله أحياناً، ولو لم يُخفِ الإنسان في نفسه هؤلاء الناس لما قيل إنه **مجهول بلا قاع!**»..

٢٧

سليم وفَى بالوعد !

استأنفنا حملتنا ليلاً على ضوء مصباحٍ يدويّ محمول. كنت أكافح لكي لا أقطع شرايين البنيان كما علّمني الفقيد نفيس. فالأبنية كالأجساد لها شرايين وأوردة ومفاصل كالانسان تماماً. وما هو جسد الإنسان إن لم يكن هيكلاً مثيلاً لأيّ بنيان؟ الحرص على الأوردة والشرايين والتراكيب العظميّة من شأنه أن يمدّ في عمر البنيان إلى أجلٍ مسمّى، ولكن لا يجب أن نطمع في تمديد آجالها أكثر ممّا تحتمل! إنها مثل جسد الإنسان الذي خضع لتدخّل جراحيّ عنيف فيغدو عرضةً للانهيار مع تقدّم الزمن ، وربّما في أيّة لحظة. يلعب الحظّ لعبته المفضّلة هنا أيضاً كما يروق له أن يلعبها في كل محفل !

بدأنا ننتهك حرم منزل الرجل فأحسست بخجل كأنّي أفترع بكارة عذراء! لماذا داهمني هذا الإحساس مع عبور جدران هذا الرجل ولم يخامرني أثناء عبور عشرات الأبنية الأخرى؟ لا أدري. ربّما لأنه الوحيد الذي وجد في نفسه الشجاعة كي ينبّهني إلى أنّي أرتكب **جُرماً**. أرتكب جُرماً أخلاقيّاً في حقّ ذوي القربى متّخذاً من الحرب ذريعةً ليقيني بأنّها التميمة الوحيدة التي تستطيع أن تعصمني من **القصاص!** كنت مُصاباً

بعمَى القلب إلى درجة أنّـي لم أستجب لذلك المسكين الذي جاءني مرّة بالفأس ليقول لي بعبارته القاتلة إني سأحفر بهذه الفأس قبره إذا حفرتُ أساس بيته الذي أنجزه بعد أن استودع فيه روحه! كان ذاك نداء إدانة لا يُنسى، ولكنّي نسيته في حمّى هوسي بالبرج. وهو ما يعني أن صاحب البيت الأخير كان على حقّ عندما هدّدني بفوّهة البندقيّة كي يوقف جنوني كأنه يدعوني لسماع نداء الضمير ! ولكن.. هل يجتمع الضمير بحضور الحرب؟

كان سليم قد استغفلني في زيارته الخاطفة إلى صاحب الدار. تركني حتى غلبني النعاس ثم استعان في صعود السور بقِطع أخشاب كانت مكوّمة بالجوار. لا أعرف كم من الوقت مكث هناك، ولكني عندما صحوت وجدته ينحني فوق رأسي بسحنة غريبة. و يبدو أنّي لم أستيقظ إلاّ بسبب مفعول حدقتيه الناريّتين. استفهمت بإيماءة فحشرج قائلاً إنه أفلح في تمهيد الطريق و ما عليّ سوى الاحتكام إلى ساحة المِعوَل!

اخترقنا الجدار الأوّل. كان المكان مظلماً وموحشاً يُهيمن عليه الصمت ويفوح بمزيج الروائح كأنّها خليط توابل. توابل ممزوجة برائحة أخرى حادّة كأنّها عَرَق بشري مركّز. في الخارج استمر سماع طلقات ناريّة متقطّعة كما هو الحال

عندما يحلّ الليل. طلقات تنطلق يقيناً من برج اللعنة لأن القنّاصة وحدهم يملكون أجهزة الرؤية ليلاً، فتُخلي لهم الألوية الحربية الساحة كلّما زحفت الظلمات ليباشروا دورهم في اصطياد المارّة الذين غلبتهم الحاجة لقضاء حوائجهم فاستجاروا باللّيل بوصفه حجاب الله الطبيعي متحدّين بذلك تحذيرات **فرسان الأحلام القتيلة**، انتصاراً للغريزة واستهانةً بالتقنية التي آلت على نفسها تحدّي الطبيعة، ليدفعوا ثمن حسن ظنّهم بالغريزة في كلّ مرّة عندما يخذلهم الليل فيسقطوا في الطرقات جرحى أو ضحايا.

في الممرّ الخالي الملفوف بالسكون المؤدّي إلى الناحية الأخرى سألت سليماً عمّا إذا كان قد أقنع صاحب البيت بإخلاء البيت بدل السماح لنا بهتك عرض البيت، ولكنّه لم يستجب لمزحتي. الممرّ أفضى إلى غرفة أخرى أكثر كآبة بدل أن يُفضي إلى الجدار المنشود كأنّه متاهة لمحو السبيل وليس ممرّاً للقيام بدور الدليل. خطوة أخرى وجدت نفسي أرتطم بجسمٍ مريب. جسمٌ بشري؟ لا أدري. ندّت عن البدن آهة فزع مكتومة قبل أن يتراجع إلى الوراء. سلّطتُ ضوء مصباحي اليدوي البائس بحثاً عن الجرم فإذا بشبح امرأة تتّشح بالسواد كأنها تمارس طقس حداد، تقف في مواجهتي وهي ترتعد. أجل

! رأيت قامتها ترتعش من قمّتها حتّى تلابيب فستانها الكئيب. تواجهنا لحظات مزمومة قبل أن يتدخّل سليم: «هذا أنا يا عمّتي، لا تخافي!». كانت في العقد الرابع أو الخامس، شاحبة السيماء، نحيلة البُنيَة، تُخفي شعرها بلحافٍ أسود يتناسب مع لون الثوب الفضفاض، تستر عينيها بنظّارتين سوداوين أيضاً، و.. ترتعد بوقفتها برعبٍ قبل أن تحشرج بسؤالٍ لم أفهم منه شيئاً. مال سليم على أذني ليهمس: «إنّها عمياء!»، ثمّ خطا نحو المرأة. همّ أن يأخذها من يدها مُطَمْئِناً، ولكنّها ارتدّت إلى الوراء بهلعٍ ما أن لمسها وبرطمت بسيل من الألفاظ التي لم أميّز منها كلمة واحدة كأنّها رطانةٌ بلسان أعاجم. وجدت نفسي أسأل بصوتٍ مسموع: «من هذه المرأة؟». ويبدو أنّي أربكت قريني بسؤالي فتخلّى عن المرأة واستدار على عقبيه. أخذني من يدي وقطع بي مسافة انتهت إلى ما قال إنّه الجدار المنشود الملاصق لجدار البيت التالي، وما عليّ إلاّ أن أنتظره لحظات كي نواصل رحلتنا. انتزع من يدي المصباح بأصابع راجفة، ثمّ عاد أدراجه. سمعته يتحدّث عن ضرورة تناول الدواء، و ضرورة أخرى هي النوم. نعتها باسم «عمّتي» مراراً وهو يحاول إقناعها بفعلٍ ثالث لم أتبيّنه بوضوح إلى جانب وجوب تناول الدواء والاستسلام للنّوم. بعد قليل عاد ساخطاً.

قال إن الجنّية لا تريد أن تنام خوفاً من الأشباح. تصوّر جنيّة تخشى جنّاً ! تصوّر شبحاً يخشى أشباحاً ! تصوّر مخلوقاً لم يَرَ غير الظلام ثمّ يخشى حياة الظلام ! أليس هذا جنوناً إلى جانب العماء ؟

كان منفعلاً كأنّه يهذي. هذيانه أجّج فضولي فاستفهمت عن المرأة. تطلّع نحوي في الظلمة قبل أن يوشوش: «امرأة عمّي!». امرأة عمّه؟ ومَن عمّه هذا؟ أيعقل أن يكون صاحب البيت عمّه؟ بلى! صاحب البيت عمّه، والعمياء امرأة عمّه! ولكن أين العمّ نفسه أيُّها الشقيّ؟ لم يُجب سليم. نكس وحثّني على ضرورة البدء في العمل. تطلّعت إليه طويلاً. وعندما هممت بتناول معولي والبدء مال نحوي حتّى لامس بشفتيه أذني ليهمس كأنّه يُذيع سرّاً خطيراً: «أخفيته!». ما معنى أخفيته أيها الشقيّ؟ أخفيته! حاولتُ أن أقنعه ولكنه لم يقتنع، فلم أجد مفرّاً من إخفائه! مهلاً، مهلاً يا سليم! إيّاك أن تكون قد فعلت به شيئاً ! تطلّع نحوي. خُيّل لي أنّي أبصرت في مقلتيه بريقاً مريباً برغم الظلمة قبل أن يقول: «هل يُرضيك أن يُفسد علينا كلّ ما فعلنا ؟ أيُّهما أهون : أن نخفي رجلاً في سبيل أمّة، أم نخفي أمّة في سبيل رجل؟ !».

عمّ الصمت. سكتَتْ بنادق القنّاصة أيضاً. سكت كلّ شيء كأنّ الكون كلّه لاذ بالصمت من هول ما سمع!

٢٨

بلغنا أخيراً سدرة المنتهى التي انتزعتْ من سجّاننا شعرة شمشون!

أدركنا أرض الميعاد التي طلبناها طويلاً، وكانت طوال الوقت السيف المسلّط على رقابنا، كأنّها كلمة القدر! بلغنا **فتعرّوا** في الحال!

أدركنا فانكشفت عورتهم!

لم يعودوا البعبع الخفيّ الذي يترصّدنا من وراء حجاب!

انقطع حبل المسافة التي كانت لهم قمقماً ظلّوا يتّخذونه متراساً، بل ضماناً لأمان! بخلاصة العبارة: **لم يعودوا في نظرنا أشباحاً!**

لم يعودوا أشباحاً يقتنصوننا عن بُعد كالأرانب دون أن نملك للاختباء من فوهات بنادقهم حيلة!

تستطيع الضحية أن تقدّم لجلادها كشف الحساب..

ولم نكن لنتأخّر بالطبع عن تقديم كشف هذا الحساب..

بَطُلَ مفعول التعويذة التي أجارتهم من قصاصنا، وحان ميعاد تصفية الحساب!

حدث هذا في تلك الساعة المقدّسة التي نسف فيها نصل فأسي آخر حجرٍ في صلد آخر سدٍّ، في جدار آخر بيتٍ يفصلنا



عن آخر شبرٍ في خطّ المواجهة مع الحقيقة، لا خطّ المواجهة مع البهتان الذي نقاتل فيه أشباحاً يعتمرون قبّعات الإخفاء فيروننا ولا نراهم، يترصّدوننا ولا نملك للنجاة من حِمَمهم حيلة!

إنها آخر حجر في فوهة الخلاص التي حدّدها دُهاتنا في الخطوط الخلفيّة كنقطة انطلاق أمامية. تزامن الحدث مع بسمة الفجر بقبسٍ خجولٍ واعدٍ بنهارٍ صحوٍ لأوّل مرّة بعد أيام، بل وأسابيع، من هيمنة غيومٍ كئيبةٍ تجود بزخّات مطرٍ حيناً. وتبخل بغيوثها حيناً . ولا أعرف لماذا قرأت في لوح ذاك الصباح إيماء بشارة أنا الذي كان لي الوضوح، أو الصفاء، أو كل ما له صلة بالضوء، **فأل خير!** وقد تأمّلتُ ذلك الشريط الشحيح الذي اكتسح الأفق من موقعي الجديد في الفوّهة المطلّة على أرض الله الواسعة فسرتْ في دمي كأنّها ملحمة شعر، أو فلأقل، كأنّها نفحة وجْد! سَرَتْ، أو بالأصحّ، تغلغلت. تغلغلت ربّما لأنّها تزامنت مع خروجي من النفق، فتنسّمتُ هواء ميلاد الفجر كأنّي أتنسّم هواء ميلادي أنا لا ميلاد الفجر. أتنسّم هواء ميلادي الثاني معطّراً برائحة الحقول التي افتقدتها في سجني الطويل في النفق، ومشفوعاً بقبسٍ غامضٍ يلوّح لأول مرّة بوعدٍ خفيّ! **بوعْدٍ مستعارٍ من صحف الغيوب!**

سرحتُ. ذهبتُ في رحلة استكشافِ آسرة عندما اقتحم الرفاق المكان فجأة. اقتحموا المكان بأفواجٍ جنونيّة. كانت فوهات النفق الخلفيّة تدفعهم إلينا على دفعاتٍ سخيّة متتابعة لينفذوا خارجاً، إلى الخلاء، إلى أرض الله الواسعة التي لم تمنّ على خليفة الله في هذه الأرض بكنزٍ كما منّت عليه بسعة الأرض التي لن تكون في عُرف هذا الخليفة غير **الحرّية**!

باغتوني كما باغتوا سليماً لأنّنا لم نقرأ حساب الفجاءة لسببٍ بسيطٍ هو أنّنا لم نُحِطْهم علماً باختراق القشرة الأخيرة التي فصلتنا طوال الملحمة عن أرض الميعاد، ولكن يقظتهم كانت أقوى كما برهنوا، كأنّهم كانوا يترصّدون رحلتنا المُميتة من وراء حجاب حتّى إذا أزفت ساعة الصفر تدفّقوا عبر النفق الغريب ليثبوا إلى المقدّمة لمُلاقاة الفجر، كأنّهم يتسابقون **لأداء صلاة** وهم يُتمتمون بكلمة سرٍّ كانت لهم منذ أوّل يوم تميمة، كانت صلاةً، تعبيراً عن إيمان ، وترجمةً لامتنانٍ موجّه إلى ربّ الإيمان في عبارة بسيطة بساطة الربّ، ولكنّها برهانهم الوحيد على دلالة الربوبية التي لن تعني غير الحرّية، كأنّهم يرتّلون آيةً تقول: «**الله حريّة**» في نداء «**الله أكبر!**».

التكبير لم يعد سرّهم منذ أوّل يوم، ولكنّه صار تحيّتهم



أيضاً. صار التحية البديلة للتحية التقليدية التي تبجّل السلام. لأن السلام بلا حريّة سلامٌ بلا معنى. **السلام بلا حرّية سلامٌ قتيل** . سلامٌ قتيل مثله مثل أحلامنا القتيلة. واليقين أن نصحّح الأمر باستعادة العنقاء الضائعة أوّلاً، كي نستعيد التحيّة التقليديّة. كي نستعيد المعنى المفقود للتّحيّة التقليديّة. كان هذا أحد بنود العهد منذ الأيّام الأولى. العهد المسكوت عنه حرصاً على بنوده من دَنَس الكَلم، ولكنّه **النافذ مفعولاً بنزيف الدّم!**

ولهذا كانوا في قافلة ذلك الفجر يعبروننا ليجودوا علينا بتحيّة العهد. يطبطبون على أكتافنا بحميميّةٍ ليهمسوا بـ «الله أكبر» في آذاننا كي لا ينتهكوا بكارة الفجر، كي لا يفسدوا طقس الفجر، كي لا يُبلبِلوا ميلاد الفجر. كانت الفوهة الواقعة خلف ظهري تلفظهم أفواجاً، في حين تولّت الفوهة الأخيرة، الفوهة المفتوحة على برج الزبانية، احتواء أبدانهم الهزيلة المتوّجة بمختلف أنواع الأسلحة، لتلفظهم أيضاً. تلفظهم لملاقاة أقدارٍ تنتظرهم، ولكنّها لا تمتلك إلاّ أن تهابَهم . تهابهم فتبتسم لهم هذه المرّة بدل أن تُرهبهم كما في كلّ مرّة!

بلى! أعْتى **الأقدار ترتجف فزعاً من مرأى الشجعان!**

جلستُ مع رفيقي مسلوبَين، مستنزفَين، ذاهلَين، نكابد

احساساً غريباً يُعْجِز أفصح عبارة. **إحساسُ الإنسان إذا أحسَنَ عملاً.** إحساسٌ لا يُقارَن في ظنّي إلاّ بذلك الإحساس الذي تحدّثت عنه الكتب السماويّة فقالت إن ربّ السماوات والأرض عرفَه عندما فرغ من عمليّة الخلق في ستّة أيام فرأى **عمله حسناً.** وجزاء هذا الحُسن قرّر أن يكافئ نفسه براحة اليوم السابع!

سليم حدَجني بنظرة ذات معنى وهو لا يزال يتأبّط بندقيّته : «مارأيك؟». كنتُ مازلتُ ألهث من مشوار النَفَق، ولم أصدّق بَعْد أنّنا صرنا على أبواب الخلاص. زفرتُ أنفاساً سخيّة كأنّي استودعتها سباق الأسابيع الماضية. أسابيعٌ كأنّها الأعوام ! أجبتُ الرفيق: «نستطيع منذ الآن أن نؤمن بوجود أحجية إسمها: السعادة!». سرحتُ لحظات قبل أن أسمع سليماً يردّد: «**السعادة تحت جناح الحرب!**».

٢٩

استخدم الرفاق في هجومهم أسلحة جديدة بعضها أتت به جرّافات الرحمة، وبعضها الآخر كان ثمرة أنتجتها أجنّة مصنع الحديد والصّلب الذي استولوا عليه في هبّة الأيّام الأولى وطوّروه باجتهاداتهم الذاتيّة : مفاصل مواسير المياه تتحوّل قنابل يدويّة، وبراغٍ تنقلب قذائف بحشوة بارود، وبقايا حديد تلعب دور شظايا مدسوسة في فوهة بندقيّة.

وكانوا سعداء لأنّهم استطاعوا أن يستعملوا ابتكاراتهم النفيسة في تلقين الدرس للقوّة المدجّجة بآخر صيحة في حقل التقنية الحربيّة.

هيمن القبَس فغرّدت أفـواه الأسلحة بأنشودة خفيّة : الأنشودة التي انتظرتها المدينة طويلاً ودفعت ثمنها كثيراً. أنشودة الخلاص!

انتهى يومنا السابع أيضاً وحان ميعادنا لتلبية النداء أخيراً. تسلّلنا متّخذين في البداية من أشجار النخيل ترساً. ولكنّنا استجرنا بالعراء الفسيح الذي يحدّ حصن الضمان من الشمال في الوقت الذي صارت فيه الأفاعي المُحتمية بالعشّ في حالة دفاع عن النفس لأوّل مرّة بعد أن راهنت طوال الأسابيع الماضية على موقفها كجلاّدٍ بلا منازع يمتلك

السلطان على الرقاب عبر مسافة تمتدّ لثلاثة آلاف متر نحو جهات الدنيا الأربع كأنّها في عرف مدينة تعيش زمن البليّة هي ثلاثة آلاف كيلو متر وليست أمتاراً. وها نحن نجرؤ على اقتحام المساحات العارية بل والمجاورة، برؤوسٍ عاليةٍ بعد أن كنّا لا نستطيع أن نمرق ولو خطفاً دون أن نقرأ حساب **الثمن!**

وَلْوَلَتْ طلقات البنادق في الفضاء المغسول بِبَلل الفجر، فتوّجعت في أثرها القذائف المحمولة بلحون الأنين. الأنين الذي كان مجبولاً بوجعٍ غامضٍ في كلّ مرّة كأنّه الشهادة على وفاة ! وفاة إن لم تكن في صفوف الطرف المعادي، فسوف تخطئ الهدف ليكون الجواب إصابة في صفوفنا. لأنّنا كنّا طوال الزمن الذي انقضى كأوراق يابسة على شجرة خريف! **أوراق خريف** تنتظر هبّة الريح لتتخلّى عن الشجرة وتهوي أرضاً ! صيحة الطلقة أو آهة القذيفة، دائماً هبّة الريح التي، إذا أفلتت، فسوف تُطيح في طريقها بيبيس الشجر كأنّها ترجمة لوصيّة الأجل. **نحن أوراق الخريف، وفحيح الأعيرة الناريّة لنا دائماً نذير أجَل!**

أدركنا في سعينا جمع رفاقٍ كانوا يدكّون مواقع خطوط العدوّ الأماميّة مستجيرين بالحاويات الحديديّة الملآنة



بالرّمال التي تبرّع بها الأخيار لصدّ هجوم الأيّام الأولى، ولم نفلح في استردادها إلاّ بعد استبسالنا في كرّ الأيام الأخيرة. ولكن أحد الرفاق حثّنا على الانحراف جنوباً بإيماءة كي نلتحق بالفِرَق التي تحاصر البرج تنفيذاً للأمر الصادر منذ زمن والقاضي بفعل كل ما بالوسع، وأكثر ممّا بالوسع، في سبيل كسر شوكة آلة إبليس التي تهيمن على المبنى أوّلاً. أوّلاً وقبل كل شيء!

كان البنيان المكابر (الذي صار لنا جلاّداً قد شلّ حركتنا لأسابيع) قد تحوّل غربالاً في أمدٍ قصير. ولا أحد يستطيع أن يتخيّل سعادتنا بمرأى ذلك الكابوس الأسطوري يتخاذل ويتهرّأ، ويتهلهل، قبل أن يستسلم! يستسلم؟ كلمة كان لها في مفهومنا مفعول السحر. كان لها مفعول السحر إذا عبّرت عن أصغر غَلَبَة، فكيف إذا عبّرت هذه المرّة عن تحطيم العقَبة التي كانت في يقيننا منذ قليل مستحيلاً؟ لم نكن نطمع أن تحدث المعجزة بالمجّان بالطبع، ولكنّنا راهنّا بخطّة النفق المعلّق على ضغط الخسائر في الأرواح إلى حدّها الأدنى. وبرغم ذلك عثرنا بأجساد المصابين أثناء تقدّمنا إلى الأمام طوال الطريق. بعضهم يستميت لقهر عجز الجسد طمعاً في نيل شرف دخول المبنى، وبعضهم الآخر ينزف، ولكنه يرمقنا نحن الذين

مـازلنـا نتشبّث **بعرف الشجرة الخريفيّة** ونقف على أقدامنـا.
أمّا الفريق الثالث فهو أولئك الذين أدّوا الدَّيْن ونزفوا حتى استُنزفوا ولم يبقَ لهم إلاّ أن يهدأوا وهم يتطلّعون إلى السماء المشفوعة بقبس الصبح، وعلى وجوههم تسطع **ابتسامات التسليم: ابتسامات أولئك الذين أدّوا الدَّيْن!**

كان الرفاق قد اقتحموا البنيان ليشتبكوا مع طلائع القنّاصة المتمركزة في الطوابق السفلى، في حين استطاع آخرون كانوا يرابطون على بُعْد أمتار أن يفتّتوا الأدوار العليا مستخدمين مختلف أجناس الأسلحة. ولكن أوباش الطوابق الوسطى كانوا لايزالون يقاومون ببنادق القنص التي فقدت سلطانها بعد أن أضاعت الثقة بالنفس التي كانت دوماً رهينة الإحساس بالأمان. وهكذا أبطلت المواجهة سحر السحرة وحوّلت أفتك سلاح في القنص عن **بُعْد** إلى مجرّد بندقيّة صيد **بالقرب!**

مازلت مع سليم نتقافز متناكبين عندما زفزفت طلقة. زفزفت في أذني بصوتٍ غريب، ولم يخطر بِبالي أنّها كانت موجّهة من يد قنّاص. موجّهة بخبرة قنّاص، لأنّي نسيت أنّي أواجه مفرزة قنّاصة لا مفرزة جند! رمقت سليماً خطفاً فابتسم في وجهي ثمّ غمز بعينه وهو يعدو. أسمعني بعدها تعقيباً على الزفزفة: «ها نحن ننجو بأعجوبةٍ أخرى ! نحن مدينون لله

بإحسان!». قبل أن أُجيب كان قد تلقّى الرسالة ليدفع القربان: أصابته قذيفة (أم رصاصة من ذلك النوع المستخدم ضدّ أسلحة الدروع أو حتّى لإسقاط طيور أبابيل؟)، ليسقط أرضاً! كنتُ قد سقطت إلى جواره أيضاً دون أن أدري عمّا إذا كان ذلك بدافع غريزة الدفاع عن النفس، أم بغريزة التضامن مع مَن صار جزءاً منّي بعد أن عبَرنا جحيم النَفَق كقرينين حميمين. لاحظت كيف أفلت السلاح، ولم أدرك السبب إلا في اللحظة التي أبصرتُ فيها ذراعه الدّامية بالنزيف، والمشيّعة إلى أعلى وهي ترتجف مجرّدةً من.. **من الكفّ!**

القذيفة كما خُيِّل لي أطاحت بالسلاح في اللحظة التي استقطعت فيها الأصابع فتهدّلت أشلاءً من أعلى المعصم لتتدلّى في سيورٍ لزجة، رجراجة، مغمورةً بالدّم الذي سال على الذراع المعلّقة في الهواء كأنّها السلاح؛ كأنّها البديل عن السلاح الضائع، أو.. كأنّها الراية التي أبَى سليم إلاّ أن يواصل التلويح بها في وجهي **كشهادةٍ على دفع القربان، على دفع الإحسان**، الذي تحدّث عنه منذ قليل. قبل أن أواجه الوغد حشرج سليم في أذني بنداء كأنّه الرجاء: «اقتل الكلب!». كنت محتضناً سلاحي المهيب، السلاح الذي انتهبته من تحت بدن الجبان لأستبدله بالرصاصة الأخيرة ساعة كشف الحساب،

وعلى أهبّة الاستعداد لإصابة العدوّ بالعيار ثأراً لحميمي الذي ينزف إلى جواري، فإذا بي **مع ميسور وجهاً لوجه!**

كان يتحصّن وراء جدارٍ انهار بسبب القصف ولم يبقَ منه سوى كوم إسمنتيّ مخرّم. يرتدي بزّته العسكريّة المتوّجة بالرتبة المتمثّلة في تاجٍ مُهيب تُجاوره نجمة ذهبية تعبيراً عن الترقية الجديدة التي أنعم بها وليّ الأمر على كلّ مَن أبلى في محاربة **فرسان الأحلام القتيلة!** وها هو يجثم في وجهي مُمسكاً بسلاحٍ ثقيل لم أميّزه لحظتها، وفي مقلتيه يلتمع إيماءٌ غامض، مسربلٌ بمشروع بسمة خفيّة. بسمة ممهورة بسخرية كأنّه يريد أن يُذكّرني.. يذكّرني بماذا؟ يذكّرني بماذا يا تُرى؟ يذكّرني **بوصيّة!** ولكن بأيّ وصيّة؟

انتشلني سليم وهو يحثّني بالحشرجة على.. **قتل الكلب!**

ميسور كان أيضاً ينتظر . يصوّب فوهة سلاحه نحوي ليحثّني أيضاً. سليم يحثّني أن أكون له ساعداً بعد أن أضاعت القذيفة ساعده وأنتقم، وميسور يحثّني أن أطلق أيضاً. أن أطلق العنان لإصبعي، وربّما أن أطلق العنان لخيالي **كي أتذكّر.** عاد سليم يُغمغم وهو لايزال يلوّح بذراعه مبتورة الرأس في الهواء: «أطلق!»، في حين يهتف لي بصر ميسور في الجانب الآخر قائلاً: «أطلق!» دون أن أفهم عمّا إذا كان يعني إطلاق

النار عليه أم إطلاق النار على **النسيان!** وها هي بسمة الغموض تومئ بلعنة أخرى كأنّها التحدّي..

كنت في تلك اللحظة قد استطعتُ أن أقف على قدميّ موجّهاً فوهة سلاحي إلى رأس ميسور، إلى رأس الأخ الذي خذلني عندما خدعوني فقالوا إنّه انشقّ كما انشقّ جُلّ ضبّاط الجيش! ولكن..

حثّني سليم هذه المرّة بأعلى صوت: «أطلق!»، في حين تداعى النسيان لينبثق في الذاكرة الوحي: **الوفاء!**

بلى! تذكّرتُ سيرة الجنرال الإنجليزي. تذكّرتُ الأمثولة. تذكّرت أسطورة الوفاء التي شاء أن يبثّها في السيرة، ولم أفهم هويّة الوفاء المقصود إلا الآن : الوفاء لربّ النعمة لا للأحلام. **الوفاء لقاتل الأحلام لا لفرسان الأحلام!**

في اللحظة التي خنقني فيها الغثيان وقرّرت أن أضغط الزناد لأثأر، كان ميسور قد سبقني ! قرأ أفكاري **فسبقني!** فجّر بسلاحه الرهيب بدني لأطير في الهواء قبل أن أسقط إلى جوار رفيقي! كانت ساقي قد تحوّلت أشلاء تماماً كما تحوّلتْ كفّ سليم أشلاءً منذ قليل. بدأت أفقد الذاكرة، ولكنّي لم أغِب قبل أن أشهد انفجار الموقع الذي استجار به ميسور! ناله أحد الرفاق بقذيفة فاختفى كما خُيِّل لي من المكان اختفاءً. بعد

قليل تلقّيت من المجهول وصيّةً مكتوبةً بالدّم، محفورة في جسدِ هَوَى إلى جواري. وجدتُ نفسي في هجعتي محشوراً بين جسدين: جسد سليم من جانب، وجسد ميسور من جانب، في اللحظة التي بدأتْ فيها الغيبوبة تقرع بوّابة الذاكرة.

الذاكرة التي أحاول أن أستنطقها الآن، وأعجزني استنطاقها آنذاك، ولا أدري ما الذي كان سيحدث لو أفلحت قبل أن يسبقني ميسور بإطلاق النار. فضيلة الذاكرة أنّها خذلتني يومها لتجيرني من حمل صليب الجلاّد بديلاً لنيل هويّة الضحيّة:

الجلاّد قابيل، في مقابل الضحيّة هابيل!

عدتُ من رحلة الغيوب في المستشفى. يُجاورني سليم على يميني كما جاورني قبل الغيبة، ولكن لا حضور لمن جاورني على يساري قبل الغيبوبة. اكتشفت غياب قابيل على الفور، ولكني لم أكتشف القربان، لم أكتشف غياب الساق، إلاّ فيما بعد. بل ربّما لا أكتشف غياب هذا العكّاز حتّى الآن، لأنّي لا أحسّ بفقدها إلاّ في الأوقات التي أحتاج لاستخدامها كنقطة ارتكاز. خسارة لا نعتادها بسهولة ربّما لأنّها لم تولد معنا منذ الطفولة. ولكنّها تبقى خسارة هيّنة إذا قورنت بثمار الصفقة مع القدر الذي لم يحدث يوماً أن وهب شيئاً بالمجّان، أو أعطى شيئاً على سبيل الإعارة! فهل هي صفقة خسارة تلك الصفقة



التي نفقد فيها العضو لكي ننقذ الجُرم، ننقذ الجزء لكي نضمن سلامة الكلّ. نضمن سلامة الكلّ؟ أليس **الحلم** هو الكلّ، وكلّ ما عداه جزءٌ ضئيلٌ مكمّلٌ لهذا الكل؟ ألم تقل الوصيّة إنّنا بالواقع إنّما نملك عالماً واحداً، ولكنّا بالحلم يملك كلّ منّا عالمه الذي لا يُشاركه فيه أحد؟ ألا يبدو عالم الكلّ هذا شقيّاً على نحوٍ لا يُطاق بمشاركة مَن يستحقّ ومن لا يستحقّ، بالمقارنة مع عالم الحُلم الذي لا وجود فيه لشريك؟ أليس عالماً كهذا حَرَمٌ ألْيَق بممارسة الصلاة؟ فما هي الساق التي نفقدها بحضورنا في واقعٍ يزحف فيه الكل زحف السلاحف، **في حين يدعوني الحلم للتّحليق في الآفاق بألف جناح.**

٣٠

إنّي ما زلت أتساءل عمّا إذا كان ماعشته حقّاً كان حرباً برغم ساقي الاصطناعيّة التي أجرجرها في سعيي والتي تأبى إلاّ أن تشهد لي بأنّي خضتُ حرباً حقيقيّة، وليست **حرباً في حُلم** كما يتهيّأ لي. ففضيلة الحُلم (سيّما إذا كان حلماً **مستعاداً** بعد طول اغتراب) هي تحويل الحياة كلّها إلى رحلة حُلم؛ حُلم يصيّر حتّى الحرب نفسها حُلمَاً. يُصيّر الحرب، في سبيل استعادة الحلم القتيل، حلماً لذيذاً. وهو أمرٌ غريب يمكن أن يُحسب عملاً من قبيل المعجزات التي لا يُفلح في تحقيقها سوى هذه العنقاء التي راق لي أن أنعتها بإسم: الحُلم! ولهذا السبب لم أستشعر حرباً طوال زمن الحرب، ولكنّي استشعرت سِلماً لم أستشعره زمن السلم؛ ممّا يعني أن **الحرب سلمٌ بحضور الحُلم، ولكنّ السّلم حربٌ بغياب الحُلم!**

بعد انتكاستي التي أقعدتني عن مواصلة الزحف عند حضيض المعقل الأخير هذا استعنتُ على حبس السرير بالحُلم. لم أستعجل الأطبّاء كي يُطلقوا سراحي على طريقة جلّ الرفقاء الذين ظلّوا يستنجدون حيناً ويتوعّدون حيناً آخر في سبيل التحرّر من الأسر كي يلتحقوا بمواقعهم في جبهات القتال برغم العاهات وبرغم الجراح، لأنّ مَن استيقظ في قلبه الحلم



وحده لا يعود يحسب الحرب حرباً، ولكنّه يراها ملاذاً، بل خلاصاً بدليل قدرتها على بعث الحياة في عظامٍ كانت رميماً حتى الأمس القريب. لم أستحلف الأطبّاء على طريقة الزملاء، لأنّ كنزي القديم هَرَعَ لنجدتي هُنا أيضاً: **الكتب!**

استعنتُ بالكتب لتغذية حلمي كما استعنتُ بها يوماً على خيبتي، وعزلتي. وخوائي. أغرقني الأب بكتبٍ أخرى لم أقرأها من قبل لا أعرف من أين حصل عليها في أيام المحنة تلك. كنت أستيقظ من نومي المبلبل لأجده في كلّ مرّةٍ واقفاً فوق رأسي كأنّه ملاكي الحارس، لم يحدّثني عن فجيعته المزدوجة في ميسور (فجيعة بقائه على الوفاء للزعيم وفجيعته فيه) ولكني سمعته يتحدّث مع الأطبّاء عن **الواجب** مراراً، وعن سعادته بفكّ الحصار عن المدينة، وتحرير أحلام أهل المدينة، وردّ الاعتبار للهويّة المدنّسة بأبجديّة الأكذوبة، وهو ما لم يكن ليتحقّق دون تطهير بنيان «الضمان» من الأبالسة. في مقلتيه قرأتُ إيماءً كأنّه تبكيت الضمير إلى جانب الحزن. كأنّه يعتذر لي على مُصابي، كأنّه يستجدي منّي الغفران بالإنابة عن ميسور. كأنّه يقول إنّه هو السبب لأنّه لو لم يُنجب إبناً ضالاً لما تجاسر الإبن على قتل أخيه من باب النكاية بالأب كما حدث في سيرة سليل السلف تماماً. بلى! كان الأب يؤمن بأنّ

ميسور لم يفعل بي ما فعل إلاّ نكايةً به، إلاّ من باب الانتقام منه هو كأبّ لا منّي كأخّ! وهو ما لم تُفلح مُحاولاتي في محوه من قناعة الأب بمسلك الأيّام التالية. ولكن.. ولكن الجرح الذي فجعني أكثر من جراحي ومن جراح الأب هو ما آلى إليه المآل بعد كلّ هذه القرابين. لقد رأيتُ بعد تحرير الأحلام أناساً يتجاهلون **القيمة** ويتقاتلون قتالاً في سبيل الفوز **بالغنيمة**. هذه القيمة المغتربة التي لم نفعل ما فعلنا إلا لاسترجاعها لأنّها ليست سوى الترجمة الحرفيّة لاستعارة شعريّة نعتناها باغتيال الأحلام، أمّا الغنيمة فهي لقية دنيويّة لم تخطر لنا يوماً على بال! وها هي فئة أخرى تنضمّ إلى فرقة مريدي الغنيمة متمثّلةً في عشّاق جنيّة حقيقيّة إسمها **العروش**، ولا يدري هؤلاء البلهاء أنّها المعشوقة **الوحيدة التي لا تترك عشّاقها إلاّ أمواتاً**؛ كأنّ مصرع مريدها الأخير الذي كانوا له شهود عيان بالأمس القريب لم يكن في يقينهم درساً كفيلاً ببعث الحياة في أرواحهم الظامئة إلى انتحال صلاحياتٍ هي **حكرٌ** على ربّ السماوات والأرض وحده، ظنّاً منهم أنّهم إذا كانوا خليفته في الأرض فهذا يعطيهم الحقّ في أن يستعيروا حُكمَه في الأرض وفي ملل الأرض!

أعترف أن سباق هؤلاء الجنونيّ أصابني بالغثيان

وأعادني إلى رحاب الاغتراب رغم أنفي. وكي لا أستسلم لإغواء هذا السلطان ذهبتُ مع سليم لزيارة فرسان الأمس القريب في بلاطهم المهيب الواقع خارج المدينة حيث يهيمن سكون الأبديّة. هناك طفتُ ببصري أنصاب الشواهد التي تمتدّ حتّى تحتجب في الأفق، لأنّ ساقي الاصطناعيّة أقعدتني عن واجب الوقوف في حضرة كل شاهدٍ على حِدة فاكتفيتُ بالبحث عن الرقم ١٣٣٣ المحفور في الذاكرة بعد أن استعدتُ من عرفتُ منهم، وطلبتُ الرحمة لمن لم أعرف. كنتُ أستعين بمنكب سليم في سعيي بين الأنصاب إلى جانب العكّاز. في البُعْدِ لمحت أشباحاً تسعى أيضاً مثلي بحثاً عن ذوي قُربَى أو أحبّة. كانت الشمس قد توارت للتّو مخلّفةً وراءها ذلك السحر الذي لا تجود به إلاّ مرّتين: مرّة قُبيل الشروق وأخرى بُعيد الغروب. كأنّ ما يستحق الاحتفاء وحده الميلاد أو قرينه الممات!

تمدّدت الشواهد في متاهة عصيّة لأنّ الأرقام كما اكتشفتُ لم تُحفر على صفوف القبور بترتيبٍ دالٍّ على التسلسل ربّما بسبب العُجالة بالدفن كما خمّن سليم. وكان علينا أن ننتظر ضربة الحظّ في العثور على القبر المنشود كما انتظرناها من هذا السلطان الجائر في كلّ مرّة!

في الجانب الأيمن، على بُعد خطوات، توضّحتُ شبح امرأتين

ملفوفتين بأسمال الحداد يُجاورهن شبح رجلٍ لم أتبيّن لون لباسه في غيهب ما بعد الغروب.

استوقفني سليم مشيراً إلى الرقم ١٣٣٣ المحفور على قطعة رخام مغروسةٍ في تربةٍ كانت لا تزال نديّة بفضل غيوث الموسم الأخير: **مرقد نفيس الأبدي!**. مرقدٌ كان مقرّراً أن يكون مرقدي، ولكنّه آثر أن يسبقني إليه ويتركني! استجاب لوحي الغريزة فاستأثر بالحلم، استأثر بالحدّ الأقصى من الحلم الذي لن يكون غير جوهر الحريّة الأنقى، فاختاره لنفسه وأجارني!. ألا يصلح سوء الظنّ شفيعاً لدى أمواتٍ ضحّوا بأنفسهم في سبيلنا؟ أم أنّه تجديفٌ في حقّ الأموات حتّى لو كان لنا في فقدهم العزاء سيّما إذا كانوا من الطينة التي لقّنتنا درس النزاهة؟ فكم من مرّة حاولتّ أن أقنعه بتدبير كذبةٍ تُبرّر للأشقياء الذين نجرف بمعاولنا بيوتهم كأنْ يؤكّد لهم أن نفَقَنا لن يُسقط البناية كي يخفّف عنهم الوطأة ويجلب السلوَى لأنّ الناس على استعدادٍ لتصديق حتّى الكذبة إذا كان في الأكذوبة نفعهم، ولكنهم لا يحتملون الحقيقة حتّى لو كانت في صالحهم! ولكنّ نفيساً كان يستنكر أن نخدعهم ويقول إن الضمير في الحرب يجب أن يكون هو القاضي. لقد واجهنا بفضل نزاهته متاعب كلّفتنا غالياً!

في الطرف الأيمن من الموقع انتهت المرأتان من مراسم الزيارة واقتربتا من موقعنا في طريق العودة. خلفهما دبّ رجلٌ قصير، في العقد الخامس، بدين، وكئيب. كنتُ قد عدتُ إلى أحلامي إكراماً لفارس الأحلام الذي أبى إلا أن يترجّل بالنيابة عنّي، وها هو يرقد الآن راضياً تحت قدميّ، تحت قدمي الوحيدة بالأصحّ! ولا أدري كيف وخزتني النظرة . كيف وخزني اللّحْظ الذي تعلّمتُ أن له مفعول رأس الإبرة. شيّعتُ رأسي فالتقى اللحظُ باللحظ. التقى اللحظ باللحظ خطفاً، ولكنه كان كافياً لتسديد الطعنة الكفيلة باستفزاز الرماد النائم في مرجل الحنين ليستجيب الشجن بالتمرُّد على تنّين النسيان: سدرة!

نظرة سدرة الناريّة، المكابرة، الغامضة، التي تتجادل في وميضها الأضداد: الحياء بالشهوة، التسليم بالإرادة، العنف بالتسامح، الإنكار بالإيمان. سدرة التي عرفتها بقدر ما جهلتها، وجهلتها بقدر ما ظننتُ أنّي عرفتها. سدرة أسطورة النفَق الأسطوري، والحُلم العصيّ في وجدان **صريع الأحلام القتيلة**، المعطّر برائحة العرق والقهوة! فمَنْ المحظوظ ياتُرَى الذي يمّمتْ صوبه لتهب روحه تلاوتها: أهو القرين الأبدي، أم المعشوق الوقتيّ، أم الحميم المجهول الرديف الشرعي للجندي المجهول؟

«سدرة!».

بهذا النداء هتفتُ كأنّي أروّض لحناً لا نداءً، فازْوَرّتْ كمهرةٍ جفولةٍ. ولكنّها لم تنبس. إلى جوارها تبيّنتُ المرأة المُسربلة مثلها بثوب الحداد. إنّها.. أيعقل أن تكون المرأة العمياء التي نعتها سليم فقال إنها امرأة عمّه في تلك الليلة المحمومة التي تبدو لي الآن كابوساً في حُلمٍ قبيح؟. فأيّ رباطٍ جمع المرأتين الأرملتين؟ هل هو أمومة أم أنها شقيقة لأمّ؟ أم..

تطلّعتْ في سيمائي بفضولٍ ثمّ انتقلت بعينيها النجلاوين إلى العكّاز، ومن العكّاز إلى الساق الاصطناعية اللعينة! ثوب البُلُس ذاك أضاف إلى حسنها واستكبارها وقاراً **غيبيّاً** كان دوماً غنيمة حزنٍ. إنّه معبودي. جنس الجمال الذي كان لي دائماً نقطة ضعف، فلا أعرف عمّا إذا كان الأصحّ أن أسمّيه جمال الحزن، أم حزن الجمال: جمال الحزن الذي كان لي، في عزلة الجُحر، طوق نجاة من الموت حزناً!

شيّعتْ نحوي نظرة حزنٍ وهي تتشبّث بيد الأرملة العمياء قبل أن تنطلق كأنّها تفرّ في حين حيّاني الرجل بتكبيرة صارت ترجمةً بديلة للتحيّة التقليديّة منذ بداية الأحداث.

ذهبت الذكرى بذهاب ربّة الذكرى. تبخّر الهاجس المعطّر برائحة الجسد والقهوة **وتركني في بلاط الشهداء وحيداً.** حدجتُ سليماً فوجدته يبتسم لنفسه بغموض. لم أسأله صلة

القربى بين الأرملتين، لأنّ كآبة فاضت في الروح كما فاض غيهب المساء على خلوة المقابرالمطروحة في بلاط الأبد.

أعادني سليم إلى قبوي المكتظّ بالكتب هُمْ كلّ عزائي في عزلتي. فما الذي يتبقّىَ لأمثالي غير لملمة الجراح والوضوء بالنزيف قبل الذهاب إلى الصلاة في حرمٍ أشاهد من وراء حجابه المسرحيّة الجديدة بأبطالٍ جُدد يُعانون من الورم الخبيث القديم نفسه آملاً ألاّ يُمهلهم طويلاً كما أمهل سلفهم الأخير؟ أمّا أمثالي الذين لا ينتظرون من تكرار السيرة شيئاً باستثناء أن يقفوا موقف المشاهد فيكفيهم الحلم في وقفتهم موقف المشاهد، لأنّ مَن خاض الحرب وحده يدري كم هي فتنة، أفيونٌ سهل الإدمان، ولكن الإقلاع عنه غالي الثمن. الآن فقط فهمتُ لماذا تحشد أمم الدنيا أطبّاء في علم النفس لمداواة الأبناء العائدين من الحروب ومعاملتهم كمرضى. زملائي أيضاً صارحوني بهوَسهم بالحرب حتّى أنّهم لا يدرون ماذا سيفعلون بأنفسهم يوم ستتوقّف. ولم يفُتْ بعضهم أن يعبّر لي عن حسدهم لأنّ العطب في الساق شهادة أخلاقيّة كافية للتّقاعد من حمل هذا الصليب إلى ما لا نهاية كما هو الحال بالنسبة لهم. إلى ما لا نهاية؟ بلى! بلى! المحارب وحده فارس الحَلَبة الذي لا يقنع بالغَلَبة، لأنّه لا يعود مع استمرار الحرب

يحارب لكي يُنزِل هزيمةً بعدوّ، ولكن لكي ينزل الهزيمة بنفسه؛ وإلا ماذا نسمّي إنساناً يريد أن يهزم الموت، يريد أن يُميت الموت، إن لم يكن يُريد استنزال الهزيمة بالنّفس، وهو ما لا يتحقّق بدون تلقّي الموت؟ كأنّ الدّاء قصاصٌ نتلقّاه جزاء سفك الدماء حتّى لو كان سفكاً عادلاً للدّماء! و لكن هل هو سفكٌ عادلٌ بالمُطلق للدّماء؟ ألم تُنزف في هذه الحرب (بل و في كلّ حرب) دماء أبرياء أيضاً إلى جانب دماء الخُطاة؟ ألم يكن اختلاط الحابل بالنّابل ميزة الحروب الأهليّة منذ الأزل حيث يتقاتل الأشقّاء وتُسفك دماء الآباء بيد الأبناء؟ ألم يَسِلْ دم ميسور بالأمس في وقتٍ جمعتنا صلة رحمٍ ورباط دمّ؟ ألم يقُمْ سليم أيضاً بكتم أنفاس رجلٍ هو له عمّ؟

وأعترف أن العناية الإلهيّة لم تجرّدني من هذه اللعنة بسبب عطب الساق كما يظنّ الأقران، ولكن بسبب وجود البديل . بسبب وجود حرب بديلة أخرى لا تقلّ ضراوة عن حرب تحرير البُنيان تقف في انتظاري، لأنّها أيضاً تحرير. أليس تحرير الجيل من لعنة المناهج التعليميّة المحزنة رسالة لن تقلّ خطورة عن رسالة تحرير المدينة من الدنَس ؟ فالمناهج كانت أيضاً دنساً، بل رأس الدنَس الذي سمّم روح الجيل، وغرّب الوطن عن وجدان أبناء الوطن، بمحو هويّة الوطن طوال هذه السنين ! ففي

حَرَم التّعليم ينتظرني هذا الجيل، الجيل البديل، الظامئ إلى الحقيقة، الذي لم أكن لأحتكم إلى السلاح في يوم الهبّة لكي أنتقم لنفسي جزاء قتل الأحلام، ولكن لكي أثأر بالإنابة عن الجيل من مكيدة اختلاس روح الجيل من ذاكرة الجيل بتزييف تاريخ الجيل. والحرب على تلك الجبهة هي حربي بامتياز، ذخيرة سلاحي في ذلك كُتُبي، ودليلي في السبيل حُلُمِي: الحُلُم الذي لم يخذلني زمن المحنة كما لم تخذلني كتبي زمن المحنة؛ الحُلُم الوديع بقدر ما هو مارد بدليل أنّه لا يسكننا إلاّ كديوان أشعار، ولكنّه الرسول القادر وحده على استعادة الواقع من بُعْدِه المفقود؛ مفقودٌ بفضل دسيسة أشباح الظلمات في حملتها الخسيسة لقتل الأحلام. ولكن هيهات، فالأحلام دلّلت على هويّتها كعنقاء قادرة دوماً على بعث نفسها من رماد الوعد بفردوس البُهتان!

دُبي – أبوظبي (الإمارات) دوربان (جنوب إفريقيا)
تونس (العاصمة) غولديفيل (الرّيف السويسري)
مارس إبريل ٢٠١٢ م

تستمد رواية فرسان الأحلام القتيلة واقعيتها المتخيلة أو خيالها الواقعي وقوتها وتوهجها وإبهارها، منطلقة من أحداث الربيع العربي الليبي، ولا أقدر من الأستاذ إبراهيم الكوني لسبر أغوار الشخصية الليبية كونه من أبنائها، وقد عايش وعاين أحداثها وشخوصها واكتوى بنار جلاديها وتحمل نتيجة رفضه نهج قيادتها البائدة فدفع الثمن الباهظ غربة وحنيناً للوطن.

سيف المري

كتاب دبي الثقافية

63

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

للصحافة والنشر والتوزيع